أفكار
AFKAR

وزارة الثقافة

2025 - تشرين الثاني | العـــدد 442
ثقافية شهرية -تصدر عن وزارة الثقافة منذ 1966
المـمـلـكـة الأردنـيـة الـهاشـمـيـة

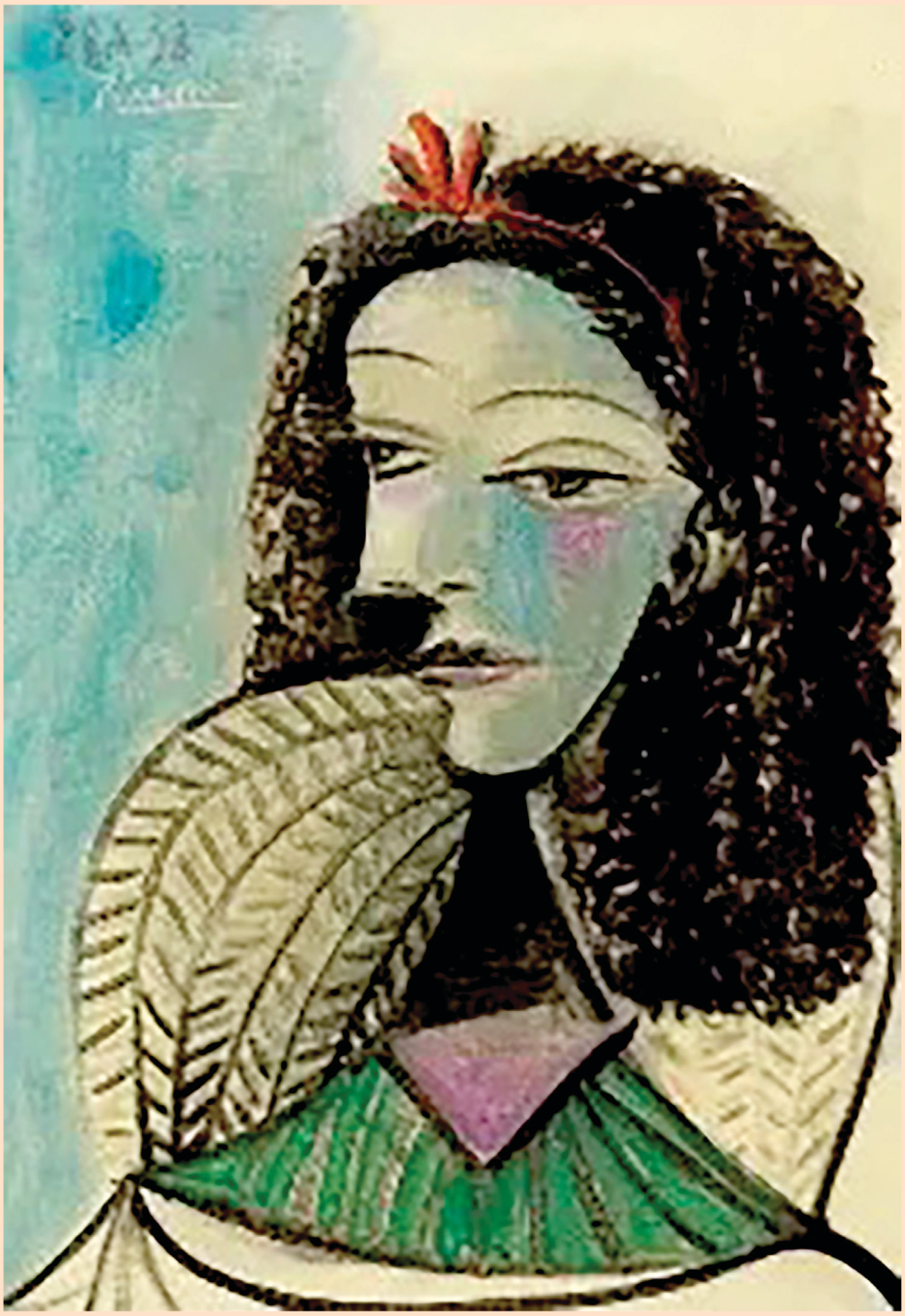

ملف العدد

التغيّرُ المُناخيُّ
من منظورٍ وطنيّ

من مواد العدد:

كيف قرأ
(روجر آلن)
الرواية العربيّة

الكتابةُ وجماعاتُ
المدن الثقافيّة

442

أفكار

مجلة شهرية ثقافية

تصدر عن وزارة الثقافة

المملكة الأردنية الهاشمية

442 / تشرين الثاني 2025

رئيس التحرير

أ. سميحة خريس

مدير التحرير

د. مخلد بركات

سكرتيرة وعضو تحرير

أ. منال حمدي

هيئة التحرير

د. إبراهيم بدران

د. إبراهيم خليل

أ. أكرم الزعبي

د. راشد عيسى

د. هاشم مناع

الإخراج الفنّي

حنان الطوس

لوحتا الغلافين الأمامي والخلفي/ للفنان العالمي بابلو بيكاسو

تأمل هيئة تحرير المجلة من الكتّاب مراعاة ما يلي:

- ترسل المادة المطبوعة ألكترونياً مشفوعة بصورة للهوية الشخصية، أو لجواز السّفر لغير الأردنيين على عنوان البريد الإلكتروني للمجلة.
- أن لا تكون المادة قد نشرت سابقًا.
- ألا يتجاوز عدد كلمات المادة 2500 كلمة وألا يقل عن 1500 كلمة في حده الأقصى.
- الصور المرسلة للمادة يجب أن تكون عالية الدقة والوضوح ع لى أن لا تقل عن 1 ميجا بايت.
- هيئة التحرير هي الجهة المخوّلة بقبول المادة للنشر أو الاعتذار عن عدم نشرها.
- تحتفظ المجلة بحقها في التصرف بالمواد التي تنشرها ويشمل هذا الحق الطباعةالورقية والنشر الإلكتروني، ولا يجوز إعادة نشر مواد مجلة «أفكار» دون إذن مسبق من هيئة تحرير المجلة.
- هيئة التحرير غير ملزمة بإبداء أسباب الاعتذار عن عدم النشر.
- يرسل الكاتب اسمه الثلاثي، واسم الشهرة الذي يُعرف به، ورقمه الوطنّي (للكتّاب الأردنيين)، ونبذة عن سيرته الذاتية (للمرة الأولى فقط).
- يرفق مع المواد المترجمة نبذة عن سيرة مؤلّف النص المترجَم، ويُشار إلى المصدر المترجَم عنه.
- يخضع ترتيب المواد المنشورة لاعتبارات موضوعية وفنية.
- بخصوص التوثيق في المقالات والدراسات المرسلة للمجلة أن تكون الهوامش في الصفحة الأخيرة منها.

الموقع الإلكتروني لمجلة أفكار: http://www.afkar.jo

كما يمكن تصفّح المجلة على موقع الوزارة: www.culture.gov.jo

المراسلات باسم رئيس التحرير: E.mail: afkar@culture.gov.jo

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة: (1090) 2010 / د

العنوان البريدي: الأردن - عمّان ص.ب: 6140

الرمز البريدي: 11118

المحتويات

9

مفتتح ____ 4

التغيّراتُ المُناخية: من الصدام مع الطبيعة إلى التواؤم / د. إبراهيم بدران

51

ملف العدد ____ 6

التغيّرُ المُناخيُّ من منظورٍ وطنيّ/ إعدد وتقديم: د. المؤيد السيد

التغيّر المُناخي؛ المخاطرُ والحلولُ/ د. المؤيد السيد 7

التغيّرُ المُناخي: لمحةٌ عامةٌ من منظورٍ وطني/ م. ربى عجور 9

تأثيرُ التغيّرات المُناخية على قطاع المياه في الأردن/ د. المؤيد السيد 14

البلدياتُ الأردنيّةُ في مواجهة التغيّر المُناخي: نحو تنميّة حضريّة أكثر استدامة وجودة حياة أعلى/ م. مجد شطناوي 21

التغيّرُ المُناخي والطاقة/ م. سوسن بوارش 26

الزراعةُ والأمنُ الغذائيُّ والتغيّرُ المُناخي/ م. حسام الدين الحاج علي 30

المجموعاتُ الأكثرُ هشاشةً في مواجهة التغيّر المُناخي: الشبابُ والمجتمعُ المدنيُّ وذوو الإعاقة/ م. عبد الغني عرب 37

التغيّرُ المُناخي والصحة/ م. أحمد البرماوي 42

62

70

المواد المنشورة في هذا العدد تعبّر عن آراء كتّابها،

ولا تعبر بالضرورة عن رأي وزراة الثقافة الأردنية.

مقالات ودراسات 44

الثقافةُ الدينيّةُ وأثرها في رفع الوعي البيئيّ/ د. أيوب أبودية 45

سرُّ القراءة والاقترابُ من الأسئلة/ جلال برجس 51

الروايةُ مرآةُ التحوّلات المجتمعيّة: نماذجُ تطبيقيّة في الرواية الأردنيّة/ مجدي دعيبس 55

الفنّيُّ والجماليُّ في رواية محمد برادة؛ (بعيداً عن الضوضاء...)/ زكية المجذوب 60

الكتابةُ وجماعاتُ المدن الثقافيّة/ علي الفواز 66

المرأةُ كذاتٍ سرديّة: في أدب (توني موريسون) ولطيفة الزيات/ بسمة علاء الدين 71

كيف قرأ (روجر آلن) الرواية العربيّة / د. نضال الشمالي 74

"نكهة بيروت: موائد وسرديات" لنادر سراج؛ عبقُ الطعام وشغفُ الذكريات/ د.عيسى برهومة 81

كيف تغتني الثقافةُ العربيّةُ بالانفتاح على الحضارة الصينيّة/ د. سلطان الزغول 86

الوصولُ إلى النهضة بالخطِّ العربي/ محمد أبو عزيز 92

كتابةُ الرؤيا: رؤى ومقارباتٌ بالحبر الحرّ والقلم المشاكس/ البشير عبيد 97

تجربةُ إبراهيم نصر الله الروائيّة: بين ترميم الوعي وحفظ الهُويّة/ نور بني عطا 100

(جدتي وأمّي وأنا) لجين سعيد المقدسي: كتابٌ يسبر غورَ المرأة العربيّة/ جهاد الرنتيسي 104

74

100

104

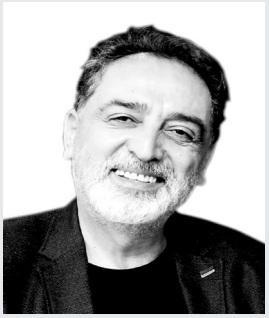

125

إبـــــــداع 108

تعريفاتٌ/ زليخة أبو ريشة 109

وإذا قلتُ اسمكِ/ عزت الطيري 111

وحدي / رشاد رداد 113

خريف/ جميلة عمايرة 114

السَّبع/ مجدولين أبو الرب 115

ذكرياتٌ سائبة/ ليلى سلامة 117

الأصدقاء/ للكاتب: خوليو كورتاثار/ ترجمتها عن الإسبانية: أمل العلي 119

نوافذ ثقافية: محمد جميعان 120

مدارات البوح: محمد خضير 124

مفتتح

التغيّراتُ المُناخية: من الصدام مع الطبيعة إلى التواؤم

د. إبراهيم بدران *

تتوالى التغيّراتُ المُناخيةُ بشكل متسارع لتبرز آثارها السلبية في جميع أنحاء العالم. وقد بدأت موجةُ التغيّرات المعاصرة مع انطلاق الثورة الصناعيّة الثانية عام 1870، حين دخل النفط والفحم والغاز كمصادر رئيسة لتوليد الطاقة لمختلف الأغراض، بكل ما يرافق ذلك من ابتعاثات حرارية وانطلاق الغازات الملوثة للبيئة وفي مقدمتها غاز ثاني أكسيد الكربون. وباجتماع الغازات مع الحرارة فإنَّ خللاً بيئيًّا سيتوطن في المُناخ. درجة حرارة الأرض أخذت بالارتفاع حيث تم قياس ذلك من العالم (جاي كالندار) عام 1938م. أمَّا المظاهر الطبيعيّة التي نشاهدها اليوم للتغيّرات المُناخية، فتتمثل أساسًا في ذوبان الجبال الجليديّة في القطبين الشمالي والجنوبي، وبالتالي ارتفاع مستويات مياه البحار وتعرض أجزاء من اليابسة للغرق، وكذلك ارتفاع درجات حرارة الأجواء المحيطة بالأرض، واختلال حالة الأمطار سواء في النصف الشمالي أو الجنوبي من الكرة الأرضية. أمَّا الترجمة العملية لهذه الظاهرة فهي تراجع الأمطار وخاصةً في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ابتداءً من حوض البحر الأبيض المتوسط، وزيادة الجفاف وتوسع ظاهرة التصحّر، وانحسار الغطاء النباتي، وضمور التنوع الحيوي على الأرض ليشمل النباتات والأشجار وبعض الحيوانات، وفي البحار ليشمل أنواعًا عديدة من الأحياء المائيّة المهدّدة بالانقراض، وفي الجو لتشمل اختفاء أنواع عديدة من الطيور والحشرات.

وبالتالي؛ فإنَّ العالَم أمام إشكالية بالغة التعقيد، والوطن العربي أمام إشكالية أكثر تعقيدًا. فمن جهة يتزايد عدد سكان المعمورة في كل مكان، بما يستلزم ذلك من أراضٍ للإعمار وللزراعة ولإنتاج الغذاء النباتي والحيواني، بكل ما يرافق ذلك من استهلاك متزايد للمياه، وانبعاثات حرارية وغازية وخاصةً ثاني أكسيد الكربون، إضافةً إلى التلوث الحراري والغازي المنبعث من أنظمة النقل والتصنيع والخدمات ومستلزماتها، وبشكل لافت إنتاج لحوم الأبقار والأغنام؛ فارتفع انبعاث ثاني أكسيد الكربون من متوسطه العالمي 3 طن لكل فرد عام 1961 إلى 4.67 طنًّا للفرد عام 2023. ومع تطوّر اقتصادات الدول والانتقال من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي فإنَّ انبعاثات ثاني أكسيد الكربون سوف تتزايد، وخاصةً لدى الدول الناهضة مثل الصين والهند والبرازيل وأندونيسيا بأعداد سكانها التي تتجاوز 3.2 بليون نسمة، وما يزال أمامها شوطٌ طويلٌ في مجال التصنيع. معدل الانبعاث الغازي للفرد الأمريكي يصل (14.3) طن سنوياً مقابل الفرد الصيني (4) طن لكل فرد، و2.13 طنًّا للفرد في الهند.

من جانب آخر فإنَّ المنطقة العربية تواجه إشكالاتٍ بالغة التعقيد من حيث تعرضها لموجات متواصلة من الجفاف وقلة الأمطار وارتفاع درجة الحرارة، وفي الوقت عينه افتقارها لمصادر المياه الطبيعيّة من أنهار وبحيرات ومسطحات مائية مختلفة، وضآلة المساحات

* أكاديمي وباحث، وزير سابق/ عضو هيئة تحرير مجلة أفكار

الخـضراء التي تلّطـف البيئة وتخفّض الحـرارة، وغلبة الأراضي الصحراوية التي تغطي 87% من مساحة العالم العربي. وقد انخفض متوسـط سـقوط الأمطار في العالم العربي إلى 220 ملمتراً في السـنة مقابل المتوسط العالمي 990 ملمتراً في السنة.

إنَّ الآثار الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية للتغيّرات المُناخية ستكون سيئةً للغاية وستتأثر بها جميع الدول، إضافـةً إلى التفـكّك الذي قد يهاجـم المجتمعات التي تعجز عـن المواجهة، وخاصـةً فقر الميـاه والغذاء. إنَّ المواجهة المطلوبة هي باسـتخدام السلاح الأقوى، وهو العقـل والعلم والتكنولوجيا؛ وهو السـلاحُ المتوائمُ مع الطبيعة، وحسن الإدارة، وصحة التوقيت ودقته، وكفاءة الاستثمار. لقد كشف لنا العلم عن بدائل كثيرة متصالحة مع الطبيعة وليس متصادمةً معها، وأتاحت لنا الطبيعة اسـتثمار ما فيها من إمكانات باستخدام التكنولوجيات المتخصّصة الرفيقة بالبيئة. ولكن تركت للإنسـان حرية القـرار. ولذا نرى اليوم اهتمامًا واسـعًا بالطاقة البديلة المعتمدة على الشمس أو الرياح أو المساقط المائية لتوليد الكهربـاء. ونـرى الصناعات المائية وقـد راحت تزدهر في العديـد من دول العالم لتشـمل تحلية المياه وإعادة تدوير المياه المستعملة، والاسـتمطار، وتوليد المياه من الهواء وغيرها. أمَّا الزراعة التي تستهلك بالمتوسط 65% من الميـاه فإنَّ التكنولوجيا الرقمية والطائرات المسـيرة والأبحـاث التطبيقية حوّلت الزراعة من كونها نشـاطًا شبه بدائي إلى زراعة ذكية وزراعة مائية لا تستهلك أكثر من 25% من الأنماط الزراعية التقليدية.

وهنا يبرز السؤال الأكثر أهميةً بالنسبة للمنبر الفكري الذي تمثّله "مجلـة أفكار": هل للفكر والثقافة والفنون دورٌ في التعامـل مـع التغيّرات المُناخيـة، وفي المواجهة لوقف تلك التغـيّرات والتخفيف مـن تصاعدها؟. هل للمثقفين والمفكريـن والعلماء والفنانـين دورٌ ليقوموا به؟ أم أنَّ المسـألة كلها تعود إلى إدارة الدولة والهندسة والتكنولوجيا؟. لا شـكَّ أنَّ واحدًا من الأسـباب الرئيسة التي فاقمت مـن الانبعاثات الغازية والحرارية وخاصةً خـلال المئة سـنة الماضية هي تلك النزعة الاسـتهلاكية التي انتشرت في العالم والمتمثلة في الإفراط في الاستهلاك الذي شمل كل سلعة وخدمة تقريبًا. وهذا الإفراطُ غدا نمطًا اجتماعيًّا وجزءًا مـن ثقافة المجتمعات. هل يمكن للمثقفين الإسـهام في تغيير هذا النمط الاسـتهلاكي من خلال تعزيز وعي الإنسـان لمشكلات التغيّر المُناخي من جهـة، ولدوره كفرد ومواطن وطني وعربي وإنسـاني في الحفاظ على البيئة؟ سـواء من خلال تبني مناهج إعادة التدوير للمواد، أو التحول عن المواد الشديدة الابتعاث للغـازات والحرارة كاللحوم، أو حتى الاهتمام بوسـائط النقـل النظيفة كالدراجـة الهوائية أو تخضـير المنازل وإنشـاء الحدائق والحفاظ على المياه والغابات. لا شكَّ أنَّ للمثقفين والتربويين والمفكرين والإعلاميين والفنانين دورًا بالغ الأهمية في هـذا الاتجاه. صحيحٌ أنَّ الشركات المنتجة تحاول تسـويق منتجاتها حتـى لو كانت ضارة بالبيئة بشـتى الوسـائل، ولكن الوعي المجتمعي الذي يبنيـه المثقفون، والتحـوّلات في التعامل مـع الطبيعة واسـتيعاب فصول المسـتقبل تحتاج دائمًا- بالإضافة إلى التكنولوجيا والهندسـة والأنظمة والقوانين- إلى الثقافة والفكر والفنِّ لتعزيز نظرة الإنسان إلى الطبيعة باعتباره واحدًا من مكوناتها الفاعلة وبالاتجاه الإيجابي. تلك هي المسألة!!.

ملف العدد

التغيّرُ المُناخيُّ من منظورٍ وطنيّ

- د. المؤيد السيد
- م. ربى عجور
- م. مجد شطناوي
- م. سوسن بوارش
- م. حسام الدين الحاج علي
- م. عبد الغني عرب
- م. أحمد البرماوي

تقرير

التغيّر المُناخي؛ المخاطرُ والحلولُ

د. المؤيد السيد*

لم يعُــد الحديثُ حول التغيّر المُناخي يقتصرُ على مختصّين أو نخبةٍ من الناس دون أخرى بل بات من المواضيع المهمّة لجميع فئات المجتمع. فالتغيّرُ المُناخيُّ هو تغيّرٌ في المحيط الذي يعيش فيه الإنســان؛ وهو بالتالي يتقاطع مع طعامه وشرابه ومسكنه وعمله وانتقاله؛ بل في حياته كلِّها.

نقول هذا في وقت تتواتر فيها الأخبار عن وفاة ما يزيد على ســتين ألف إنســان في أوروبا بسبب ارتفاع درجات الحرارة في صيف عام 2024، إضافةً إلى آلاف القتلى والمشردين بسبب الفيضانات التي حدثت في باكستان عام 2025، واتساع حرائق الغابات بشكل غير مسبوق في العالم، حيث وصل عددُ الحرائق في منطقة المتوســط وحدها خلال عامي 1985 و 2015 إلى ما يزيد على 170 ألف حريق. إضافةً إلى العديد من الدراسات المحكمة التي تثبت الترابط بين التغيّر المُناخي والاكتئاب والقلق والصحة النفسية بشكل عام.

* مدير مركز المياه والبيئة والتغيّر المُناخي/ الجمعيّة العلميّة الملكيّة

إذن؛ فمخاطرُ التغيّرُ المُناخيُّ لم تعُد نظريةً أكاديميّةً، بل باتت واقعاً يعيشه العالم ونعيشه نحن في الأردن أيضاً على وجه الخصوص. كل هذا دفع بنا إلى ضرورة الحديث والتحرك والعمل لمواجهة التغيّرات المُناخية إمَّا من خلال التخفيف (Mitigation) أو من خلال التأقلم (Adaptation)، حيث تُعدُّ الأولى من الأولويات في الدول الصناعية المنتجة، بينما يتركز العمل في الثانية على زيادة المنعة المُناخية في الدول غير الصناعية.

من هنا؛ جاءت أهميةُ هذا الملف الذي بادرت به مشكورةً مجلة أفكار الصادرة عن وزارة الثقافة، إيماناً منها بضرورة العمل المشترك والتوعية المجتمعية ونشر الثقافة العامة المرتبطة بهذا الموضوع المهم.

وقد جاء هذا الملف في سبع دراسات استهدفت المواطن العادي غير المتخصّص، حيث هدفت جميعها إلى نشر الثقافة العامة في التغيّر المُناخي وربطه بجميع القطاعات المختلفة.

بدأ هذا الملف بالدراسة الأولى التي قدّمت قراءةً مكثّفةً حول التغيّر المُناخي مع التركيز على الأردن، حيث بيّنت تعريفات عامة مع إشارة إلى الاتفاقيات والالتزامات العالمية مثل اتفاقية باريس وانعكاسها على المستوى الوطني من خلال المساهمات المحدّدة وطنيًا. بينما ركّزت الثانية على علاقة التغيّر المُناخي بالمياه مع التركيز على آثار التغيّرات المُناخية على مصادر المياه المختلفة في الأردن والوسائل العملية للتأقلم والتخفيف. أمَّا الثالثة فسلّطت الضوء على المدينة والتوسع الحضري وعلاقته بالتغيّر المُناخي؛ فأشارت إلى أنَّ تأثر المدينة بالتغيّر المُناخي غالباً ما يكون أشد وأكثر خطورةً حيث تتجمع الكثافة والتعرض والضعف في مكان واحد. وهنا تظهر الحاجة للانتقال من البنية التحتية التقليدية إلى البنية التحتية المقاومة للمُناخ والحلول الطبيعية. أمَّا الرابعة فناقشت موضوع الطاقة والتغيّر المُناخي وهنا الباب الأوسع للتخفيف وتقليل البصمة الكربونية. وقد تطرقت إلى أهمية الطاقة البديلة كالشمس والرياح والهيدروجين الأخضر، والنقل النظيف في تحقيق الالتزامات الدولية في التخفيف من الانبعاثات. وفي الخامسة تم الحديث عن علاقة التغيّر المُناخي بالزراعة مع مناقشة لأهم الأدوات التي من شأنها أن تزيد من تأقلم القطاع الزراعي مع التغيّرات المُناخية. وفي السادسة تم الحديث عن المجموعات الهشّة وأهمية إدماج جميع الفئات في العمل المُناخي وتحقيق العدالة المُناخية. وخُتم الملف بحديث مختصر حول علاقة التغيّر المُناخي مع الصحة، بتسليط الضوء على الاستراتيجيّة الوطنيّة لتكيّف القطاع الصحي مع التغيّر المُناخي.

ونسألُ الله أن يكون في هذا الملف النفع للقارئ الكريم.

التغيّرُ المُناخي: لمحةٌ عامةٌ من منظورٍ وطني

م. ربى عجور *

• ما هو تغيّرُ المُناخ[1]؟

يشــيرُ إلى التحــولات طويلة الأجل في درجــات الحرارة وأنماط الطقس. يمكــن أن تكون هذه التحولات طبيعية، بســبب التغيّرات في نشاط الشمس أو الانفجارات البركانية الكبيرة. ولكن منذ القرن التاسع عشر، كانت الأنشطة البشريّة هي المحرك الرئيس لتغيّر المُناخ، ويرجع ذلك أساسًا إلى حرق الوقود الأحفوري مثل الفحم والنفط والغاز. ينتج عن حرق الوقود الأحفوري انبعاثات غازات الاحتباس الحراري التي تعمل مثل غطاء ملفوف حول الأرض، مما يؤدي إلى حبس حرارة الشمس ورفع درجات الحرارة.

* رئيسة قسم دراسات التغيّر المُناخي/ الجمعيّة العلميّة الملكيّة

تُعــدُّ الطاقــة والصناعة والنقل والمبــاني والزراعة واســتخدام الأراضي مــن بــين القطاعات الرئيســة المسبّبة لانبعاثات غازات الاحتباس الحراري. وتشمل غازات الدفيئة الرئيســة التي تسبب تغيّر المُناخ ثاني أكسيد الكربون والميثان. فعلى سبيل المثال تأتي هذه الغــازات من اســتخدام البنزين لقيادة الســيارة أو الفحــم لتدفئة مبنى ما، ويمكن أن يــؤدي التغيّر في اســتخدامات الأراضي وقطع الغابات أيضًا إلى إطلاق ثاني أكسيد الكربون. وتُعدُّ عمليات الزراعة واستخراج النفــط والغاز مــن المصادر الرئيســة لانبعاثات غاز الميثان.

نظرةٌ عامةٌ على التغيّر المُناخي عالميًّا ومحليًّا

عالميًّا، تؤكّد التقاريــر العلمية الصادرة عن الهيئة الحكوميــة الدوليــة المعنية بتغير المُنــاخ، أنَّ ارتفاع درجــات الحرارة العالميــة بات أمرًا واقعًــا، مدفوعًا بشــكل أســاسي بزيادة انبعاثات غــازات الاحتباس الحراري الناتجة عن النشــاط البشري. وقد أدى ذلك إلى ارتفــاع وتيرة الكــوارث الطبيعيــة، وتغيّر أنماط الهطول المطري، وتفاقم أزمات الجفاف والفيضانات، مــع توقعات باســتمرار تدهور الأوضــاع في العقود القادمة إذا لم تُتخذ إجراءات جذرية.

التمويلُ المُناخي: تنفيذ خطط التكيّف والتخفيف يتطلب استثمارات ضخمة تتجاوز القدرات الوطنية.

وبالرغـم من التعهـدات الدولية بتوفـير 100 مليار دولار سـنويًّا للـدول النامية ضمن اتفـاق باريس، إلا أنَّ حجـم التمويل المتاح ما يزال دون المسـتوى المطلوب، حيث حصلت الدول العربية مجتمعةً على أقل من 6% مـن احتياجاتها الماليـة المُناخية خلال العقد الماضي.

الأردنُ في مواجهـة التغـيّر المُناخـي: التزامـاتٌ وأسهاماتٌ وتحدياتٌ وفرص

يتميز الأردن بمناخ جاف وشـبه جاف، ويعاني من ندرة الموارد المائية وتدهور الأراضي الزراعية، إضافةً إلى النمو السكاني السريع والتوسع الحضري، ما يزيد من هشاشة الأنظمة البيئية والاجتماعية أمام التغيّر المُناخي.

يواجه الأردن، كغيره مـن دول العالم، تحديات متزايـدة نتيجة التغـيّر المُناخي، الـذي يُعدُّ أحد أخطـر التحديـات العالميـة في القـرن الحـادي والعشرين. ورغم محدودية مساهمته في انبعاثات غازات الدفيئة عالميًا، إلا أنَّ الأردن يقع ضمن أكثر الدول تأثرًا بمخاطر المُنـاخ، مما يحتم عليه اتخاذ إجراءات اسـتباقية للتكيف. وتتمثل هذا المخاطر في تهديدات وجودية تطال الأنظمة البيئية، الأمن المائي والغـذائي، والصحة العامة، مـع تزايد وتيرة الظواهـر المُناخيـة المتطرفة مثل موجـات الحر، الجفاف، الفيضانات.

الاتفاقيـاتُ الدوليّـةُ والتزامـاتُ الأردن في إطار (اتفاق باريس).

انضـم الأردن إلى الاتفاقيـات الدوليـة المعنيـة بالمُناخ، وأبرزها اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغـيّر المُنـاخ عام 1992 ومن بعدهـا اتفاق باريس عـام 2015، حيث التزم بالعمل على الحدِّ من ارتفاع درجات الحـرارة العالمية وتعزيز قدرته على التكيّف مع آثار التغيّر المُناخي. ويُعدُّ الأردن من أوائل الدول التي قدمت مسـاهماتها المحدّدة وطنيّاً (NDCs)، التي تضمنت أهدافًا لخفض انبعاثات غازات الدفيئة وتعزيز المرونة المُناخية حتى عام 2030.

كيف يُمكنُ للأردن أن يقودَ التغيير في المنطقة؟.

يمتلك الأردن خبرةً متراكمةً في العمل المُناخي، ويُعدُّ نموذجًا إقليميًّا في تبني السياسات المُناخية الطموحة، خاصةً في مجـالات الإدارة المتكاملة للموارد، الطاقة المتجـدّدة، وبناء القدرات الوطنية. ويمكن للأردن أن يقود التغيير عبر:

- نقـل المعرفة والخبرة للـدول المجاورة في مجال إدارة المياه والطاقة المتجددة.
- تعزيـز التعـاون الإقليمي لمواجهـة التحديات المشتركة مثل ندرة المياه والتصحر.
- المشـاركة الفاعلة في المبادرات الدولية والإسهام في صياغة السياسات المُناخية على المستوى الإقليمي والدولي.
- تشجيع الابتكار والاستثمار الأخضر وخلق فرص عمل في القطاعات المستدامة.

ملخـصُ جـرد غـازات الدفيئـة حسـب النوع والقطاعات: الأردن كدراسة حالة

يُظهـر الجرد أنَّ ثاني أكسـيد الكربـون (CO2) هو الغاز الأكثر إسـهامًا في إجـمالي انبعاثات غازات الدفيئة بنسـبة 77%، يليه الميثان (CH4) بنسـبة 15%، وأكسـيد النيتروس (N2O) بنسـبة 4%. وفي الحقيقة، تعود معظم انبعاثات ثاني أكسيد الكربون إلى قطاع الطاقة (24062 جيجا غرام في عام 2017)، يليه قطاع العمليات الصناعية واسـتخدام المنتجات (IPPU) أمَّـا الميثـان فمصـدره الأكـبر هـو قطاعُ النفايات، في حين يأتي أكسـيد النيتروس أساسًـا من الزراعة واسـتخدام الأراضي (AFOLU. وقد أسـهم قطاع الـ IPPU بنسبة 100% من انبعاثات مركبات الهيدروفلوروكربـون (HFCs)، في حـين جـاءت انبعاثات المركبات العضوية المتطايرة (NMVOCs) من قطاع الطاقة وقطاع العمليات الصناعية.

عنـد تحليل القطاعات، يُعدُّ قطـاع الطاقة الأكثر إصـدارًا للانبعاثات، يليه قطـاع النفايات لكن عند النظر في القطاعـات الفرعية،يتصـدر النقل المرتبة الأولى من حيث الانبعاثات، تليه توليد الكهرباء، ثم النفايات، وأخيرًا العمليات الصناعية. يُوضّح الجدول التالي الإسهامات النسبيّة لكل قطاع.

تشـير البيانات إلى أنَّ النقل وتوليد الكهرباء هما المصدران الرئيسان للانبعاثات في الأردن، ما يستدعي تعزيز اسـتخدام الطاقة المتجدّدة وتحسـين كفاءة النقل للحدِّ من الانبعاثات مستقبلاً.

القطاع	الانبعاثات (CO_2 جيجا غرام مكافئ)	النسبة المئوية من الإجمالي
إجمالي الانبعاثات الوطنية	32647	100%
النقل	9465	29%
توليد الكهرباء	9153	28%
النفايات	4046	12%
العمليات الصناعية وإستخدام المنتجات	3247	10%

إسهاماتُ الأردن المحدّدة وطنيّاً (NDCs)

أعلن الأردن عن تحديث أسهاماته المحدّدة وطنيّاً في عــام 2021، رافعًا هدف خفــض انبعاثات غازات الدفيئة مــن 14% إلى 31% بحلول عام 2030، منها 5% خفــض غير مشروط و26% مــشروط بالحصول على دعم مــالي وتقني دولي. تركّز هذه الإســهامات عــلى قطاعــات: الطاقــة، الميــاه، الزراعــة، النقل، النفايــات، والصناعة، مع التأكيــد على أهمية تعزيز كفاءة الطاقة وزيادة حصة مصادر الطاقة المتجدّدة.

كما تتضمــن خطة العمل الوطنية للمســاهمات المحــددة وطنياً إجــراءات لرفع مرونــة القطاعات الحيويــة، خاصةً قطاعــي المياه والزراعــة، وتعميم الاعتبــارات المُناخية في التخطيــط التنموي الوطني والمحلي.

التخفيفُ والبصمةُ الكربونيّة

رغم أنَّ البصمة الكربونية للأردن منخفضة مقارنة بالدول الصناعية الكبرى، إلا أنَّ المملكة تلتزم بخفض انبعاثاتهــا من خــلال التحوّل إلى اقتصــاد منخفض الكربــون، وزيادة حصة الطاقة المتجدّدة، وتحســين كفاءة الطاقة في القطاعات المختلفة، وتشجيع النقل المستدام، وإدارة النفايات بشكل فعال.

التأثــيراتُ المحتملــةُ عــلى الأردن: شــحُّ الميــاه، التصحّرُ، الحرائقُ والكوارثُ الطبيعيّة

• **شــحُّ المياه:** يُعــدُّ الأردن من أفقــر دول العالم مائيًّا، ويواجه تحدياتٍ متزايدةً نتيجة تراجع الهطول المطــري وارتفاع درجات الحرارة وزيادة الطلب على المياه بسبب النمو السكاني واللجوء.

• **التصحّــرُ وتدهورُ الأراضي:** يؤدي تغيّر المُناخ إلى تراجــع الغطاء النباتي وتدهــور الأراضي الزراعية، ما يهدّد الأمن الغذائي ويزيد من مخاطر التصحر.

• **الحرائــقُ والكــوارثُ الطبيعيــة:** تزايدت وتيرة الحرائق في الغابات والمناطق الطبيعيّة نتيجة ارتفاع درجات الحرارة والجفاف، إلى جانب تكرار الفيضانات والانهيارات الأرضيّة في بعض المناطق.

• **الأمــنُ الغذائيُّ والصحيُّ:** تؤثر التغيّرات المُناخية على إنتاجية المحاصيل وجودة المياه، ما ينعكس سلبًا على الأمن الغذائي والصحة العامة.

التكيّفُ والمنعة

يُعــدُّ التكيّفُ مــع التغيّر المُناخــي أولويةً قصوى للأردن، نظرًا لحساســية مــوارده الطبيعيــة وبنيته التحتية. وتشــمل استراتيجيات التكيّف تعزيز كفاءة استخدام المياه، تطوير أنظمة الزراعة الذكية مناخيًا، تحسين إدارة الموارد الطبيعية، وتنفيذ مشاريع الطاقة المتجدّدة. كما أطلقت الحكومة مبادرات مثل الإدارة المتكاملــة للمناظر الطبيعيــة، التي تهدف إلى زيادة الأمن المائي وتحســين التنوع البيولوجي، بالإضافة إلى مشــاريع الطاقة الشمسية لتقليل تبخر المياه وإنتاج الطاقة النظيفة.

هامش:

(1) الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ- IPCC

تأثيرُ التغيّرات المُناخية على قطاع المياه في الأردن

د. المؤيد السيد

مقدمة

لم يعُد الحديثُ عن التغيّر المُناخي وآثارِه ترفاً أو فضولاً معرفيّاً، بل باتَ ضرورةً تستلزمُ البحث والعمل ووضع السياسات وسنَّ القوانين. وهو وإن كان ضرورةً بشكل عام فإنَّه في قطاع المياه أشدُّ ضرورةً لا سيّما في بلدنا الأردن حيث نصيب الفرد المائي من المياه المتجدّدة حوالي 61 م3 ســنوياً مقارنةً بخطِّ الفقر المائي العالمي 500م3 سنوياً (وزارة المياه والري- الميزانية المائية، 2023).

يعتمدُ الأردن بشــكل أســاسي في مخزونه المائي عــلى الهطول المطري الذي بلغ معدله طويل المدى (1937-2023) 8,184 مليون م^3، يتبخر منها 93% وما يتبقى يتوزع على المياه الجوفية بكمية تقدر ب 304 مليون م^3 بنسبة تصل إلى 4.5% وإلى الجريان الســطحي بحوالي 175 مليون م^3 بنســبة تصل إلى 2.4% (وزارة المياه والري-الميزانية المائية، 2023).

في ضوء السطور أعلاه، يظهر جليّاً أنَّ أيَّ تذبذبٍ أو تغيّر غير متوقع في أنماط الهطول المطري أو ارتفاعٍ في درجات الحرارة بشــكل غير اعتيادي سيؤدي من جهــة إلى تغيّر في كميــات المياه الجوفيــة المخزنة وتغيّرات في أنمــاط الجريان الســطحي وما يرافقه من مخاطر الفيضانات؛ ومن جهةٍ أخرى سيزيد من كميات المياه المتبخرة وما ستؤول إليه من انخفاض في كميات المياه المتوفرة.

يهــدفُ هذا المقال إلى بيــان تأثير التغيّر المُناخي عــلى قطاع المياه مــن زاويتي التزويــد (Supply) والطلــب (Demand) وهما المحوران الأساســيان في إدارة قطــاع المياه في الأردن، إضافةً إلى تســليط الضوء على أكثر المناطق هشاشــةً تجاه تغيّر المُناخ من حيــث التزويد والطلب المائي مــع تقديم أطر عامة للتأقلم والتخفيف من آثار التغيّر المُناخي على قطاع المياه في الأردن.

آثارُ التغيّر المُناخي على التزويد المائي

يظهر تحليل بيانات الهطول الســنوي في الأردن خلال الفــترة 1937–2023 تذبذبًا كبيرًا في الأمطار، حيــث تراوحت كميتهــا بــين 2,973 مليون م^3 في 1954/55 كأدنى مســتوى، و17,797 مليــون م^3 في 2009/2010 كأعلى مستوى، ليكون مدى التذبذب حوالي 14,824 مليون م^3. يبلغ المتوســط الســنوي التقريبي للهطول حوالي 8,500 مليون م^3. لوحظت خمس ســنوات جافة واضحة تقلُّ فيها الأمطار عن 5,000 مليون م^3 (1954/55، 1955/56، 1989/90، 2000/2001، 2015/2016)، أي ما يمثل حوالي 6% من الســنوات، مع فاصل زمني تقريبي بين سنوات الجفــاف يتراوح بين 10 و15 ســنة. أمَّا الســنوات ذات الهطول العالي فكانــت قليلة، حيث تجاوزت 12,000 مليون م^3 في أربع سنوات فقط (1943/44، 1987/88، 2009/2010، 2017/2016)، أي أقل من 5% من الســنوات. هذه البيانــات توضح الطبيعة المتقلبة لحجم الهطول في الأردن، وتبرز الحاجة إلى إدارة مرنــة وفعّالة للموارد المائية لمواجهة الجفاف والفيضانات المحتملة.

قامت وزارةُ البيئة ومــن ضمن التزامات الأردن الدولية تجاه اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشــأن تغيّر المُنــاخ (UNFCC) بتقديــم تقرير البلاغات الرابع (2022) وهو تقرير شــامل يحتوي على جرد كمي شــامل لانبعاثات الغــازات الدفيئة بالإضافة إلى خطــط التخفيــف وخفــض الانبعاثــات. كما يحتوي التقريــر على احتياجــات التمويل والدعم الفنــي والتقــدم في تحقيق المســاهمات المحددة

وطنياً (NDCs). وقد أشار التقرير بوضوح إلى آثار التغيّرات المُناخية على جميــع القطاعات في الأردن بمــا فيها المياه، حيث تم اســتخدام نموذج ســوات ((SWAT في دراسة تأثير التغيّر المُناخي على المخزون الجوفي والجريان السطحي لأحواض اليرموك وعمان -الزرقاء والأزرق والموجب والموضحة بالشــكل رقم (1) والشكل رقم (2). وقد أظهرت أنَّ التغيّر المُناخي سيســهم في انخفاض الجريان السطحي في أحواض

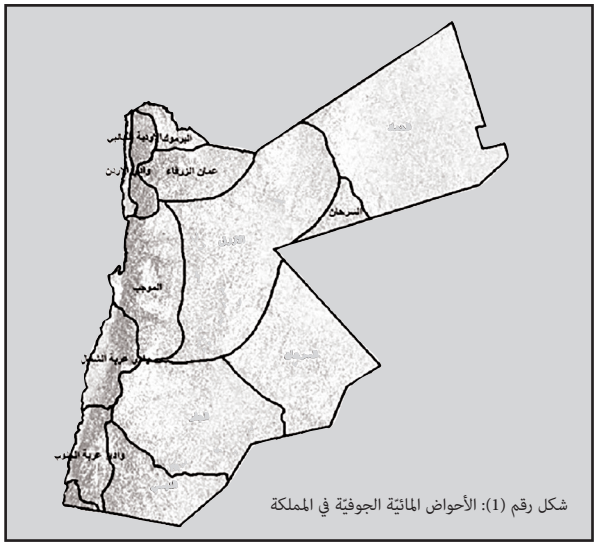

شكل رقم (1): الأحواض المائيّة الجوفيّة في المملكة

شكل رقم (2): الأحواض المائية السطحية في المملكة

المصدر: الموازنة المائية 2023

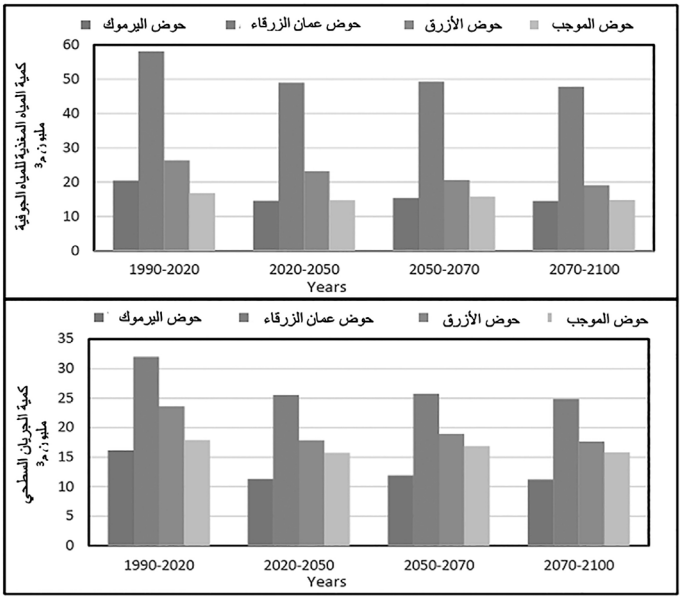

شكل (3): آثار التغيّرات المُناخية المتوقعة على مخزون المياه الجوفية والجريان السطحي في أحواض مختارة في الأردن. المصدر: تقرير البلاغات الرابع للتغيّر المُناخي (2022).

اليرموك والموجب والأزرق وعمان-الزرقاء بمعدلات 13% و10% و23% و21% بالترتيب، بينما سيسهم في انخفاض تغذية المياه الجوفية بنسب 16% و10% و20% و16% بالترتيب نفسه (شكل 3).

آثارُ التغيّر المُناخي على الطلب على المياه

يتفاوت الطلب على المياه في الأردن بحسب القطاعات المختلفة حيث تبلغ كمية المياه المستهلكة للزراعة بحسب الميزانية المائية (2023) ما مقداره 623 مليون م^3 بنسبة 51.8% من مجموع المصادر المائية المتاحة، بينما يبلغ الطلب على المياه من القطاع المنزلي والسياحي 526 مليون م^3 بنسبة 43.8% ويشكّل الطلب على المياه من القطاع الصناعي ما معدله 3.4% من مصادر المياه المختلفة. وبحسب تقرير البلاغات الرابع للتغيّر المُناخي، فقد تم بناء عدة سيناريوهات للتنبؤ بالطلب على المياه في ضوء التغيّرات المُناخية المتوقعة حتى عام 2100 كما يظهر في الجدول أدناه(1).

وقد تم بناء هذه السيناريوهات بناءً على فرضيات متعلقة بالزيادة في عدد السكان والتوسع في الري والتغيير في أساليب الري وإدارة نسبة الفاقد وغيرها. ومن الجدير بالذكر، أنَّ الزيادات غير الطبيعيّة في أعداد السكان يعتبر من أكثر التحديات

جدول (1): الطلب على المياه الحالي والطلب المتوقع في ضوء التغيّرات المُناخية والنمو السكاني

الاستخدام	الطلب الحالي (م 3م)	2050 (م 3م)	2070 (م 3م)	2100 (م 3م)
المنزلي والبلدي	470	924	1261	1811
الزراعة المروية	658	1072	1097	1201
الصناعي	32	83	104	125
المراعي	7	15	21	30
الطلب الإجمالي	1167	2094	2483	3167
التزويد المتاح	1051	1490	1558	1625
العجز	- 116	-604	-925	1542

المصدر: تقرير البلاغات الرابع للتغيّر المُناخي (2022)

التـي تواجه قطـاع المياه من حيـث تأمين الطلب التـي في معظم الأحيان لا تخضـع لنماذج رياضية معينة. ففي الأردن مثلاً ارتفع الطلب على المياه من 20 - 40 % في محافظـات الشـمال نتيجة اللجوء السوري (مراد وآخرون، 2019).

وكما يظهـر بوضوح من خلال جـدول رقم (1) أعلاه، فإنَّ الطلب على المياه سيتضاعف عام 2050 والفجوة بين الطلب والتزويد ستتسع. وقد أظهرت العديـد من الأنمـاط المُناخيـة المختلفـة وتحليل البيانات الكبيرة أنَّ نسـبة كبيرة من الفجوة المائية بين الطلب والتزويد تُعزى إلى التغيّر المُناخي كنتيجة إلى ضعف التغذية الجوفية والتخزين السطحي.

التأقلمُ مع التغيّر المُناخي في قطاع المياه

يستند التأقلم مع التغيّر المُناخي في قطاع المياه إلى تنفيذ تدخلات ترفـع من القدرة على توفير مصادر

مائية مستدامة وزيادة كفاءة التزويد والاستهلاك وتقليل الطلب على المياه وبالتالي تقليل الفجوة المائية. وقد أورد تقرير البلاغات الرابع مجموعة من التدخلات المقترحة لزيادة قدرة قطاع المياه على التأقلم مع التغيّر المُناخي وهي كالآتي:

1. دمج التكيّف مع المُناخ وتعزيز المرونة في الإصلاحات المؤسسية والأطر التشريعية الناظمة لقطاع المياه.

2. تحسين مساهمة مصادر المياه غير التقليدية في الموازنة المائية الوطنية.

3. تحسين إدارة الطلب على المياه وتقليص الفجوة بين الطلب والعرض المائي.

4. تحسين كفاءة استخدام المياه لتحقيق التنمية المستدامة (زيادة العرض وتقليل الطلب).

5. تحسين القدرة التكيفية لمرافق المياه من خلال إعداد دراسات حول المخاطر المُناخية على مرافق المياه وتحديد تدخلات لزيادة المنعة.

6. دعم الإدارة على مستوى الأحواض ومستوى مستجمعات المياه بما في ذلك المياه العابرة للحدود.

7. تحسين أنظمة الإنذار المبكر للأمطار وتقليل مخاطر الفيضانات والجفاف.

8. وضع حوافز الحفاظ على المياه – تحفيز أنظمة تسعير المياه التي تكافئ على الترشيد، مع مراعاة الاختلافات بين المناطق البيئية من حيث ظروف النمو والمحاصيل والاحتياجات الزراعية الأخرى.

على مستوى الأردن، فهناك العديد من المشاريع والمبادرات والبرامج التي تهدف إلى رفع المنعة المُناخية لقطاع المياه. فعلى سبيل المثال، يُعدُّ (مشروع السمرة) لمعالجة وإعادة استخدام المياه من المشاريع الرائدة التي تدمج المياه والغذاء والطاقة في سياق واحد. حيث تعالج (محطة السمرة) تقريباً 120 مليون م3 من المياه العادمة يُعاد استخدامها لاحقاً بعد خلطها في سد الملك طلال، وتنتج في الوقت ذاته غازاً حيويّاً من الحمأة تغطي معظم احتياجات المحطة. كما يعتمد الأردن بشكل كبير على أسلوب الري بالتنقيط الذي يوفر كميات كبيرة من المياه- تصل إلى -30% مقارنةً بالأساليب السطحية. كما يوجد العديد من المشاريع المتعلقة بحصاد مياه الأمطار على مستوى المنزل أو المجتمعات (الحفائر) التي جميعها تُعدُّ من الأدوات المهمة في التأقلم مع التغيّر المُناخي.

الخاتمة

يواجه قطاع المياه في الأردن تحدياتٍ متزايدةً نتيجة تغيّر المُناخ، أبرزها تراجع معدلات الهطول المطري، وارتفاع درجات الحرارة، وزيادة تكرار موجات الجفاف والفيضانات المفاجئة. هذه التغيّرات تسهم في اتساع الفجوة بين العرض والطلب على المياه، واستنزاف المخزون الجوفي، وارتفاع المخاطر على الأمن المائي والغذائي. وقد أظهرت العديد من النماذج أنَّ قطاع المياه في الأردن من أكثر القطاعات المتأثرة بالتغيّرات المُناخية حيث ستزداد الفجوة بين الطلب والتزويد بشكل كبير بحلول

عام 2050 مما يستدعي العمل على تبني إجراءات تأقلم عديدة أهمها تحسين كفاءة إدارة الطلب على المياه والحد من الفاقد، التوسع في استخدام المصادر غير التقليدية مثل تحلية المياه وإعادة الاستخدام، تعزيز الإدارة المتكاملة للموارد المائية على مستوى الأحواض، تطوير أنظمة الإنذار المبكر للفيضانات والجفاف، إضافةً إلى إدماج اعتبارات التغيّر المُناخي في السياسات والخطط الوطنية وبناء القدرات المؤسسية ذات الصلة.

خلال السنوات العشر الماضية، عملت الحكومات الأردنية، من خلال وزارة البيئة ووزارة المياه والري، على تنفيذ العديد من الخطوات لمواجهة آثار التغيّر المُناخي. فقد أُعدّت الخطة الاستراتيجية الوطنية للمياه (2023-2040) التي أكّدت على أهمية الاستدامة المالية للقطاع، والاعتماد على البيانات في اتخاذ القرارات، وتشجيع الابتكار والتكنولوجيا، وربط قضايا المياه بالطاقة، إضافةً إلى تعزيز الوعي وتغيير السلوكيات المتعلقة باستخدام المياه.

كما تم اعتماد الخطة الوطنية للتكيّف مع التغيّر المُناخي (2021)، التي وضعت قطاع المياه كأحد أهم الأولويات. إلى جانب ذلك، نُفذت مشاريع ومبادرات عديدة، منها برامج للحدِّ من الفيضانات والإنذار المبكر خاصةً في مناطق الجنوب، ومشاريع لتقليل الفاقد المائي الذي وصل إلى حوالي 50%. كما تم إطلاق حملات للتوعية وترشيد الاستهلاك، والتوسع في استخدام المياه المعالجة من الصرف الصحي لأغراض الري.

ومؤخراً، تناولت رؤية التحديث الاقتصادي (2022-2033) بشكل مباشر قضايا المياه والتغيّر المُناخي، باعتبارهما من الركائز الأساسية للتنمية الاقتصادية والأمن المجتمعي. وأكدت الرؤية على أهمية وضع خطط لزيادة مصادر المياه، وتحسين كفاءة استخدامها، ودمج اعتبارات التغيّر المُناخي في التخطيط القطاعي. كما شدّدت على ضرورة ربط قطاع المياه بالقطاعات الأخرى مثل الطاقة والزراعة والاستثمار لتعزيز التنمية المستدامة.

المراجع

1. الميزانية المائية 2023، وزارة المياه والري، متوفرة على موقع الوزارة www.mwi.gov.jo

2. تقرير البلاغات الرابع للتغيّر المُناخي، وزارة البيئة، متوفر على موقع الوزارة www.moenv.gov.jo

3. Mourad, K. A., Jamrah, A., & Alshraideh, H. (2019). Impacts of the Syrian refugee crisis on water resources in Jordan. Water International, 44(3), 282–297. https://doi.org/10.1080/02508060.2019.1592011

البلدياتُ الأردنيّةُ في مواجهة التغيّر المُناخي: نحو تنميّة حضريّة أكثر استدامة وجودة حياة أعلى

م. مجد شطناوي*

التحدياتُ المستجدّةُ

في عام 2024، بلغ متوسط ارتفاع درجة حرارة الأرض 1.52 درجة مئوية فوق مستويات ما قبل العصر الصناعـي، وهو رقمٌ قياسيٌّ عالميٌّ ينذر بتسـارع آثار التغيّر المُناخـي .(Copernicus, 2025) في الأردن، أصبحـت هذه التغيّرات أكـثر وضوحًا من خلال ازديـاد موجات الحر، وتفاوت كميـات الهطول المطري، وظهور الفيضانات المفاجئة، مما أثّر بشكل مباشر على الحياة اليومية، لا سيّما في المناطق الحضرية.

* رئيس قسم كودات البناء/ مركز بحوث البناء/ الجمعيّة العلميّة الملكيّة

أثرُ التغيّر المُناخي على جودة الحياة

أثّر التغـيّر المُناخي عـلى عدة مجـالات في الأردن، أبرزها الصحة العامة، حيث سُجّلت زيادات في الأمراض المرتبطة بارتفاع الحرارة وتلـوث الهواء، مثل الجفاف، أمـراض الجهاز التنفسي، وضربات الشـمس. كما ازداد الضغـط على المـوارد الطبيعية، خاصةً المياه، بسـبب انخفاض التغذية المائية وتراجع مصادر المياه المتجدّدة، مما أدى إلى انخفـاض الإنتاجية الزراعيـة. كما تأثرت البنية التحتية سلبًا نتيجة الفيضانات المتكررة وموجات الحر، مما زاد من كلف الصيانة والخسـائر الاقتصادية، مع تضرر الفئات الهشّـة بشـكل غـير متكافئ نتيجة محدودية قدراتها التكيفيّة (World Bank, 2024).

رؤيةُ التحديث الاقتصاديّ وجودة الحياة

تسـعى رؤية التحديـث الاقتصـادي الأردنيّة، من خلال ركيـزة جودة الحيـاة، إلى رفع نسـبة الرضا بين الأردنيين عن نوعية الحياة إلى 80%، وتحسـين ترتيب الأردن ليصبـح ضمن أفضل 20% عالميًّا في مؤشر الأداء البيئـي. وتحقيقًـا لذلك، تركّز الرؤية عـلى التحول إلى اقتصاد منخفض الانبعاثات، وتحقيق الاستدامة البيئية، وتوفير بنية تحتية حديثة تدعم جودة الحياة.

وبالتالي يظهر جليًّا أنَّ الاستدامة تقع في صميم هذه الرؤية، إذ يهدف الأردن إلى التماشي مع التوجه العالمي نحو مسـتقبل أخضر والتعامل مع تغـيّر المُناخ وتوفير الطاقة النظيفة واستغلال الموارد وتطوير البيئة التحتية لتحقيق الهدف الأسـمى وهو تحسـين جـودة الحياة للسكان.

أثرُ التغيّر المُناخي على التنمية

وفـق تقارير البنـك الدولي، فإنَّ إغفـال تغيّر المُناخ يشـكّل تهديـدًا مبـاشرًا لأهـداف النمـو الاقتصادي، خاصةً في القطاعات المرتبطـة بالمياه والزراعة والطاقة (Carnegie & World Bank, 2024). لـذا، فإنَّ بناء قدرات تكيفية مرنة يعد شرطًـا لتحقيق نمو اقتصادي مستدام.

تعزيزُ أداء البلديات ضمن مؤشرات الاقتصاد المُناخي

لمواجهة التحديات السـابقة، يجب عـلى البلديات اعتماد مـؤشرات أداء عملية لقياس التقدم في التكيف المُناخي بحيـث تقوم برفد الرؤيـة الوطنية من خلال مؤشرات أداء شاملة. على سبيل المثال، تحسين شبكات تصريـف الأمطار لتشـمل 90% من الأحيـاء الحضرية لتسـهم في تجنب الخسـائر العمرانية وزيادة جاذبية الاسـتثمار المحلية. كما يُعدُّ تخفيض استهلاك الكهرباء بنسبة 20% في المباني العامة استراتيجية اقتصادية بنّاءة ترفع من الكفاءة التشـغيلية. واتباع نهج زراعة شجرة واحـدة لكل خمسـة مواطنين يعزّز فقـدان الكربون ويزيـد المسـاحات الخـضراء، بما يدعم مـؤشر جودة الحياة.

تضطلـع البلديات بدور محوري في تحقيق ذلك من خـلال اعتماد مؤشرات أداء واضحـة لمتابعة التقدم في التكيف المُناخي والقيام بتنفيذ مشاريع واقعية وقابلة للتطبيق حيث تقوم هذه المؤشرات أيضًا بدعم صاحب القـرار في البلديات على أخذ قرارت مبنية على أسـس واقعية تعالج مشـاكل مجتمعة وتبـيّن نقاط الضعف

وتحدّد الأولويات، من ضمن المشاريع التي تحقّق هذه المؤشرات:

• التخطيــط الحضري لإنشــاء مدن صديقــة للبيئة بحيث تضمُّ مســارات مشــاة آمنة ومناطــق خضراء، وتشجع على استخدام وسائل النقل العام.

• إدارة الموارد كالمياه والطاقة، بتطبيق نظم ترشــيد وتكنولوجيــا حديثة في الري، وتحلية المياه، وشــبكات ذكية للكهرباء.

• مبــادرات محلية لمكافحة تغير المُناخ عبر تشــجير الأحياء، إعــادة تدوير النفايــات، والحفاظ على جودة الهواء، مسترشــدة بمعايير الاستدامة الدولية ودعم بيئة نظيفة وصحية للمواطنين.

برغــم التحديات التي تواجهها البلديات التي تتعلق على ســبيل المثال لا الحصر بقلة المــوارد المالية ونقص الكوادر الفنية، وغياب أولويات المشــاريع، بدأت بعض البلديات بتجارب ملهمة تتمثل بـ:

• إعداد خرائط تقييم الهشاشة الناتجة عن التغييرات المُناخية.

• إدخال مفاهيــم تُعنى بمواجهة التغييرات المُناخية وكيفية التكيف والتخفيف منها، مثل اعتماد نظم البناء الأخضر والمباني صفرية الطاقة وإدخال مفاهيم الزراعة الحضرية وغيرها من البرامج.

• عقد ورش توعية عن التغيّر المُناخي في المجتمعات المحلية لزيادة الوعــي لدى المواطنين بأهمية الموضوع وسبل مواجهته.

• رفــع كفاءة البنية التحتية للمــدن وزيادة منعتها لمواجهة المخاطر.

كوداتُ البناء كأداةٍ للتكيف المُناخي

من بين الأدوات المهمّــة المتاحة للبلديات في الأردن هي كودات البناء الوطنية التي لا تقتصر على الجوانب الإنشائية فقط، بل تمتد إلى عناصر تسهم بشكل مباشر في تعزيز مرونة الأبنية والمناطق السكنية. تمثّل كودات البنــاء الوطنية الأردنية أداةً مهمّــةً لتعزيز قدرة المدن على التكيف مع التغيّر المُناخي. فعلى الرغم أنَّ كودات البناء الوطني هي متطلبات إلزامية يجب تطبيقها على المستوى الوطني، إلا أنَّ بعض هذه الكودات غير مفعّل تطبيقها.

فمثلًا، تســهم كودة المباني الموفّرة للطاقة في تحسين كفاءة الأبنية من خلال إلزامها باستخدام العزل الحراري واستخدام مصادر الطاقة المتجدّدة، ما يؤدي إلى تقليل الاستهلاك الكهربائي وخفض الانبعاثات. أمَّا كودة الطاقة الشمســية، فتدعم إدخال أنظمة تسخين المياه وتوليد الكهرباء عبر الطاقة الشمسية، مما يخفّف العبء على الشبكة الوطنية. وتساعد كودة الهيدرولوجي البلديات على تصميم شبكات تصريف فعّالة تتماشى مع تغيّر نمط الأمطار وتعالج مشكلة الفيضانات التي أصبحت تؤرق المواطنين والمســؤولين على حدٍّ سواء، فيما تعمل كودة المستشفيات الخضراء على تحسين أداء المرافق الصحية من حيث الكفاءة البيئية والتقليل من النفايات وتقليل الكلف التشــغيلية وتقليل الانبعاثــات الكربونية. كما يوفــر دليل المباني الخضراء الأردني (الاختياري التطبيق) أدوات عملية تســاعد البلديات والمصمّمين على تقييم مشــاريعهم وفق معايير صديقة للبيئــة وبحيث تقدّم البلديات والمؤسسات الوطنية حوافز تشجيعية لاعتماد المنشآت لهذا الدليل.

دورُ الجمعيّة العلميّة الملكيّة - دراسة حالة

تلعب الجمعية العلمية الملكية دوراً محورياً في دعم البلديات بمواجهة آثار التغيّر المُناخي. فهي توفّر خبرات فنية في المجلات المؤثرة والمتأثرة في التغيير المُناخي كافة، ورفع جاهزية البلديات والمجتمعات. فتقوم الجمعية العلمية الملكية ببناء القدرات، وتقديم الدراسات والأبحاث، ودعم عمليات جمع البيانات والمراقبة البيئيّة بأساليب علمية مبنية على الواقع.

كما تقوم الجمعية العلمية الملكية كذراعٍ فنيٍّ للوزارات والمؤسسات الحكومية بتقديم الدعم في المجالات كافة مثل: مختبرات الفحص، المطابقة وضبط الجودة، الدراسات الفنية، إعداد الكودات والمساهمة في وضع السياسات والاستراتيجيات الوطنية، وغير ذلك كونها بيت خبرة وطنية موثوقة.

وقد عملت الجمعية منذ تأسيسها عام 1970 في تقييم مدى استعداد المدن لمواجهة مخاطر المُناخ، ما يجعلها شريكًا موثوقًا في التخطيط الحضري المستدام. حيث عملت مؤخرًا في ذات الإطار وبالشراكة مع شركة LDK للاستشارات وتحت دعم من برنامج الموائل UN-HABITAT مع بلدتي إربد الكبرى والمفرق الكبرى لتعزيز جاهزيتهما في مواجهة آثار التغيّر المُناخي ورفع مستوى المرونة الحضرية حيث ركّز المشروع على إدماج مفاهيم التكيّف المُناخي ضمن الخطط المحلية للتنمية الحضرية، من خلال بناء قدرات الكوادر الفنية في البلديات وتزويدها بأدوات تقييم واقعية قائمة على البيانات، وتم العمل على تقييم وتطوير المرصد التنموي للبلديات لدعم صاحب القرار باتخاذ إجراءات وقرارات تعتمد على الحقائق، وتصب في مصلحة البلديات.

وتم إعداد خرائط توضح مناطق الهشاشة المرتبطة بالفيضانات وارتفاع درجات الحرارة وغير ذلك من مخاطر تغيّر المُناخ، مما ساعد البلديتين في تحديد أولوياتهما لتنفيذ مشاريع خضراء مثل: إعادة تأهيل الحدائق العامة وتحسين تصريف مياه الأمطار في الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية، ودراسة البنية التحتية في المناطق التي تشهد نموًا عمرانيًا سريعًا، وتعزيز كفاءة المرافق البلدية من خلال حلول مستدامة في الطاقة والمياه.

كما شــمل المشروع عقد ورش عمــل تدريبية حول مفهوم المرونة الحضرية والتخطيط المستجيب للمُناخ، وتطبيق أدوات التحليل المكاني لدعم اتخاذ القرار المبني على الأدلة. وأسهم هذا التعاون في تحسين التنسيق بين الإدارات المحلية والمجتمــع، وأرسى نموذجًا عمليًا يمكن تعميمه على بلديات أخــرى في الأردن، مما يعزّز قدرة المــدن على مواجهــة تحديات المُنــاخ وتحقيق التنمية الحضرية المستدامة.

توصياتٌ عمليةٌ للبلديات

1. إدماج مؤشرات الأداء المُناخي في الخطط البلدية.
2. تحديث خرائط المخاطر بشــكل دوري باستخدام بيانات حديثة.
3. التعــاون مــع المجتمــع المحلي لزيادة المشــاركة والوعي.
4. تطبيــق كودات البناء الوطنية لتوجيه المشــاريع الجديدة.
5. التعــاون وتبادل الخبرات مع المؤسســات العامة والخاصــة لضمان الدعم الفني والاســتمرارية وتحقيق التكاملية.

الخاتمة

يمثّل التغيّر المُناخي تحديًا مركّبًا ومتســارعًا ينعكس على مختلف مناحي الحياة في الأردن، لا سيّما في المدن والمجتمعــات المحلية التي تتصــدر البلديات فيها خط المواجهــة. وفي ظل الضغط المتزايد على الموارد، وتنامي المخاطر البيئية، فإنَّ استجابة البلديات لم تعُد خيارًا، بل ضرورة ملحّة تتطلب تحولًا اســتراتيجيًا نحو التخطيط المُناخــي المتكامل، واســتخدام أدوات التكيف الذكية، وتفعيــل الكــودات الوطنية كمحرك للتغيــير العمراني المستدام.

إنَّ بناء مدن أكثر مرونة وعدالة واســتدامة يبدأ من سياسات محلية واعية، ومؤشرات أداء واضحة، وتعاون فعّال بين الجهات الرسمية والمجتمع المدني والمؤسسات الفنية. كــما أنَّ تعميم التجارب الرائــدة، وتعزيز دور المؤسســات العلمية، يمثلان حجر الأســاس لترسيخ نهج مُناخــي مســتدام يســهم في حماية الأجيــال القادمة، وتحقيق رؤية وطنية ترتقي بجودة الحياة في الأردن إلى مستويات عالمية.

المراجع:

- Copernicus Climate Change Service. (2025). Indicators of Global Climate Change 2024. https://climate.copernicus.eu
- Local Government Management Agency Ireland. (2023). Climate Action KPIs. https://www.lgma.ie
- وزارة الأشغال العامة والإسكان. (2024). كودات البناء الوطني الأردني.
- Jordan Standards and Metrology Organization. (n.d.). ISO 37120, 37101, 37122, 37123 Standards. https://www.jsmo.gov.jo
- UN-Habitat Jordan. (2023). Urban Resilience Reports – Jordan. https://unhabitat.org/jordan
- World Health Organization, OECD, World Bank. (2023). Climate Policy and Urban Wellbeing Guidelines. https://www.worldbank.org
- رؤية التحديث الاقتصادي الأردن. (Economic Modernization Vision (EMV.
- Carnegie Endowment for International Peace & World Bank. (2024). Governance and Climate Policy Integration in the Middle East. https://carnegieendowment.org

التغيّرُ المُناخي والطاقة

م. سوسن بوارش*

الطاقةُ والنقلُ والتحوّلُ نحو مصادر طاقة نظيفة

شــهد العالمُ في العقود الأخيرة اهتمامًا متزايدًا بقضايا الطاقة المســتدامة وتغــير المُناخ، حيث أنَّ قطاع الطاقة من أكبر المساهمين في ظاهرة الاحتباس الحراري، مما استدعى دول العالم، ومنها الأردن، إلى تطوير حلول عملية تهدف إلى تقليل الاعتماد على الوقود الأحفوري وتعزيز كفاءة استهلاك الطاقة.

يمثــل التحــوّلُ نحو مصادر طاقة نظيفة وتطوير قطاع النقل المســتدام خطوةً أساســيّةً لتحقيق الأمن الطاقي، وخفض الانبعاثات، وتعزيز التنمية الاقتصادية. وبالرغم من التحديات، فإنَّ الأردن يملك إمكانات كبيرة للاستفادة من الشمس والرياح، ويخطو خطوات مهمة نحو مستقبل أكثر استدامة.

* رئيسة قسم كفاءة الطاقة والطاقة الشمسية/ الجمعيّة العلميّة الملكيّة

قطاعُ الطاقة وإسهاماته في الانبعاثات

يُعـدُّ قطـاع الطاقة المصـدر الرئيـس لانبعاثات الغازات الدفيئة، وخاصةً ثاني أكسيد الكربون الناتج عن حرق الفحم والنفط والغاز. وفقًا للوكالة الدولية للطاقة (IEA)، يسـهم هذا القطاع بنسـبة تقارب 75% من إجـمالي انبعاثات الغازات المسـبّبة لتغيّر المُنـاخ عالميًّـا. ويعود ذلك إلى عدة أسـباب أهمها: الاعتماد الكبير على محطات الكهرباء التقليدية التي تحرق الوقود الأحفوري، والزيادة المستمرة في الطلب على الطاقة بسبب النمو السكاني والتوسع العمراني، وضعف كفاءة الاستهلاك في بعض القطاعات.

أمَّـا في الأردن، فإنَّ الاعتماد عـلى مصادر الطاقة المسـتوردة يزيد من التحديات البيئيـة والمالية، إذ تستورد المملكة غالبية احتياجاتها من الطاقة الأولية، مما يجعل تحقيق أمـن الطاقة والتحول نحو بدائل نظيفة أولوية وطنية.

فـرصُ الطاقـة المتجـدّدة: الشـمس، الريـاح، والهيدروجين الأخضر

يشهد العالم تطوّرًا كبيرًا في حلول الطاقة المتجددة، وقـد أصبحـت أكثر تنافسـية مـن حيـث التكلفة والجـدوى. يمكن تلخيص أبرز الفرص في الأردن فيما يلي:

• الطاقة الشمسيّة:

الأردن يمتلك من أعلى معدلات الإشعاع الشمسي في العـالم، إذ يصل المعدل السـنوي إلى نحو 7-5 كيلوواط ساعة لكل متر مربع يوميًّا.

يشـكل ذلك فرصة لتوليـد الكهرباء عـبر محطات الطاقة الشمسية وخفض الاعتماد على الوقود المستورد.

من أبرز المشاريع في الأردن:

• مـشروع بينونة للطاقة الشمسـية بقدرة 200 ميغاواط (مـن تنفيذ شركة مصـدر – قرب عمّان)، محطة القويرة للطاقة الشمسية بقدرة 103 ميغاواط، المجمع الشمسي معان بقدرة 160 ميغاواط، مشروعا المفرق 1 و2 للطاقة الشمسـية بقدرة إجمالية 133 ميغاواط(تنفيـذ شركـة FRV الإسـبانية)، محطـة الطفيلة لطاقة الريـاح بقدرة 117 ميغاواط، محطة معان لطاقـة الرياح بقـدرة 80 ميغـاواط، محطة الفجيج لطاقـة الرياح بقـدرة 89 ميغاواط، محطة الشوبك لطاقة الرياح بقدرة 45 ميغاواط.

• طاقة الرياح

-مناطق مثـل الطفيلة ومعان تتميز بسرعة رياح مناسبة لتوليد الكهرباء بكفاءة عالية.

-الأردن أطلـق عدة مشـاريع ريادية مثل محطة ريـاح الطفيلة بقدرة 117 ميغـاواط، وتُعدُّ مناطق الجنـوب والوسـط من المناطـق الواعدة لتوسـيع مشاريع طاقة الرياح.

• الهيدروجين الأخضر

- يُنتَـج عن طريـق التحليـل الكهربـائي للمياه باسـتخدام الكهرباء المتجددة، ويُعَدُّ وقـودًا نظيفًا يمكن استخدامه في النقل والصناعة.

- رغـم أنَّ هذه التقنية ما زالت في مراحلها الأولى بالأردن، إلا أنَّها تشـكّل فرصةً مستقبليةً لتعزيز أمن الطاقة وخفض الانبعاثات.

• النقل والتحول نحو أنماط مستدامة

يُعدُّ قطاع النقل أحد المصـادر الكبرى لانبعاثات الغازات الدفيئة، بسـبب الاعتماد شـبه الكامل على

المشتقات النفطية. في الأردن، تشير التقديرات إلى أنَّ قطاع النقل يسهم بحوالي 42% من إجمالي استهلاك الطاقة النهائية، ونحو ربع الانبعاثات الوطنية. ومن التوجهات الحديثة لتقليل هذه الآثار:

• تشجيع النقل العام وتحديث أسطول الحافلات ليكون أكثر كفاءةً وأقل انبعاثًا.

• دعم انتشار السيارات الكهربائية عبر الحوافز الجمركية والضريبية.

• التوسّع في بنية الشحن الكهربائي وتسهيل وصول الكهرباء المتجددة للنقل.

الربطُ بين السياسات المُناخية والطاقة والنقل

لتحقيق أهداف الأردن في الحدِّ من الانبعاثات وتعزيز التنمية المستدامة، يجب التنسيق بين سياسات الطاقة والنقل والمُناخ. ويشمل ذلك تضمين التزامات خفض الانبعاثات ضمن "المساهمات المحدّدة وطنيًّا"، التي تهدف إلى خفض الانبعاثات بنسبة 31% حتى عام 2030، وتطوير استراتيجيات وخطط وطنية للطاقة المتجددة وتحسين كفاءة الاستهلاك، بالإضافة إلى دمج النقل المستدام في الخطط المُناخية عبر تحديث أسطول النقل العام وتوسيع البنى التحتية الداعمة للمركبات النظيفة، وتشجيع الشراكات مع القطاع الخاص والمؤسسات البحثية.

مفهومُ الانتقال العادل للطاقة

هو عملية تحويل نظم إنتاج واستهلاك الطاقة من الاعتماد على الوقود الأحفوري إلى مصادر الطاقة النظيفة والمتجددة، مع ضمان عدم تهميش حقوق العمال والمجتمعات المتأثرة بهذا التحول. يهدف هذا المفهوم إلى تحقيق التوازن بين حماية البيئة ومكافحة التغيّر المُناخي من جهة، وبين دعم العدالة الاجتماعية والاقتصادية من جهة أخرى، بحيث يتم توفير فرص عمل بديلة وتدريب مهني للعمال المتضررين، وتعزيز التنمية المحلية في المناطق التي كانت تعتمد على الصناعات عالية الانبعاثات. ويُعدُّ الانتقال العادل عنصراً محوريّاً لتحقيق أهداف التنمية المستدامة وبناء مجتمعات أكثر مرونةً

وإنصافاً في مواجهة التحديات المُناخية.

وضعُ الطاقة والنقل في الأردن

حقّــق الأردن تقدمًا كبيرًا في زيــادة حصة الطاقة المتجددة، إذ بلغت أكثر من 27% من القدرة المركبة لتوليد الكهرباء حتى عام 2024. كما أطلقت الحكومة حزمــة مبــادرات لتشــجيع الســيارات الكهربائية والهجينــة لكن ما يزال تحــدي النقل العام وضعف البنيــة التحتية مــن العقبات التي تتطلــب جهودًا إضافية لتقليل الانبعاثات وتحســين جــودة الهواء. ويواصل الأردن التعاون مع الشركاء الدوليين لتطوير مشاريع الهيدروجين الأخضر والتحوّل التدريجي نحو منظومة طاقة منخفضة الكربون.

دورُ الجمعيّة العلميّة الملكيّة

تُعدُّ الجمعيّة العلميّة الملكيّة من أبرز المؤسسات البحثية والتطبيقية في الأردن والمنطقة، ولها إسهاماتٌ مهمّةٌ جــدًا في دعم التحول نحو الطاقة المســتدامة والنقــل النظيــف. ويوجــد المركز الوطنــي لبحوث الطاقة داخل الجمعية ويمكن تلخيص دور الجمعية فيما يلي:

•الدراســات والأبحاث: إعداد دراســات الجدوى والبحوث التطبيقية حول إمكانات الطاقة الشمسية والريــاح والهيدروجــين، وتحليل البيانــات المتعلقة بكفاءة الطاقة.

• المختــبرات وخدمات الفحــص: تقديم خدمات فنية متقدمة لمعايرة وقياس كفاءة الأجهزة والمعدات المستخدمة في الطاقة المتجدّدة.

• بناء القدرات والتدريــب: تنفيذ برامج تدريبية متخصّصــة في الطاقــة المســتدامة وإدارة الكربون وكفاءة الطاقة للقطاعين العام والخاص.

• مشــاريع التعاون الدولي: المشــاركة في مشاريع ممولــة دوليًّا، مثــل برامج الاتحــاد الأوروبي والبنك الــدولي، التي تهــدف إلى دعم انتقــال الأردن نحو الاقتصاد الأخضر.

• إعداد السياسات والمشورة الفنية: تقديم الدعم الفني للوزارات والجهات الحكومية في إعداد الخطط الوطنية للطاقة المتجدّدة والنقل المستدام.

بفضل هذه الجهــود، اكتســبت الجمعية مكانة مرجعيــة في مجــال الطاقــة النظيفــة وأصبحــت شريكًا رئيسًــا في تحقيق أهداف التنمية المســتدامة والمساهمات الوطنية المُناخية.

قائمة المراجع:

1 - التقرير السنوي للطاقة - وزارة الطاقة والثروة المعدنية الأردنية. (2024)

2 - الوكالة الدولية للطاقة المتجددة (IRENA).

3 - تقارير الطاقة والاستدامة - الجمعية العلمية الملكية.(2024)

4 - برنامج الأمم المتحدة الإنمائي – الأردن. (2023) دعم التحول نحو الطاقة النظيفة.

5 - خطة المساهمات المحدّدة وطنيًا للأردن(2021)

6 - تقرير انبعاثات الطاقة - الوكالة الدولية للطاقة.(2023)

7 - تقرير قطاع النقل - وزارة النقل الأردنية.(2023)

8 - بيانات ميزان الطاقة - وزارة الطاقة والثروة المعدنية الأردنية.(2024)

الزراعة من دون تربة (مخيم الأزرق، الجمعية العلمية الملكية 2022)

الزراعةُ والأمنُ الغذائيُّ والتغيّرُ المُناخي

م. حسام الدين الحاج علي*

1. المقدمة

تسـهم الزراعة بنسـبة 5.6% من الناتج المحلي الإجـمالي في الأردن (2019)[1]، وهذه النسـبة وإن كانت منخفضـة مقارنة بمصـادر الدخل القومي الأخرى كالخدمـات 60 % والصناعة 25 %، إلا أنَّ الزراعة تشـكّل مصدراً رئيسـاً للدخل لطبقة كبيرة من المواطنين وخاصةً من ذوي الدخل المحدود في المناطق الريفية والأغوار والبادية، حيث يوفّر هذا القطاع فرص عمل لحوالي 91 ألف أردني، وقد تمكّن الأردن من تحقيق نسـب عالية من الاكتفاء الغذائي في كلٍّ من الخضراوات (133 %) والفواكه (89 %) والبيض (100 %)والحليب (100 %) ولحوم الدواجن (80 %)[2]، فيما يعتمد مزارعو الكفاف وصغار المزارعين على استهلاك منتجاتهم لسدِّ حاجتهم من الغذاء.

* رئيس قسم الأمن الغذائي والتنوّع الحيوي/الجمعيّة العلميّة الملكيّة

مــن جهة أخرى، تتناقص الهطــولات المطرية عبر العقــود الأخــيرة في عموم المملكة بشــكل ملحوظ، ففي دراسة منشــورة[3] حول الهطول المطري خلال الفترة 1970-2013، أظهرت الدراســة أنَّ 38 محطة رصــد من أصــل 58 تعرّضت لانخفــاض في الهطول بمعدل يبلغ 1.2 ملم/ســنة، بينما كان المتوسط العام للتراجع عبر جميع المحطات 0.41 ملم/ســنة، وهذا بالــضرورة يعني تناقــص الواردات المائية الســنوية للسدود، وبالتالي نقص كميات المياه المخصّصة للري إذ تعطــي الحكومة أولوية المياه للشرب، وأدى ذلك إلى تناقص كميات المياه المخصّصة للري بمعدل حوالي 1 % ســنويّاً من موازنة المياه في المملكة، وهذا يُعدُّ مؤشراً مهمّاً يعكس تأثر الزراعة سلباً بالتغيّر المُناخي.

إنَّ تناقــص كميات المياه المخصّصة للري ســنويّاً يدقُّ ناقوس الخطر بضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة ووضع السياسات الخاصة وتعديلها باستدامة الزراعة التــي هي صــمام الأمان للأمن الغذائي بشــكل عام، وعــلى الرغم من أنَّ وزارة الميــاه والري تقوم بتوفير كميات متزايدة ســنويّاً من المياه المعالجة وتحويلها للزراعــة إلا أنَّها غــير كافية وقد تؤثــر على الأنماط الزراعيــة وأنــواع المحاصيل التي تــروى بهذه المياه ومستوى إنتاجيتها.

كل هــذه المــؤشرات تدفــع إلى ضرورة تسريــع التحول إلى نظم زراعية ذكية أكثر تكيّفاً مع التغيّرات المُناخية ومصادر المياه الشحيحة وبصورة تعمل على تعزيز الأمن الغذائي.

2. الممارســاتُ المســتدامةُ للتأقلم مع التغيّرات المُناخية

1. التحوّلُ المكثّفُ نحو الزراعة المحمية: تســهم الزراعة المحمية داخل البيوت البلاســتيكية في زيادة كميات الإنتاج الزراعي، إضافةً إلى خفض الاحتياجات المائيــة للري. ففــي وادي الأردن، تحــوّل نحو3500 هكتار إلى الزراعة المكثفة داخل البيوت البلاستيكية، حيث تُزرع محاصيل مثل الطماطم، الفلفل، الخيار، والخس باســتخدام تكنولوجيا الري بالتنقيط. تشــير الدراسات[4] إلى أنَّ التحول من الري المفتوح إلى نظم مثل الري بالتنقيط يمكن أن يضاعف الإنتاج الزراعي بكميــة المياه نفســها، فعند دمج البيــوت المحمية مــع مراقبة المُناخ والــري بالتنقيط فإنَّ الاســتهلاك المــائي قد ينخفــض إلى ربع ما يُســتخدم في الزراعة المكشــوفة، والزراعة داخل البيوت البلاستيكية أقل تأثراً بالعوامل الجويــة بفضل التحكم بالبيئة داخل البيــت المحمي خاصةً مع اســتخدام الري بالتنقيط والتسميد المائي، وهي أعلى إنتاجية بكثير مع إمكانية الزراعــة على مدار العام، إضافةً إلى توفير جودة أكثر تجانسًا وتحكم أكبر في حجم الثمار وشكلها، وتقليل انتشار الآفات بفضل الحماية الفيزيائية. بشكل عام، فإنَّ الزراعة المحمية أكثر قدرة على التكيف مع ندرة المياه والتقلبات المُناخية مما يجعلها خيارًا استراتيجيًا للأردن.

وفي سياق التكلفة، تبلغ التكلفة الإجمالية لتوصيل المياه المنزلية حوالي 1.93 دينارًا لكل متر مكعب وفقًا لوزارة الميــاه والري. ومع ذلك، يدفع المســتهلك في المتوســط حوالي 0.70 دينارًا لكل متر مكعب للمياه

المنزلية ومبلغاً رمزياً لمياه الري في وادي الأردن. ومن ناحية أخرى يمكن تحقيق وفورات كبيرة في كميات مياه الري المستخدمة في الحقول المكشوفة من خلال دعم صغار المزارعين بتوفير البيوت المحمية لمزارعهم، مما يرفع الإنتاجية لكل متر مكعب من مياه الري، ويوفر كميات كبيرة من المياه الشحيحة كمّاً والمرتفعة كلفةً.

2. الزراعةُ من دون تربة والزراعة المائية: وهي نظم لزراعة النباتات في أوساط بديلة للتربة (صلبة/ مائية/ هوائية)؛ بحيث يتم تغذية النبات باستخدام المحلول المغذّي الذي يحتوي على العناصر اللازمة، ودعم جذور النباتات بمواد صلبة عضوية (البيتموس أو قشور جوز الهند وغيرها)، أو غير عضوية (الحجر البركاني، التووف أو البيرلايت وغيرها)؛ حيث تعمل هذه النظم الزراعية بشكل أفضل مع الجذور التي لا يتعين عليها البحث عن المغذيات في أعماق التربة. وتعدُّ تقنيات الزراعة من دون تربة والزراعة المائية من التقنيات الزراعية الواعدة لما لها من فوائد عديدة أهمها زيادة الإنتاج في وحدة المساحة وإمكانية زراعة المحاصيل في أي بيئة وبغض النظر عن المكان (مناطق زراعية أو حضرية)، ورفع إنتاجية المياه (توفير في كميات المياه المستخدمة في الرّي) حيث أنَّ استخدام هذه التقنيات يوفر حوالي 50 % (في المحاصيل الحقلية) و70 % (في المحاصيل الورقية) من المياه المستخدمة في إنتاج المحاصيل نفسها مقارنةً بالزراعة التقليدية.

3. الزراعةُ الذكيّةُ والدقيقة (Smart & Precession agriculture): توفّر هذه التقنيات مجسات (Sensors) لاستشعار الرطوبة في التربة مرتبطة مع محابس كهربائية ولوحات كهربائية تتحكم آلياً بالري عند الجفاف، كما يمكن ربطها بمحطات الرصد الجوي القريبة حيث تتعدل برامج الري آلياً وتسهم بتوفير كميات كبيرة من مياه الري مقارنة بطرق الري الاعتيادية، وبالتالي توفر هذه المجسات فرصة ذهبية للمزارعين لمراقبة مزارعهم من خلال التطبيقات الهاتفية ومعرفة احتياجاتها وتلبيتها آلياً بكميات دقيقة من المياه والأسمدة، مما يوفر في كمياتها ويعظم كمية الإنتاج لوحدة للمتر المكعب من المياه.

4. التحولُ نحو الري تحت السطحي والري العميق: ويوفر مياه الري للجذور مباشرةً، مقلّلاً التبخر والجريان السطحي بنسبة 30-50% مقارنةً بالري السطحي التقليدي، فضلاً عن الميزة الإضافية بمنع نمو الحشائش غير المرغوب بها حول الأشجار، كما يقلّل تبلّل أوراق النبات وبالتالي تقليل انتشار الفطريات والحشرات المرتبطة بالرطوبة السطحية، وعلى الرغم من كلفته الرأسمالية المرتفعة نوعاً ما إلا أنَّ ميزة توفير المياه يجعل الاستثمار في هذه التقنيات مجدياً على المستوى الوطني والاقتصادي.

5. الزراعةُ العمودية (Controlled Environment Agriculture-CEA): إنَّ الزراعة العمودية المُتحكم ببيئتها هي نهجٌ زراعيٌّ حديثٌ يشمل زراعة النباتات داخل بيئة مغلقة تتميز بالترتيب الرأسي، حيث يتم تنمية النباتات في أرفف متعددة عمودية بدلاً من الامتداد الأفقي كما في الزراعة التقليدية. وتسهم في زيادة الإنتاجية بشكل ملحوظ

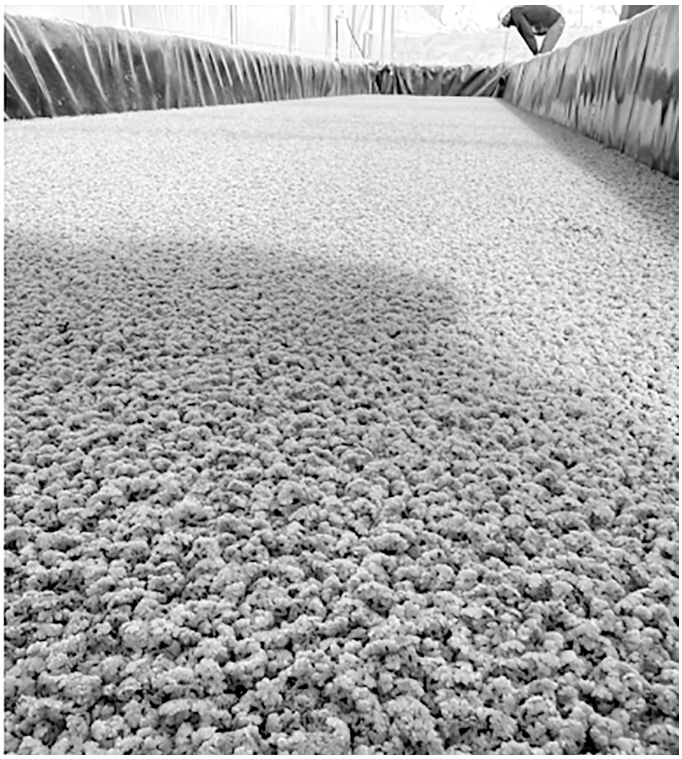

الزراعة المائية (جامعة عجلون الوطنية، الجمعية العلمية الملكية 2025)

في وحدة المساحة. يتم تطبيق هذه التقنية في أماكن مُغلقة بحيث يتم تنظيم الظروف البيئية التشغيلية ومراقبتها مثل درجة الحرارة والرطوبة، وتركيز غاز ثاني أكسيد الكربون، وتوفير الإضاءة الصناعية ومراقبتها، وتوفير المغذيات والتحكم في مكافحة الآفات والأمراض. تهدف هذه التقنية إلى تحسين ظروف نمو النباتات وزيادة إنتاج المحاصيل، مما يسمح بزراعة النباتات على مدار العام. وتأتي هذه الأساليب الزراعية المبتكرة استجابةً للحاجة الملحة لمعالجة آثار تغيّر المُناخ والحفاظ على موارد المياه والحد من التلوث وزيادة إنتاج الغذاء بشكل أكثر كفاءة من خلال توظيف التكنولوجيا الحديثة، مثل إنترنت الأشياء (IoT). يتميز نظام الزراعة العمودية بقدرته على تحقيق إنتاجية تصل إلى خمسة أضعاف مقارنة بالزراعة التقليدية بمساحة الزراعة نفسها، واستهلاك كميات أقل من المياه مقارنة بالزراعة التقليدية بحوالي 80%، وهذا يلعب دورًا مهمًا في مواجهة التحديات العالمية مثل زيادة الطلب على الغذاء والتغيّرات المُناخية. وعلى الرغم من فوائدها العديدة، إلا أنَّ الزراعة العمودية تواجه تحديات تشمل الكلف الرأسمالية والتشغيلية العالية، وتتطلب مستوى عالياً من الخبرة الفنية، ومع

ذلــك، تظلُّ هذه التقنية خياراً مهماً لتحقيق الزراعة المستدامة ومواجهة التغيّر المُناخي.

6. تحســينُ سلاســل التوريد وخدمــات ما بعد الحصاد: تشــمل جميع الإجــراءات والعمليات التي تلي جمــع المحصول، وتهدف إلى تقليــل الفاقد من الغــذاء ورفع القيمة الاقتصادية للمنتجات، بما يعزّز من تنافســية القطــاع الزراعي في الأســواق المحلية والخارجيــة، وكذلك الخدمــات المرتبطة مثل تطوير طرق التدريج والفرز وتقنيات التعبئة والنقل والتبريد والحفظ والتخزين المتطور ورفع كفاءة التســويق في الأســواق المركزية، وطرق التغليــف الذكية للحفاظ عــلى جودة الغــذاء، وتعزيز التوريد البــارد وإيجاد أنظمة تتبع (Traceability Systems) للحفاظ على جــودة المنتجات الأصيلة، وتطوير أدوات التســويق الإلكتروني وفتح أســواق جديدة للتصدير ،وتشجيع الشراكات مع القطاع الخاص.

7. استهدافُ محاصيل مقاومة للجفاف ومتحملة للملوحــة: في ظل تزايد الضغــوط المُناخية وتناقص المــوارد المائيــة في الأردن، أصبح التركيــز على زراعة المحاصيل المقاومة للجفاف والملوحة أمراً استراتيجيًا لتعزيز الإنتاج الزراعي في المناطق ذات الموارد المائية المحــدودة ولضمان الأمن الغذائي واســتدامة الإنتاج الزراعي. وتشــمل هذه المحاصيل على سبيل المثال: (الشــعير) الــذي يتميز بقدرته عــلى النمو في التربة الجافة والملحية مقارنة بمحاصيل أخرى ويعتبر خيارًا مثاليًا للمناطق شــبه الجافة، وكذلك (الذرة الرفيعة) التي تتحمل الجفاف ودرجات الحرارة العالية، وتعدُّ مصدرًا مهمًا للغذاء والأعلاف، وأيضاً (القمح القاسي)

دراسات حالة وأمثلة تطبيقيّة من الأردن

الزراعة المتحكم ببيئتها

الجمعية العلمية الملكية 2023)

وهو نوعٌ من القمح يتحمل الظروف الصعبة نسبيًّا ويُستخدم في إنتاج الخبز والمعكرونة عالية الجودة، بالإضافة إلى (النخيل) فهو من الأشجار المثالية للمناطق الجافة ويتحمل درجات عالية من الجفاف وملوحة التربة، ويُنتج ثماراً ذات قيمة اقتصادية غذائية وتجارية كبيرة.

8. تعزيزُ نظم حصاد المياه: يُعدُّ حصاد المياه أحد أهم الحلول لمواجهة شح المياه وتراجع الهطول المطري في الأردن، خصوصًا مع ارتفاع وتيرة الجفاف وتناقص الموارد المائية. ويكمن الهدف في تجميع مياه الأمطار والسيول وتخزينها لاستخدامها في الري التكميلي ودعم الزراعة البعلية والمراعي، ويتحقق ذلك بتكثيف إنشاء حفائر حصاد مياه الري شريطة فعاليتها (مرتكزة في التصميم على نِسب الهطول المطري وحاجة الاستخدام)، بالإضافة إلى اعتماد تقنيات متقدمة لإدارة مياه الأمطار والري التكميلي مستندة إلى نظم المعلومات الجغرافية GIS بهدف دعم الزراعة البعلية وتحسين إدارة التربة (الحراثة الكنتورية، التغطية العضوية) لتعظيم إنتاجية المحاصيل الاستراتيجية والمحافظة على استدامة الأراضي وتقليل تدهورها البيئي؛ مما يخفض من خسائر المزارعين في السنوات الجافة، ويوفّر دخلًا مستقرًا لهم ويعزّز من صمود المجتمعات الريفية ويحدُّ من الهجرة إلى المدن بسبب الجفاف.

9. إنتاجُ المحاصيل ذات القيمة المضافة والقيمة التصنيعية العالية: في ظلِّ التغيّر المُناخي الذي يؤثر على توفر المياه ودرجة الحرارة وأنماط الهطول، يصبح التركيز على إنتاج المحاصيل ذات القيمة المضافة العالية والقيمة التصنيعية أمرًا استراتيجيًا. توفر هذه المحاصيل غالبًا إمكانات أكبر للصناعات التحويلية، مما يزيد من الأمن الاقتصادي والغذائي ويحدُّ من الخسائر الناتجة عن ظروف المُناخ المتقلبة، ومن أمثلة ذلك تحويل الأعشاب العطرية إلى زيوت عطرية ومستحضرات تجميلية وطبية، وتحويل البندورة والفلفل والخيار إلى صلصات ومعلبات أو منتجات غذائية أخرى، وتجفيف الفواكه وتصنيع منتجات التمور.

10. تحديثُ الرزنامة الزراعية المحلية بما يتوافق مع التغيّر المُناخي: إنّ التغيّرات المُناخية التي يشهدها الأردن تستدعي إعادة النظر بشكل جدي في الرزنامة الزراعية الوطنية باستخدام التنبؤات المُناخية قصيرة وطويلة المدى وربطها مباشرة بجداول الزراعة. فالرزنامة الزراعية ليست مجرد جداول زمنية لزراعة وحصاد المحاصيل، بل هي أداةُ تخطيط استراتيجية تسهم في توجيه المزارعين نحو الممارسات الأكثر كفاءة من حيث الإنتاجية واستخدام الموارد. وعلى الرغم من أنَّ الأنماط الزراعية هي طوعية وغير ملزمة للمزارعين في الأردن، إلا أنَّه يلزم توفير أسعار تفضيلية (منح سعر شراء أعلى أو ضمان تسويق للمزارعين الملتزمين بالرزنامة) وحوافز مالية تشجيعية (دعم مدخلات الإنتاج: بذور، أسمدة، طاقة- للمزارعين الملتزمين بالمواسم الموصى بها)، والإعفاءات الضريبية (تخفيض أو إعفاء ضريبي مقابل الالتزام بخطة وزارة الزراعة)، حيث أنَّ ذلك يحافظ على السعر المناسب للمحاصيل الزراعية ويمنع مشكلة "إغراق السوق" في مواسم معينة التي تؤثر بشكل كارثي على المزارعين.

وللمســاعدة في تطبيق الرزنامة الزراعية يلزم إشراك الجمعيــات التعاونيــة واتحــادات المزارعين في هذا النهــج الذي بموجبه تصبــح الرزنامــة الزراعية أداةً للتكيّف مع التغيّر المُناخي، وليســت مجرد توصيات نظرية، شرط أن تدعمها سياسات حكومية تحفيزية وآليات متابعة فعّالة.

11. الممارساتُ المستدامةُ المعزّزةُ للأمن الغذائي: تُعتبر هذه الممارســات من الركائز الأساسية لتحقيق اســتدامة النظم الغذائية في الأردن، وذلك من خلال تبنــي مفاهيم الاقتصــاد الدائري الزراعــي وإعادة تدويــر المخلفــات الزراعيــة عــبر تقنيــات تحويل المخلفــات الزراعية إلى أســمدة وأعلاف وغاز حيوي قليل التكلفة، وتقليل الفاقد من المزرعة والمهدر من الأغذية، وتبني ممارســات الزراعة المستدامة (Per-maculture) وهي نظم إنتاجية مســتدامة وفعّالة تحاكي الأنظمــة الزراعية الطبيعية وتهدف إلى زيادة الإنتاجيــة الزراعية مع الحفاظ على الموارد الطبيعية وتقليل الأثر البيئي وحماية الموارد الطبيعية للأجيال القادمة.

12. تبادلُ الميــاه الزراعيّة الافتراضيّة: يأتي مفهوم "الميــاه الافتراضية" بمعنــى كمية المياه المســتهلكة لإنتاج المنتــج الزراعي، حيث يركز هــذا النهج على تحويل المــوارد إلى محاصيل أكــثر ربحية بالحصول على أكبر قيمــة اقتصادية مقابل كل متر مكعب من الماء المســتخدم، بدلًا من مجــرد إنتاج كميات كبيرة مــن المحاصيل، فمثلاً إذا كانت زراعة محصول معين تحتاج الكثير من المياه بينما يمكن استيراده بسهولة، يكون من الأفضل اســتيراده بدلاً مــن زراعته محليًّا لتوفير المياه.

13. الاســتزراعُ الســمكيُّ النباتيُّ المتكامل: وهو نظام زراعي حديث يجمع بين تربية الأسماك وزراعة النبــات بطريقة متكاملة ومســتدامة في نظام واحد ووسط زراعي غني بالبكتيريا، حيث تستفيد النباتات من فضلات الأسماك كمغذيات طبيعية، بينما يعمل الوســط الزراعي على تنقية المياه وإعادتها للأسماك، ويُعــدُّ هذا النظام موفراً للميــاه بدرجة كبيرة حيث أنَّه نظامٌ مغلقٌ، كما لا يوجد حاجة فيه إلى الأسمدة الكيماوية، كما أنَّه إنتاج مســتدام: فيمكن الحصول على محصول نباتي وأسماك في الوقت نفسه، ما يزيد من العائد الاقتصادي لكل متر مربع.

تشــكّل هذه الممارســات عدداً من الاستراتيجيات الزراعية التي تزيد الإنتاج وتعزّز قدرة النظم الزراعية على التكيف أمام التغيّرات المُناخية وتسهم في تحسين الأمن الغذائي على المستويين المحلي والإقليمي.

المراجع:

(1) استراتيجية الأمن الغذائي 2021

(2) استراتيجية الأمن الغذائي 2021

(3) Rahman, K., S. M. Gorelick,P. J. Dennedy-Frank, J. Yoon, andB. Rajaratnam (2015), Declining rainfall and regional variability changes in Jordan, Water Resour. Res., 51, 3828–3835, https://doi.org/10.1002/2015WR017153

(4) Shammout, M.W.; Qtaishat, T.; Rawabdeh, H.; Shatanawi, M. Improving Water Use Efficiency under Deficit Irrigation in the Jordan Valley. Sustainability 2018, 10, 4317. https://doi.org/10.3390/su10114317

المجموعاتُ الأكثرُ هشاشةً في مواجهة التغيّر المُناخي: الشبابُ والمجتمعُ المدنيُّ وذوو الإعاقة

م. عبد الغني عرب*

يشــكّل التغيّر المُناخي تحديًّا عالميًّا يؤثر على جميع الناس دون اســتثناء، لكنَّــه لا يؤثر على الجميع بالدرجة نفسها. فهناك فئاتٌ في المجتمع تعدُّ أكثرَ هشاشة وعرضة للتأثيرات الناتجة عنه، مثل الشباب، والمزارعين، وذوي الإعاقة. ومن هذه الآثار موجات الحر الشــديد، وشــحّ المياه، والكوارث الطبيعية لكن تأثيرها لا يكون متساويًّا على جميع الناس، بل تختلف درجة الهشاشــة حســب الإمكانات والقدرة على التكيف مع هذه الآثار. فالشباب غالبًــا لا يملكون الموارد المالية الكافية للتكيف مع هذه التغيّرات. أمَّا المزارعون فإنَّهم يفقدون محاصيلهم نتيجة الجفاف والصقيع. وبالنســبة للأشــخاص ذوي الإعاقــة، فإنَّهم يواجهون صعوبات إضافيــة مثل صعوبة الوصول إلى مراكــز الإيــواء أو الحصول على المعلومات أثناء حالات الطوارئ. وعلى منظــمات المجتمع المدني، أن تتحمل عــبء التوعية والدعم رغم محدودية إمكاناتها أحيانًا. لهذا يُعدّ التغيّر المُناخي تهديدًا غير عادل يفاقم الفوارق الاجتماعيــة ويضع الأضعف في دائرة الخطر الأكبر. وإنَّ فهم أدوار هذه المجموعات الهشّــة وتمكينها يســهم في تحقيق العدالة المُناخية.

*مختص في دراسات التغيّر المُناخي/ الجمعيّة العلميّة الملكيّة

وتقوم الجمعيّة العلميّة الملكيّة بعمل ورشات عمل لرفع قدرات المجتمع المحلي بمفاهيم التغيّر المُناخي وإجراءات التكيف والتخفيف وإشراك الشباب في صنع القرار من خلال عمل مؤتمرات، ودعوة الشباب وصنّاع القرار.

كما قامت الجمعيّة العلميّة الملكيّة وبدعم من صندوق التكيّف بعمل نظام إنذار مبكر، وربط مجموعة كبيرة من مزارعي غور الأردن به؛ وذلك بهدف إشعارهم من خلال تطبيق على الهاتف الخلوي ورسائل نصية بحدوث حالات الطقس المتطرفة ليتسنى لهم القيام بإجراءات للحدِّ من المخاطر المتوقعة.

دورُ الشباب والمنظمات في رفع الوعي والعمل الميداني

يتمتع الشباب بقدرة كبيرة على إحداث التغيير الإيجابي بفضل طاقتهم وأفكارهم الإبداعية. شهد الأردن خلال السنوات الأخيرة العديد من المبادرات الشبابية الملهمة لمواجهة التغيّر المُناخي وتعزيز الوعي البيئي. ومن أبرز هذه المبادرات:

• **مبادرة منصة (نوى):** أطلقتها مؤسسة ولي العهد عام 2017، من أهم المنصات الوطنية للعمل التطوعي في الأردن. تهدف المنصة إلى ربط الشباب مع فرص التطوع المجتمعي والبيئي، بما في ذلك مشاريع حماية الطبيعة ومبادرات التوعية بالتغيّر المُناخي. وساعدت في تنسيق حملات تنظيف الغابات، وزراعة الأشجار، وتوزيع المواد التوعوية حول الاستدامة البيئية في مختلف المحافظات مثل عمان والزرقاء والبلقاء. كما أتاحت المنصة للشباب تسجيل ساعات تطوعهم وتوثيق إنجازاتهم بما يعزّز روح المبادرة والعمل الجماعي.

• **مبادرة (يلا نفرز)** التي انطلقت عام 2018 في العاصمة عمان، حيث قام شبابٌ متطوعون بتوزيع حاويات خاصة بفرز النفايات القابلة لإعادة التدوير في بعض الأحياء والمدارس، ونظّموا لقاءات توعوية لتشجيع السكان على اعتماد أسلوب حياة صديق للبيئة.

• **حملة وطنية بعنوان (نظِّفوا الأردن)** شملت عدة محافظات منها إربد والبلقاء وعجلون، حيث شارك المئات من الشباب في تنظيف الغابات والمنتزهات العامة والشواطئ من النفايات البلاستيكية عام 2018.

• **بادر طلبةٌ من جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية** عام 2019 بتنفيذ مشروع صغير لتركيب

ألواح شمسية على أسطح مدرستين في محافظة المفرق، بهدف خفض فاتورة الكهرباء وتعريف الطلبة بالطاقة المتجدّدة.

• **مبادرة (شجّرها)** عام 2020 في محافظة جرش، إذ قام متطوعون بزراعة مئات الأشجار في المناطق المتضررة من الحرائق والتصحر، ونفّذوا أنشطة توعوية حول أهمية زيادة الرقعة الخضراء.

• **حملات رقمية على منصات فيسبوك وإنستغرام** أطلقها شبابٌ نشيطون منذ 2021 لشرح آثار التغيّر المُناخي وتشجيع الأفراد على تقليل استهلاك الطاقة واستخدام بدائل مستدامة في حياتهم اليومية.

أمَّا بالنسبة لمنظمات المجتمع المدني فإنَّ لها دورًا أساسيًا في مواجهة التغيّر المُناخي وتخفيف آثاره على الفئات الهشّة. فهي تعمل على نشر الوعي بين الناس حول أهمية الحفاظ على البيئة، وتوفر التدريب والمواد التثقيفيّة التي تساعد الأفراد على تغيير سلوكهم نحو ممارسات أكثر استدامة. كما تنظم هذه الجمعيات حملات توعوية وتشجير، وتسهم في جمع التبرعات لتمويل مشاريع الطاقة النظيفة أو حماية التنوع الحيوي. إضافةً إلى ذلك، تقوم منظمات المجتمع المدني بالتنسيق مع الجهات الحكومية والقطاع الخاص لتطوير السياسات البيئية وضمان وصول المعلومات والخدمات لجميع فئات المجتمع، بما في ذلك الأشخاص ذوي الإعاقة والشباب في المناطق الأقل حظًّا. ومن خلال هذا الدور، يصبح المجتمع المدني شريكًا رئيسًا في تحقيق العدالة المُناخية وبناء مستقبل أكثر أمانًا واستدامة.

بعض الجمعيات تنظم ورش عمل في المدارس والجامعات لتعريف الطلبة بأساسيات التغيّر المُناخي وطرق التكيف معه. إنَّ هذا التعاون بين الشباب والمنظمات يساعد على بناء مجتمع واعٍ وقادر على مواجهة الأزمات البيئية على المستوى المحلي. وقد برزت مبادراتٌ ناجحةٌ أسهمت في تعزيز العمل المُناخي. على سبيل المثال، نفّذت بعض الجمعيات حملات للتشجير في المناطق التي تعرّضت للتصحر، وأسهمت هذه المبادرات في تحسين جودة الهواء وتقليل درجات الحرارة.

أهميةُ التعليم والمُناصرة

التعليمُ أداةٌ أساسيّةٌ لبناء الوعي المجتمعي حول التغيّر المُناخي. عندما يحصل الناس على معلومات مبسطة وواضحة، يصبحون أكثر قدرة على اتخاذ قرارات صديقة للبيئة. المدارس والجامعات لها دورٌ رئيسٌ في نشر المعرفة البيئية، كما تسهم وسائل الإعلام

والتواصل الاجتماعي في إيصال الرسائل التوعوية إلى جمهور واسع وبطريقة بسيطة وجذابة.

أمَّا المُناصرة، فهي تعنــي الدفاع عن قضايا البيئة والتأثــير في صنّــاع القــرار لســنّ تشريعــات تدعم حماية البيئة وتمكّن الفئات الضعيفة. وقد أســهمت حملات المُناصرة في تعزيز مشــاركة الشباب والنساء والأشخاص ذوي الإعاقة في رسم السياسات المُناخية.

العدالةُ المُناخيةُ وتمكين الفئات المهمّشة

يقصد بمفهــوم العدالة المُناخية ضمان أن تتحمل الفئــات الأكــثر تســببًا في التلوث القــدر الأكبر من المســؤولية، وأن تحظــى الفئات الضعيفــة بالدعم والحمايــة. حيث يعاني الأشــخاص ذوو الإعاقة مثلًا من تحديــات إضافية أثناء موجات الحر الشــديدة أو الكوارث الطبيعية بســبب صعوبــة الوصول إلى الخدمــات والمعلومات. لذلك من الضروري إشراكهم في خطــط الطــوارئ والبرامج البيئيــة. كما أن تمكين الشــباب والنســاء في المناطق الفقيرة يسهم في خلق حلول مناسبة لواقعهم ويعزّز قدرتهم على الصمود.

إنَّ العدالة المُناخية تتطلب مشاركة الجميع وعدم

إقصاء أي فئة مهما كانت ظروفها.

من خلال تعزيــز دور الشــباب والمجتمع المدني وتمكين الأشخاص ذوي الإعاقة، نستطيع بناء مجتمع قــوي وأكثر اســتعدادًا للتعامل مع التغــيّر المُناخي ولتحقيــق ذلك؛ مــن المهم دعم التعليــم والتوعية البيئيــة في جميــع المراحــل الدراســية، وتشــجيع المبادرات المحلية والمجتمعية وتسهيل حصولها على التمويــل، ضــمان وصول ذوي الإعاقــة للمعلومات والبرامــج البيئيــة، وتعزيز التعاون بين المؤسســات الحكومية والجمعيات والمواطنين.

دراســة حالة: مشروعُ الاســتزراع السمكي لرفع منعة الأشخاص ذوي الإعاقة

تم تنفيذ هذا المشروع من قبل الجمعيّة العلميّة الملكيّــة في (مركــز روح الــشرق للأشــخاص ذوي الإعاقة) في عمان، حيث تم بناء بيت بلاســتيكي على ســطح مبنى المركز وتمت زراعتــه بطريقة الزراعة المائية باستخدام وسط معالجة مبتكر بحيث ترتبط الــدورة المائيــة مع حوض أســماك يتم فيــه تربية الأســماك ويُعاد تدوير المياه بحيث يستفيد النبات مــن العنــاصر الغذائية الموجودة في مياه الســمك. يهدف هذا المشروع بشــكل أساسي إلى بناء قدرات الأشخاص ذوي الإعاقة وتزويدهم بالمهارات اللازمة، إضافةً إلى كونه يشــكّلُ مصدرَ دخلٍ إضافي للقائمين عليه.

قائمة المراجع

- تقرير الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المُناخ (IPCC، 2023).
- وزارة البيئة الأردنية، الاستراتيجية الوطنية للتغير المُناخي، 2022.
- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP)، "العدالة المُناخية وتمكين الفئات الهشّة"، 2021.
- دليل العمل المُناخي للشباب في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، اليونيسف، 2020.
- مبادرة الأمم المتحدة للشباب من أجل المُناخ، 2021.
- وزارة البيئة الأردنية/ تقرير حملات النظافة الوطنية، عمان، 2018.
- موقع مبادرة "يلا نفرز"
- الوكالة الألمانية للتعاون الدولي (GIZ). تقرير مبادرات إعادة التدوير والطاقة المتجدّدة في الأردن، 2019.
- مبادرة "شجّرها"، صفحة الفيسبوك الرسمية.
- اليونيسف الأردن /شباب من أجل المُناخ: قصص نجاح من الأردن، عمان، 2021.
- منصة "نوى" للعمل التطوعي (ضمن مؤسسة ولي العهد)، قسم المبادرات البيئيّة.

التغيّرُ المُناخي والصحة

م. أحمد البرماوي*

يُواجــه الأردن، كغيره من دول المنطقة، تحدياتٍ متزايدةً نتيجة التغيّر المُناخي، الذي أصبح يؤثر بشــكل مباشر على صحة الإنســان ونوعية حياته حيث لم يعُد التغيّر المُناخي مشــكلةً بيئيةً فقط، بل أصبح تهديدًا مبــاشرًا لصحتنــا جميعًا. من ارتفاع درجات الحرارة، إلى انتشــار أمراض جديدة، وحتــى التأثير على صحتنا النفسية... كل ذلك أصبح واقعًا نعيشه، ما يتطلب استجابةً وطنيّةً فعّالة للتخفيف والتكيف.

* مديرية صحة البيئة/ وزارة الصحة الأردنية

أهم المحاور الصحية الأكثر تأثراً بالتغيّرات المُناخية:

1. زيادة الأمراض المنقولة عبر المياه والغذاء.
2. تزايد الأمراض التي تنقلها النواقل (مثل البعوض والقراد).
3. التأثيرات على الصحة النفسية نتيجة الضغوط المُناخية والكوارث.
4. الأمراض التنفسيّة المرتبطة بتدهور نوعية الهواء.
5. سوء التغذية وتأثيرات النقص الغذائي.
6. الإجهاد الحراري وموجات الحر الشديدة.
7. المخاطر على السلامة والصحة المهنية.

في الأردن، أطلقت وزارة الصحة بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية الاستراتيجية الوطنية لتكيّف القطاع الصحي مع التغيّر المُناخي (2024–2033)، لتكون خطًّ الدفاع الأول عن صحة الناس في مواجهة هذه التحديات.

الاستراتيجيّةُ الوطنيّةُ لتكيّف القطاع الصحي مع التغيّر المُناخي

أعدّت وزارة الصحة الأردنية، بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية، الاستراتيجيّة الوطنيّة للتكيّف الصحي مع التغيّر المُناخي بهدف حماية صحة الأفراد وسلامتهم والمجتمعات من آثاره، وبناء قطاع صحي مرن قادر على الصمود أمام الكوارث والمخاطر المُناخية. تستند الاستراتيجية إلى تقييم شامل للهشاشة الصحية، وتحديد الفئات الأكثر تضرراً، مع اعتماد نهج تشاركي يجمع بين الوزارات، والمؤسسات الأكاديمية، والمجتمع المدني، في إطار معايير منظمة الصحة العالمية لتقييم الهشاشة والتكيّف. وتبرز أهمية هذه الاستراتيجية في دمج قضايا الصحة في السياسات المُناخية الوطنية، عبر نهج وقائي تشاركي قائم على الأدلة العلمية، بهدف تقليل المخاطر الصحية الناتجة عن التغيّر المُناخي، وبناء نظام صحي متكامل ومرن قادر على مواجهة تحديات المستقبل.

أهمُّ الإجراءات التكيّفية

- تطوير أنظمة الإنذار المبكر للأوبئة والكوارث المُناخية.
- بناء قدرات الكوادر الصحية لرصد الأمراض الحساسة للمُناخ وتشخيصها وعلاجها.
- تعزيز برامج التغذية والمكملات الغذائية للفئات الهشّة.
- تطوير برامج الرصد البيئي ومراقبة جودة الهواء والمياه والغذاء.
- إنشاء خدمات دعم للصحة النفسية المتأثرة بالتغيّر المُناخي.
- دمج معايير التعرض الحراري والتلوث في استراتيجيات الصحة المهنية.
- اعتماد نهج الصحة الواحدة (One Health) للربط بين صحة الإنسان والحيوان والبيئة في مراقبة الأمراض ومكافحتها.

الفئاتُ الأشدُّ تعرضًا

يُعدُّ كل من كبار السن والسكان في مناطق العجز المائي والبنى التحتية الضعيفة والمجتمعات منخفضة الدخل، واللاجئين من الفئات الهشّة للمخاطر الصحية المرتبطة بالتغيّر المُناخي وهذه الفئات تم تحديدها ضمن تحليل الهشاشة في الاستراتيجية الصحية 2024–2033.

دراسات ومقالات

- د. أيوب أبودية
- جلال برجس
- مجدي دعيبس
- زكية المجذوب
- علي الفواز
- بسمة علاء الدين
- د. نضال الشمالي
- د.عيسى برهومة
- د. سلطان الزغول
- محمد أبو عزيز
- البشير عبيد
- نور بني عطا
- جهاد الرنتيسي

الثقافةُ الدينيّةُ وأثرها في رفع الوعي البيئيّ

د. أيوب أبودية*

الوعــي البيئي هو أحدُ المحــاور المهمّة في الحفاظ على اســتدامة الموارد الطبيعيــة وحماية البيئة من التلوث. ويتضح من خلال دراسة بعض النصوص الدينية في القرآن والسنة أنَّ الدين الإسلامي وضع أسساً وقواعد واضحةً تعزّز الحفاظ على البيئة وحمايتها، لذلك اســتوجب عرضها ها هنا للإفادة منها في ترســيخ قيم الواجب والمســؤولية تجاه البيئة مــن حولنا من هواء وماء وتراب وتنوعٍ حيــويٍ وبيئةٍ مبنيَّةٍ أقامها الإنسان.

تتضمن الثقافة الدينيّة مفاهيم بيئيّة تعزّز حماية الموارد الطبيعية وتحمي البيئة والتنوع الحيوي فيها، كسلامة الإنسان، والرفق بالحيوانات، والاهتمام بالنظافة، والابتعاد عن الإضرار بالبيئة المتنوعة على أصعدة البيئات الطبيعيّة والاصطناعيّة والإنســانيّة والاجتماعيّة والصحيّة والجماليّة والنفسيّة وغيرها. فمن خلال النظر في الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، نســتطيع بناء تصور شــامل عن كيفية تأثير الثقافة الدينية في رفع الوعي البيئي وتحمل المسؤولية تجاه التعامل السليم مع موارد الأرض المتنوعة.

* أكاديمي وباحث أردني

في هــذه المقالة، ســوف نتناول النصــوصَ الدينيّة المتعلقة بحمايــة الماء، التربة، الهــواء، والحياة البرية، والتنــوع الحيوي، فضلاً عن التشــجيع عــلى الزراعة، وغيرهــا من قضايــا تهمُّ البيئة، وســوف نناقش كيف يمكن لتلك النصوص أن تســهم في رفــع الوعي البيئي عــلى صعيد العالم العربي والإســلامي برمته وذلك عبر عناوين رئيسة.

أولاً: الحرصُ على عدم تلويث الهواء

الهــواءُ النظيفُ هو أحدُ أهم الموارد الطبيعية التي يحتاجها الإنســان والكائنات الحية جميعها. وقد ورد عــن الحديــث الشريف ما يتعلق بالحــرص على نقاء الهــواء، قوله: "من أكل من هذه الشــجرة (الثوم) فلا يقربن مســجدنا حتى يذهب ريحهــا" (رواه البخاري ومسلم).

يُظهــر هذا الحديث أهمية الحرص على نقاء الهواء المحيــط بالناس، فالهــواء النقي يعزّز صحــة الأفراد، ويقلّل من الأضرار الناتجة عن التلوث البيئي.

ومــن خلال تطبيق هــذا المبدأ في حياتنــا اليومية، والقيــاس عليه، يمكننا أن نرى مدى التأثير الكبير الذي يمكن أن يحدثه هذا المنطق في الحفاظ على البيئة، من خلال الحد من تلوث الهواء بالغازات السامة والروائح الكريهة.

ثانياً: الحفاظُ على الماء ومنعُ تلويثه

الماءُ هو أســاسُ الحياة وأحدُ المــوارد الحيوية التي يعتمــد عليها الإنســان والكائنات الأخــرى: "وَجَعَلْنَا مِــنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"(الآية30 من ســورة الأنبياء). وقــد أكّد الحديث الشريف عــلى أهمية الحفاظ على نقــاء الماء ومنع تلويثه، فورد أنَّه "نهى أن يُبال في الماء الراكد" (رواه مســلم)، كذلك: " لا تسرفوا في الماء، ولو كنتــم على نهرٍ جــارٍ"؛ "كل واشرب والبس وتصدق في غير سرف ولا مَخْيِلة".

فهذه الأحاديث تدعو وتحثُّ على تجنب أي سلوك يمكــن أن يؤدي إلى تلوث الماء وهدره، ســواء كان من خلال إلقــاء الفضلات أو المــواد الكيميائية الضارة أو الإسراف في اســتهلاكه. فالحفــاظُ على نظافــة المياه، واســتدامتها، واجبٌ دينيٌّ واجتماعيٌّ ووجودي، ذلك أنَّ تلويــث المياه يؤدي إلى أضرار بيئيــة كبيرة ويهدّد حيــاة الكائنات الحيــة التي تعتمد عليهــا. ومن هنا، يجب على كل مســلم أن يسعى للمحافظة على المياه وتجنب تلويثها بأية طريقة.

كــما أنَّ مفهوم "النظافة من الإيمان" يمتدُّ ليشــملَ أبعــادًا بيئية مهمــة تتعلق بحماية كوكبنــا. فالنظافة ليســت مجرد سلوك فردي، بل هي مسؤوليةٌ جماعيةٌ تتطلب منا جميعًا العمل بجد للحفاظ على البيئة. إنَّ التلوث، ســواء كان من النفايات البلاستيكية أو المواد الكيميائية، يؤثر ســلبًا على صحة الإنســان والكائنات الحيــة. فعندما نلتــزم بالنظافة، نســهم في خلق بيئة صحيــة ونظيفة، مــما يعزّز جودة الحيــاة ويقلّل من المخاطر الصحية وينشئ جيلاً سليم العقل والبدن. لذا، يجب على كل مســلم أن يتبنى ممارسات نظيفة، مثل إعــادة التدوير، والتقليل من اســتخدام المواد الضارة، والحفاظ على المياه، والســاحات العامة كأنَّها جزءٌ من بيته، وكجزء من إيمانه وواجباته تجاه الله والمجتمع.

ثالثاً: حمايةُ التربة والزراعة

التربةُ واحدةٌ من أعظم نعم الله على الإنسان، فهي المصدر الأساس للغذاء من خلال الزراعة. وقد دعا الإسلام إلى الحفاظ على التربة والزراعة وعدم إفساد الأرض، قال الله تعالى: "وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا" (الأعراف: 56)، وجاء في الحديث الشريف: "من أحيا أرضًا ميتة فهي له" (رواه البخاري). يعزّز هذا الحديث مفهوم الاستصلاح الزراعي والعمل على إحياء الأرض المهملة وغير المزروعة. وكذلك تفتح آفاق فهم التلوث الزراعي من خلال استخدام المواد الكيميائيّة الضارة أو تقنيات الزراعة غير المستدامة التي تؤدي إلى تدهور التربة، وبالتالي تؤثر سلبًا على الإنتاج الغذائي والحياة البيئية بمجملها وعبر دورة حياتها.

فمن خلال تطبيق القواعد الشرعيّة في الزراعة، يمكننا تحقيق فوائد عديدة تعود بالنفع على البيئة الزراعيّة وضمان استدامة الموارد الطبيعية. إذ تحثُّ الشريعة على استخدام الموارد بشكل مسؤول، مما يعني تقليل الفاقد من المياه والتربة. من خلال أساليب مثل الري بالتنقيط أو الزراعة العضوية، فبذلك يمكن الحفاظ على الموارد وضمان استدامتها.

وتشجّع الشريعة الإسلامية أيضًا على زراعة محاصيل مختلفة، مما يعزّز التنوع البيولوجي. هذا التنوع يساعد في تقليل خطر الآفات والأمراض، ويزيد من قدرة النظام البيئي على التعافي. ويمكن أن تسهم القواعد الشرعيّة في التحوّل نحو الزراعة العضويّة، وتقليل الاعتماد على المبيدات والأسمدة الكيميائية الضارة. وهذا يسهم في حماية البيئة وصحة الإنسان والحيوان.

كما تحثُّ الشريعة على العمل الجماعي، والتعاون، مما يمكن أن يؤدي إلى مبادرات مجتمعيّة لتحسين الزراعة، مثل إنشاء جمعيات تعاونية تدعم المزارعين في تبني ممارسات مستدامة.

رابعاً: الرفقُ بالحيوانات والحياة البريّة

الرفق بالحيوانات، والحياة البرية، هما جزءان أساسيان من الحفاظ على التنوع البيئي. وقد ورد عن الحديث الشريف من الأحاديث ما يشدّد ويلحُّ على ضرورة التعامل الرحيم مع الحيوانات. منها حديث "إنِ امرأة دخلت النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض" (رواه البخاري ومسلم). وفي حديث عن الرفق بالدواب: "إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته" (رواه مسلم). يُظهر هذا الحديث أهمية التعامل الإنساني مع الحيوانات حتى في سياق الذبح.

وأمَّا الرحمة بالطيور والحيوانات، فقد رُوي قوله: "ألا أنبئكم برجل دخل الجنة؟ قالوا: بلى. قال: كان رجل فيمن كان قبلكم رأى كلبًا يلهث قد أدركه العطش، فقال: والله لأعطشنه. فملأ خفّه ماءً، ثم أمسكه بفيه، ثم أتى إلى الكلب، فسقاه. فشكر الله له، فغفر له" (رواه البخاري ومسلم).

يُظهر هذا الحديث كيف يمكن لفعل صغير من الرحمة أن يؤدي إلى عواقب كبيرة في الآخرة. وهذا

حال التحذير من إيذاء الحيوانات، قوله: "مَن لا يرحم لا يُرحـم" (رواه البخاري). إذ يعكـس هذا الحديث أهميـة الرحمة في جميع جوانـب الحياة، بما في ذلك التعامـل مـع الحيوانـات والطبيعة بكامـل تنوعها الحيوي. كذلك حديث: "لا تضروا المخلوقات، فإنَّ الله خلقها لنفعكم".

تُظهـر هذه الأمثلة كيف أنَّ الإسـلام يشـجّع على الرفق بالحيوانـات ويعتبره جزءًا من الإيمان، بالإضافة إلى دوره في الحفـاظ على التنوع البيولوجي في البيئة. فهـذا الحديث يوضـح أنَّ تعذيـبَ الحيوانـات، أو إهمالهـا، فعلٌ منبوذٌ في الإسـلام، ويُعـدُّ من مظاهر الفساد في الأرض. إذ تؤدي حماية الحيوانات والحرص على سلامتها إلى الحفاظ على التوازن البيئي، واستمرار الحياة البرية بأشـكالها المتنوعة. وهـذا يعزّز أهمية الحفاظ عـلى المواطـن الطبيعيـة للكائنـات الحية وحمايتها من التدمير أو الإهمال.

وفي مجال البيئة الإنسـانيّة والاجتماعيّة، وهي من عناصر البيئة التي تُـدرّس اليوم في الجامعات، جاء في الحديث الشريف: "من لا يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا، فليس منا". يُظهر هذا الحديث أهمية الاحترام والرعايـة للكائنات البشرية كافة، بمـا في ذلك الحياة البرية والداجنة.

خامساً: تشجيعُ التشجير والغرس

التشـجير وزراعة النباتات لهما دورٌ كبيرٌ في تحسين البيئـة والتخفيـف مـن آثـار التلوث. وقـد جاء في الحديث الشريف: "إن قامت السـاعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها قبل أن تقوم فليغرسها" (رواه البخـاري). وهـذا الحديث يحـثُّ على زراعة الأشـجار حتى في أصعب الأوقات، مما يعزّز من فكرة أنَّ الغـرس والزراعة هما أعمالٌ خيريّةٌ ترتبط بمصلحة المجتمع والبيئة. فالأشجارُ تسهم في تنظيف الهواء من الأغبرة وتلتقط الكربون، وتوفِّر الظل، وتحسـن جودة التربـة، وتمنع انجرافها، وتحافظ عـلى التوازن البيئي. ومن خلال تطبيق هذا المبدأ في حياتنا اليومية، يمكننا المسـاهمة في تقليـل آثـار التلوث وتعزيز اسـتدامة الموارد الطبيعية.

سادساً: الحفاظُ على الموارد المشتركة

الحفاظ عـلى الموارد الطبيعية المشـتركة مثل الماء والمرعى أحد المبادئ الأساسـية في الإسلام. وقد جاء في الحديث الشريف: "لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ" (رواه البخاري). فهذا الحديث يشـير إلى ضرورة عدم احتكار الموارد الطبيعية وضمان وصولها للجميع، مما يعزّز فكرة التعاون الاجتماعي في الحفاظ على البيئة. والإفسـاد في الموارد المشـتركة أو احتكارها يؤدي إلى تدهـور البيئة وحرمان الآخرين من حقهم في الانتفاع بهـا. ومن هنـا، يجب عـلى الجميـع أن يتعاونوا في الحفاظ على الموارد الطبيعية واستغلالها بشكل رشيد ومستدام.

وللحفـاظ على المـوارد المشـتركة حـذَّر الحديث الشريف مـن الإسراف: "كلـوا واشربـوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مَخْيَلة" (رواه البخاري). إذ يشـير هذا الحديـث إلى ضرورة الحفـاظ على المـوارد الطبيعية وعدم الإسراف في اسـتخدامها، مما يؤثر بشـكل غير مباشر على الحياة البريّة.

سابعاً: النهي عن الإضرار بالبيئة

يدعو الإسلام أيضًا إلى عدم الإضرار بالآخرين أو البيئة المحيطة، فجاء في الحديث الشريف: "لا ضرر ولا ضرار" (رواه مالك في الموطأ). فهذا الحديث من الأصول المهمّة في الإسلام، إذ يحرّم الإضرار بالبيئة بأي شكل من الأشكال: تلويث الهواء، الماء، التربة، أو إتلاف الحياة البرية أو مصادر رزقها هي أشكال من الضرر التي تضرُّ بالبيئة وتسبّب تدهورها. فمن خلال الامتثال لهذا المبدأ، يمكن للإنسان أن يسهم في الحفاظ على البيئة من التلوث والدمار، مما يضمن استدامة الحياة على الأرض للأجيال القادمة.

خاتمة

تؤدي الثقافة الدينية إذًا دورًا محوريًّا في تشكيل الوعي البيئي وتعزيز السلوكيات المستدامة، حيث تُعدُّ المبادئ والقيم المستمدة من النصوص الدينية أساسًا لتحقيق التوازن بين الإنسان والطبيعة. في الإسلام، نجدُ

إشــاراتٍ واضحةً تدعو إلى الحفاظ على البيئة ورعاية الموارد الطبيعية، مما يمثل فهمًا عميقًا لأهمية التفاعل الإيجــابي مــع البيئة رغــم أنَّ ذلك العــصر لم يواجه مشــكلات في الاحتباس الحراري والتغــيّر المُناخي كما نواجهها اليوم.

إنَّ التعاليم الإســلامية تشــجّع عــلى الحفاظ على نقاء الهواء والماء والتربة، وتنصُّ على ضرورة استخدام المــوارد بحكمة وعدم الإسراف فيهــا. يقول الله تعالى في القــرآن الكريم: "..وَكُلُوا وَاشْرَبُــوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِــبُّ الْمُسْرِفِينَ" (الأعراف: 31)، مما يدلُّ على أهمية الاعتدال في استخدام الموارد. هذا المفهوم يتجاوز مجرد الإسراف في الاستهلاك ليشمل أيضًا الحدَّ من الاستهلاك المفرط في صيد الحياة البريّة، إذ يُحث المســلمون على التعامل برفق مع الحيوانات والنباتات واستخدام الحد الأدنى الــضروري، مما يعزّز التنوع البيولوجي ويضمن استدامة الأنظمة البيئية.

فتطبيق هــذه المبادئ في حياتنــا اليومية يمكن أن يسهم بشــكل كبير في الحد من التلوث البيئي وتعزيز الاســتدامة. فعــلى ســبيل المثال، يمكــن للمجتمعات الإســلامية أن تتبنى ممارســات مثل إعــادة التدوير، والاقتصــاد الدائري، والاقتصاد الأخــضر، ورفع كفاءة الطاقة، وبنــاء الأبنية الخضراء، والزراعة المســتدامة، واســتخدام مصادر الطاقة المتجــدّدة والنظيفة؛ وكل ذلــك في إطار مــن التعاليم الدينيّة التــي تحثُّ على العمل من أجل صالح الجماعة والبيئة.

لــذا، فمن الــضروري أن يكون لدينا وعــيٌ عميقٌ بأهميــة هذه القيــم الدينية والعمــل على نشرها في المجتمع، إلى جانب الدعوة إلى أركان الإســلام، لأنَّها لا تقلُّ أهميةً عنها بوصفها ضرورية لبقاء الإنســان على هذا الكوكب. وهذا الهــدف يتطلب جهوداً متواصلة من المؤسســات التعليمية والدينية والإعلامية لتثقيف الأفــراد حول كيفيــة دمج المبادئ البيئيــة في حياتهم اليومية.

فعندما نتبنى القيم الإسلاميّة التي تعزّز من الوعي البيئي، إلى جانب التســلّح بالعلم الحديث، نسهم في تحقيق بيئة نظيفة ومســتدامة تحافظ على مواردها للأجيــال القادمة، وتحمي الأجيــال الحالية من المرض والمعاناة. إنَّ الاستدامة ليست مجرد مفهوم علمي، بل هي واجبٌ دينيٌّ وأخلاقيٌّ يتطلب منا العمل والتعاون لتحقيــق التــوازن بــين احتياجات البشريــة وحقوق الطبيعة.

فلنكن فعّالين ومتواضعين في هذا الســياق، بحيث نسعى إلى تعزيز التعاون مع المنظمات البيئية المحلية والدوليــة لتحقيــق أهداف مشــتركة لصالــح كوكبنا المشــترك عبر دمج الثقافة الدينيّة مــع الوعي البيئي المعاصر المســتند إلى العلم الحديث، وهذا من شــأنه أن يمثّل خطــوةً مهمّةً نحو تحقيق تنمية مســتدامة تضمن للإنسانية مستقبلاً أفضل، ولكن بشرط أن يقوم كل فرد بدوره الحيوي، ويتحمل مسؤولية سلامة هذا الكوكب عبر حماية البيئة للمساهمة في بناء عالم أكثر استدامةً لنا ولأبنائنا من بعدنا.

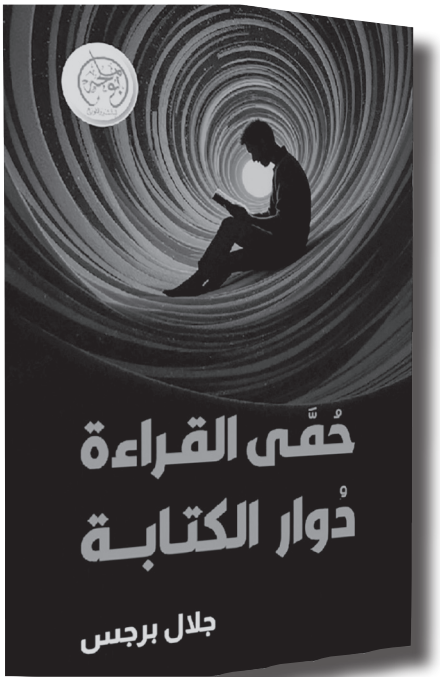

سرُّ القراءة والاقترابُ من الأسئلة

جلال برجس*

سُـئلت مرةً في أحد اللقاءات الإعلامية عن رؤيتي للقراءة، وكيف أفهمها. لم أقل شـيئًا مهمًّا حينهـا، لكنَّني في مسـاء ذلك اليـوم وحين كنتُ أجلـسُ إلى طاولة الكتابة، خطـر ببالي ما قاله (فرانسـيس بيكون): "هناك من لا يستطيع تخيّل العالم بلا طيور، وهناك من لا يتخيل العالم بلا ماء، أمَّا بالنسبة لي، فأنا غير قادر على تخيّل العالم بلا كتب". حقًّا لا أتخيل حياتي بلا تلك الكتب التي أشـعر بأنَّ كلماتها تسـتحيل إلى أيادٍ تختطفني نحو عالم لا يشـبه العالم الذي وجدتني فيه رغمًا عني.

* روائي وشاعر أردني

في تلــك الليلة تذكــرتُ المرة الأولى التي قــرأتُ فيها كتابًــا. كنت آنذاك فتى في الثانية عشر من عمري، أحبُّ المدرسة، لكنَّني لا أحبُّ ذلك الروتين الصارم. ثم أواظب عــلى قراءة كتبي المدرســية، لكنَّني لا أحــبُّ فعل ذلك لأنَّه يــأتي من جهة الخوف من العقــاب. في ذلك العمر كنتُ أشعر رغم فرط حركتي، ونشاطي بين أقراني، بنوعٍ خفيٍّ من الوحدة والملل من عالم القرية الذي تحوَّل مع الزمن هو الآخر إلى روتين ممل، وأحسُّ برغبة غير معلنة لتجاوز حدود عالمي القروي. في تلك الأيام كان للأحداث الجديــدة، والطازجة وقعٌ آسرٌ، حتى عــودة الغائب لها ذلك الوقع. عاد عمي عزيز في إجازة من دراســة الطب في رومانيا، عــاد وبرفقته زوجتــه الأجنبية. خلخل ذلك الحــدث ثقل الروتين القروي، وصار لســكان القرية أمرٌ يتحدثون به، ويتســاءلون حيالــه. لكن الأمر عندي كان مختلفًــا، إذ كنت أتتبع أثر ما وراء حدود القرية عليهما: على لباســهما، وجهيهما، طريقتهما في الكلام، وفي تناول الطعام، وحتى في الجلوس.

في أحد الأيام، وقبيل الغروب، وأنا بمعية أخوتي وأبناء الأعمام نلعب في ظلِّ شجرة (الفلفل). رأيت عمي عزيز هــو وزوجته، يجلســان وبينهما (صينيــة) عليها فنجان قهــوة. التفت نحوي ونادى عــليَّ؛ فأدركت أنَّ لعبنا قد عكّــر صفوهما. جثوت عنده عــلى ركبتيّ بملابسي الرثة، المتســخة أنتظرُ ما ســيقوله لي. نَمت في وجهه ابتســامة هادئة وهــو ينظر إليَّ تارةً، وأخرى نحو باقي رفاقي، ثم همس لي بمزاج فيه شيء من الحدة: اقرأ رواية البؤســاء. ما أتذكره أنّي غادرت إلى البيت حزينًا من وصفنا المستتر بالبؤســاء. ورحتُ أفكــر بما دفعني إليــه. لم أكن حينها أعرف ما معنــى رواية، حتى أنَّني أقرأ كتابًا غير مقرراتي المدرســية. في اليوم التالي سألتُ أستاذ اللغة العربية عما تعنيه مفردة رواية، وردّدت أمامه لأكثر من مرة العنوان الذي ذكره عمــي عزيز، فضحك هو الآخر، وأجابني عن سؤالي، ودلّني على عنوان مكتبة البلدية. كنت أشعر بأنَّ في ذكــر تلك الرواية إهانة لي، دون أن أدري أن ما حدث كان انفراجــة أولى لباب حين تجاوزته أدركت أنَّه أنقذني بجدارة.

كانت أمينة المكتبة العامة، الســيدة ذات الأربعين عامًــا تضحك من فكــرة أنَّني قادمٌ لاســتعارة كتاب. رأيتها تتأملني: شــعري الكث المبعثر، ونحول جسدي، وملابسي الرثّة، وخجلي الطافح، ملامح قروي أدركتْ ألا علاقة له بما جاء لأجله. ودون أن أدفع مقابل الاشتراك في المكتبة أعارتني السيدة الكتاب. ما إن التقطته حتى عجّلــتُ الخطى نحو البيت لأغرق فيه ليومين دون أن أفهم مما يُقال فيــه إلا القليل. كنت أفتش عما يدعم إحساسي بالإهانة، ولم أجد. تغيبت عن المدرسة ليومين متتاليين.

حــين رحت أقــرأ الرواية للمرة الثالثة شــعرتُ بخفة كأنَّنــي عــلى وشــك أن أطــير، كل شيء صــار واضحًــا، شــخصيات الرواية، أماكنها، زمنها، وحكايتها، شعرت بأنَّ (فيكتور هوغو) يجلس قبالتي ويروي لي ما عنده. أتذكر أنَّني انتهيت من القراءة عند غروب الشــمس، فقرعت

باب بيت عمي عزيز، قلت له ووجهه يطل عليَّ باسـمًا: لا أعـرف ما كنت تقصد، لكنَّني أحببت هذا الكتاب. في الحقيقة نسـيت ذلك الشعور الخاطئ بالإهانة، ورحت أحدثه عما قرأت.

غادرت بعد أن قلتُ له ما عندي، وجلسـت بجوار بيتنـا أسـند ظهري إلى جـداره، وأنظـر إلى الأفق وأنا أرى فيه باريـس، ووجوهًا لـ (جان فالجـان، وفانتين، وكوزيـت، وماريـوس)؛ فداهمنـي الحزن لمـا عانياه (فالجـان) و(فانتـين)، وتملكتني البهجة وأنا أسـتعيد مـا بين (كوزيـت) و(ماريوس) من حـبٍّ كبير، ونادر. كنت مرتخيًا، كمن عبر مسـافة طويلـة، وألقى ببدنه يعاني الوهن. لكن لوثة مفاجئة دفعتني لتسلق شجرة الـسرو، أملًا في أن أرى باريس، وكل من رافقوني في أول رحلـة في كون الرواية. صعدتُ بعجالة غير آبه بأغصان كانت تترك في جسدي جراحًا وندوبًا إلى أن وصلت رأس الشـجرة، ولم أرَ إلا قريتـي. يومها بكيـتُ وأنا أهبط؛ شـعرت بالعجز عن تأكيد مـا في مخيلتي بما هو على أرض الواقع.

إذن؛ كانت النتيجـةُ الأولى لتلك القراءة أنّني طردت شعوري بالوحدة، واستطعت أن أتجاوز القرية، استطعت أن أسـافر وأنا في مكاني. ومن يومها أدمنـتُ القراءة، حقًـا أدمنتها، فكلما فرغتُ من كتاب أجدني أهرع لقـراءة كتاب آخر. ثمـة كتب كنت أجد المتعـة تنتظرني عنـد صفحتها الأولى، وثمـة كتب تخلو من هذه الغاية المنشـودة. ثمة كتب تشـعر وأنت تقرأها كأنَّها جبلٌ يربض على كتفك، لكنَّك لا تستطيع أن تهزَّ بدنك لتسقطها، بل تمضي معها إلى قمة الجبل. وكتب تشعر بكامل خفتها، لكنَّها تغرس جذورها عميقًا في روحك. كتب من بينها كما قال (بول سـويني): "ذلك الكتاب الذي إذا شـعرت وأنت تُقلّب صفحته الأخيرة أنّـك فقدت صديقًا عزيزًا، فاعلم حينها أنَّك قد قرأت كتابًا رائعًا".

أين السر، سرُّ القراءة؟ أتساءل: إن كان العطر هو روح الوردة، فالكلمة إذن هي روح كاتبها! فأنت تنصت لتلك

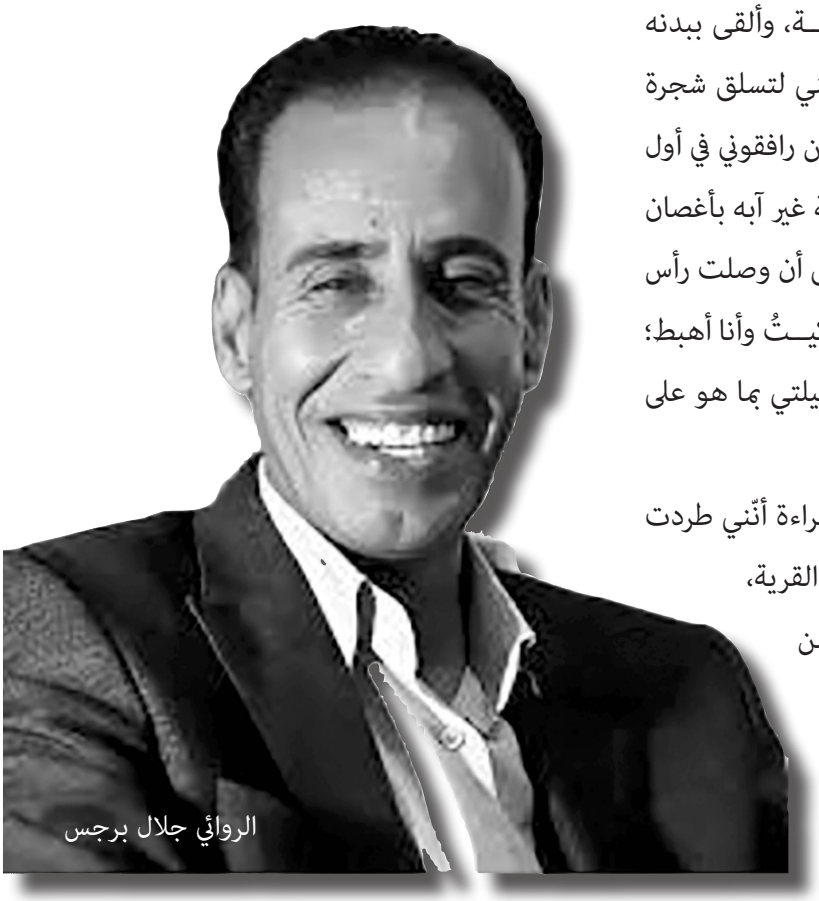
الروائي جلال برجس

الروح التي تتجسد أمام حواسك على هيئة كلمات يربط بينهـا خيطٌ خفيٌّ. وإن لم تكن منصتًا جيدًا لن تسـتطع أن تكون قارئًا جيدًا، فالقراءةُ إنصاتٌ في المرتبة الأولى، أو دعوني أقول إنَّها القـدرة الفائقة على الإنصات العميق. تخيل معي: ثمة كتاب بين يديك، وتؤمن بضرورة معرفة ما فيه. عيناك على السـطر، على الكلمات، دون أن تنتبه إلى أنَّ الكاتـب يتحدث إليك. أنـت لن تنتبه، لأنَّك تقرأ عبر زاويتك لرؤية الكون، ولرؤية نفسك. إنَّه سرُّ القراءة الـذي لا ينتبه إليه معظم القـراء. القراءة التي أعظم ما فيهـا عند الكاتـب أنَّه يتحدث إلى ملايـن البشر الذين وقعـوا في غرام الكتب، في الصباحـات الدافئة، في الليالي الماطرة، في الحدائق، في المقاهي، في الحافلات العمومية، في الطائـرة، يتحدث الكاتب حتى في أحـلام القراء. إنَّه أمـرٌ عظيم، أمرٌ ليس عاديًّا على الإطلاق، أمرٌ يكاد يكون خارج السياق البشري.

إذن؛ القـراءةُ إنصاتٌ عميـقٌ لروح الكاتب، لكن هـل تبقى وأنـت في طريق القـراءة تلـك منصتًا على الـدوام؟ لا. ثمة حوارات جوّانية، وتسـاؤلات، وانطباعـات تحدث، تحدث مـع الكاتب، فالقراءة إنصـاتٌ، وأيضًا حوارٌ هادئ يفضي إلى الفكرة، فكرة مـا تقرأ. وإنَّها كما قـال (إيتالو كالفينـو): " تعني الاقـتراب مـن شيء في اللحظة التي هـو فيها على وشك أن يُخلَق".

حـين أتأملُ رفوف مكتبتـي أجد أنّني أمضي جلَّ وقتي في مسـتودع للأفكار، أفـكار متوافقة، أفكار متضادة، أفكار غريبة، أفكار قادمة من رحم الخيال، أفكار تـضرب في عمق تراب الواقع. إنَّه مسـتودعٌ للحـوار، الذي لولاه لانتهت الحيـاة. تخيلوا الحياة بـلا أدب، بلا كتب، بلا ذلك الشـغف الذي يتملكنا ونحـن في طريقنـا إلى المكتبة، أو معـارض الكتب لاقتنـاء كتاب بعينه. حتمًا سـتكون حياةً بلا معنى وبلا تلك الشـمس التي تُبعد عـن أرواحنا الرطوبة والعفن.

السـؤالُ الذي يطرح نفسه في هذه اللحظة: إلى أي مدى تتشـابه حواراتك مع الكاتب، مع حوارات القراء الآخريـن؟ إلى أي حـد تتقاطع؟. ربما تتشـابه، ولكن ذلـك الانطباع الـذي ينزُّ عن تلك الحـوارات لا يمكن أن يكـون هو ذاته الذي عند قـارئ غيرك، أعتقد أنَّها بصمة القراءة خاصتك، تلك التي شكّلتها مجموعةٌ من العوامل النفسـية، والثقافيـة، والاجتماعية. لن تكون على الإطلاق هي نفسها عند غيرك حتى لو حدث ذلك التقاطع.

حين أقـرأ كتابًا ويعجبني-يعجبني إلى الدرجة التي أتسـاءل: لماذا لم أكن أنا كاتبه-أحـدِّثُ أصدقائي عنه، وأخوضُ في نقاشاتٍ مع من قرأوه، ما أجده أنَّ الصورة التي شـكلوها عن ذلك الكاتب لا تشـبه تلك الصورة التي طُبعـت في ذاكرتي عنه. ثمـة تفاصيل متقاطعة، وثمـة تفاصيل متنافرة، إذ إن كل قارئ يرى الفكرة من زاويته الخاصة التي شـكّلتها مجموعـةٌ من العوامل الثقافيّة، والسيكولوجيّة، والبيولوجيّة.

الروايةُ مرآةُ التحوّلات المجتمعيّة: نماذج تطبيقيّة في الرواية الأردنيّة

مجدي دعيبس*

لطالمـا كانت التحوّلات السياسـيّة والاقتصاديّـة والاجتماعيّة هدفًا لأقلام الروائيـين الذين يبحثون عن مفاصـل مهمّـة في حياة المجتمع للانطلاق منها وبناء حبكة روائيّة تقدّم هذه التغيّرات وما تبعها من تأثير مباشر وغير مباشر على حياة الشخصيّات التي تمثّل شريحةً واسعةً من المجتمع. وفي المقابل، هناك الباحثون الذين يتتبّعون هذه التحوّلات لأنّها تشكّل علاماتٍ بارزةً وحدودًا فاصلة بين ما قبل وما بعد ويخضعونها للدراسة والإحصاء والتمحيص قبل الخروج باستنتاجات وآراء محددة.

الفـرق بين الباحث والروائي أنّ الباحـث يعتمد منهجيّة علميّة معروفة ومراجـع موثوقة وربما يحتاج لتوزيع اسـتبيانات وتحديد العينات المسـتهدفة وتحويل هذه البيانـات إلى معلومات، لكن الروائي يأخذ الظاهـرة ويسـقطها على ذاتية الشـخصيّات ويتعامل معها مـن وجهة نظر فرديّـة أي أنّنا أمام نموذجين مختلفـين: الموضوعية وتقابلها الذاتية، الحقيقة ويقابلها الخيـال المنبثق من الحقيقة. ولكن من يفيد من الآخـر، الروائي يفيد من الباحث أم الباحث من الروائي؟ لا شـك أنَّ الـروائي بحاجة لإجراء بعض الأبحاث والتحضـير والاطلاع على كتب الباحثين في هـذا المجال أو ذاك قبل الشروع بالكتابة، وفي المقابل فإنَّ خيال الروائيين قد يحفّز أدوات الباحثين في اتجاه ما دون آخر.

* روائي وباحث أردني

وقبل المضي قدمًا في هذا الحديث ربما نعرج قليلًا على مفهوم سياسي اقتصادي اجتماعي، وهل يمكن الفصل بينهم بحدود واضحة وبيّنة؟ قد تختلف وجهات النظر في هذا الموضوع وكلها وجهات نظر صحيحة والفيصل بينها هي الزاوية التي ننظر منها للأمر، برأيي هو مفهوم واحد بثلاثة رؤوس (سياسي، اقتصادي، اجتماعي) وليس ثلاثة مفاهيم، بمعنى أنّ لكل منحى تأثير واضح على المنحيين الآخرين بحيث يصعب الفصل بينهم.

وإذا أردنا تسليط المزيد من الضوء هنا فلنفرض أنّ مجتمعًا ما يعيش بحبوحة اقتصادية بعد ضنك؛ فإنَّ مأكله ومشربه وملبسه وبعض سلوكياته وربما عاداته الصغرى ستتغير نتيجة لتغير الوضع الاقتصادي ويتحول على سبيل المثال من مجتمع رعوي متنقل إلى زراعي مستقر وفي مرحلة لاحقة قد يتجه إلى الوظيفة كمصدر للعيش، وربما تكون المرحلة اللاحقة هي التحول إلى الديمقراطية والمجتمع المدني، في حين لو كان هناك مجتمع متشدّد بعد اعتدال فإنَّ محركات النظام الاقتصادي ستتغير بلا شك ومنها شهيّة الشراء والاستهلاك وقد تتحدد النظرة السياسية من زاوية ضيّقة لا تستوعب الجميع.

ما أريد أن أشير إليه في هذه المقاربة أنّ الرواية تنبثق من واقع سياسي اجتماعي اقتصادي ثقافي وتلتحم مع خصوصيّة المكان والزمان وتعاين تأثير كل هذه العناصر على الشخصيّات ضمن حبكة تقدّم رؤية الكاتب للمجتمع والحياة والإنسانية المنقوصة التي ما زالت تتناقص يومًا بعد يوم عند أدنى احتكاك بين المصالح والمذاهب والرؤى.

للتأكيد على وجهة النظر هذه في الأدب، سننظر في عدد محدود من الروايات حتى نجعل الحديث أقل تشعّبًا وتداخلًا وستكون محطتنا الأولى عند (الطريق إلى بلحارث) للراحل جمال ناجي. أُنجزت الرواية في عام 1977 ونشرتها رابطة الكتاب الأردنيين العام 1982، طُبع منها ثماني طبعات وحازت جائزة رابطة الكتاب الأردنيين، وشكّلت منطلقًا للروائي في مسيرته الأدبية. تتحدث الرواية عن تجربة الاغتراب في صحراء الجزيرة العربية في سبعينيات القرن العشرين. عماد ونادية يعيشان في أحد مخيمات اللجوء في عمان يخطّطان للزواج، ونتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة يقرّر عماد السفر للعمل مدرسًا في قرية

نائية في السعودية حيث الظروف المعيشيّة الصعبة مثل طبيعة الجغرافيا والطقس والمجتمع الذي يعيش فيه عماد وغيره من المدرسين الفلسطينيين. والآن دعونا نتوقف هنا ونعود للمثلث ورؤوسه الثلاثة: السياسي هو الاحتلال الذي هجّر شعب من أرضه ووطنه وجعلهم لاجئين في مخيمات مما أدى لصعوبة الأحوال الاقتصادية والمعيشيّة وتضاؤل الفرص ومحدودية الأفق مما اضطرّهم للهجرة والعمل في الخليج في ظروف صعبة وقاسية، وبهذا تصبح رؤوس المثلث: (احتلال وتهجير، ضيق الحال، هجرة لكسب الرزق) ونرى مثل هذا السيناريو في براري الحمّى لإبراهيم نصر الله وهي روايةٌ فيها تقنيات ما بعد حداثية، وتغوص في الاغتراب والتشظي والهذيان. صدرت لأول مرة سنة 1985، وقد اختارتها (جريدة الغارديان) البريطانية كواحدة من أهم عشرة كتب عبّرت عن العالم العربي.

في (سلطانة) غالب هلسا تفاصيل دقيقة لعمان التي بدأت مدنيّتها تأخذ أشكالًا متباينة من المحافظة والتدين والتحرّر والأفكار السياسية الوافدة والمشاكل الاجتماعية وصولًا إلى الحشيش. وفي (زنوج وبدو وفلاحون) و(وديع والقديسة ميلادة وآخرون) نرى مادبا وماعين والمجتمع البدوي الفلاحي والعلاقة بينهما وملامح شخصية كل منهما.

ومن أراد أن يرى عمان الأربعينيّات بكل تفاصيلها المكانيّة والديموغرافية والاقتصادية والدينية والطبيّة والثقافية فعليه ب(سيرة مدينة) لعبد الرحمن منيف، المدارس والتعليم والبيع والشراء وجسور السيل والحوّامات والطائرات الورقيّة والأفندية وأم علي الشرشوحة، والحاووز الكبير وبستان أبو شام والحجة أنيسة والدكتور سوران ومستشفى الطلياني ومستشفى الست العرجا والشيخ صالح البيطار، وراس العين، والمحطة، وجبل القلعة، وعربات الشركس والمهاجرين وغيرها من الأمور التي اختفى معظمها، لأنّ عمان نضجت بسرعة وتركت طفولتها وألعابها في قاع المدينة وتمدّدت غربًا حتى وادي السير وشرقًا حتى ماركا.

وعند النظر في أعمال زياد قاسم مثل (أبناء القلعة) و(الزوبعة) بأجزائها الستة فإنّنا نرى عمان منذ كانت قرية منسية بسيل صغير ومدرج روماني مهمل يواجه معبدًا لهرقل على التلة المقابلة، ونتابع تطورها حتى نمت وكبرت وأصبحت مدينة راشدة سكانها من نسيج وملل مختلفة من بدو وفلاحين وعرب وشركس وشيشان وشوام ونابلسية وتجار وعتّالين وأصحاب مهن أغلبها انقرض بسبب اختلاف الحياة، كلهم تعايشوا مع الوضع الجديد والمدينة التي احتوتهم بدون تمييز.

وفي رواية (ماري روز تعبر مدينة الشمس) لقاسم توفيق الصادرة عام 1985 نرى المجتمع البدوي الزراعي في زمن كليب الغزوان بكل سماته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية يتحوّل إلى مجتمع مديني

في زمن أحمد عبدالله وهيام، ما بين زمانين يفصل بينهما أكثر من ثلاثمئة عام نرى الصراع يتحول من بدوي بدوي أو بدوي فلاحي إلى صراع في مستوى آخر مختلف تمامًا، ونرى علاقة الحب التي تربط أحمد بهيام تتحرك كما أشارت خاتمة الرواية في أفق مختلف عن التقليدي والكلاسيكي.

في رواية (ذيب الصالح) لموسى الأزرعي وهي صادرةٌ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام 1998 بدعم من وزارة الثقافة؛ رصدٌ لحياة الناس في الخمسينيّات في منطقة بني عبيد التي تضمُّ (الحصن، الصريح، النعيمة، إيدون، كتم، شطنا). وقبل الحديث عن التحوّلات ربما من الأجدر أن نتحدث قليلًا عن الثقافة الشعبيّة التي كانت حاضرةً بقوة في ذيب الصالح ونرى منها صورًا ونماذج كثيرة منها الثأر كما في حادثة البدوي الذي ثأر لمقتل جديه، وتقديس المقامات والخرافة والاعتقاد ب(الشيبة والساكونة والرصد...)، ورش الملح على العروسين، كما ظهرت أعراس القرية بتعاليلها وحنّائها وتراويدها.

وفي المقابل نرى بعض التحوّلات التي طرأت على المجتمع مثل التّوجّه نحو التعليم الجامعي في القاهرة والشام وموسكو وصوفيا وبراغ وغيرها من العواصم الأوروبيّة، كما شهدت المرحلة تصاعد الوعي السياسي بين الشباب والانخراط في الأحزاب والتوجه نحو الوظائف في الحكومة والجيش ثم الهجرة إلى الزرقاء ليكونوا قريبين من مكان عملهم في المعسكرات على حسب القول الدارج عند الفلاحين (المكان القريب إذا ما بغنيك بريحك). كما ازداد عدد أجهزة الراديو في القرية لسماع أخبار صوت العرب ومحطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية. ولم تعُد القرية كيانًا معزولًا فازداد وعي الناس وتفاعلوا مع الأحداث وعلّقوا صور عبد الناصر في البيوت والدكاكين بعد العدوان الثلاثي وتنامى الحسُّ الوطني والقومي. ومن جهة أخرى أُنيرت شوارع وساحات القرية من خلال الفوانيس المعلقة، وكان هذا حدثًا مهمًّا وإن بدا بسيطًا هامشيًّا. كما أشارت الرواية إلى موفد وإفراز أراضي القرية وغيرها من الأحداث التي مسّت حياة الناس.

هذا من حيث التسجيل والنقل والموضوعات التي طرحتها الرواية استجابة لكل هذا التغيرات التي طرأت على المجتمع، لكن ماذا عن الاستجابة الفنيّة، ماذا قدّمت الرواية في هذا الخصوص؟ تعليقًا على هذا السؤال سننظر في تجربة غالب هلسا في (الخماسين)، ولكن قبل هذا يحضرني رأي لمؤنس الرزاز نقله لي أحد الأصدقاء (وأنا هنا أنقل المعنى وليس الكلمات بحذافيرها): كيف يمكن أن نكتب عن كل هذه المرارة وهذه التناقضات التي نعيشها بأسلوب واقعي.

من الواضح في (الخماسين) وغيرها من أعماله تأثر غالب بتيار الوعي وروايات(وليام فوكنر وفرجينيا وولف وجيمس جويس..) من خلال التداعي

وانثيــال الأفكار وتدفقهــا في حالة من تعرية الذات والكشــف الطوعي عــن الهواجــس والقلق والأمل والخــوف والحب واليأس، وهــذا دليلٌ على مواكبة غالــب للتيــارات الأدبيــة في الروايــة العالمية واطلاعه عليها في فــترة مبكرة من حياته ليجد نفسه قريبًا من هذا النوع من الكتابة والمكاشفة مقرونًا بلغته الخاصــة وثقافته وشــخصيته وفكره.

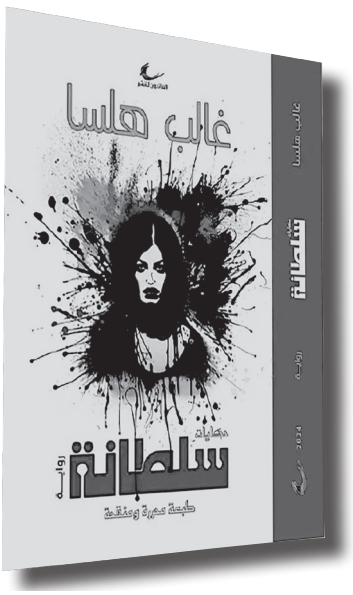

هــي روايــةٌ في سردٍ ما بعد الحداثة تعتمد على تقنيات من الأحلام وتيــار الوعي واختلاط الحلــم بالحقيقــة والاســتباق والاســترجاع وتحييــد الحكاية المركزيــة وتشــظية الحــدث، والتركيز عــلى الذات ومكابدتها وشعورها بالقلق والعدمية. ظلّت أجواء (الخماســين) على مدار الرواية سببًا للضيق وانسداد الأفق والسوداويّة والشعور المر بالاكتئاب، ولم يكن هــذا التأفّــف من غبار الخماســين ســوى انعكاس لشــعور غالــب (بطــل الرواية) بالاغــتراب النفسي والفكري وحنينه إلى الماضي النقي والشــفاف، وربما هو شعورٌ خفيٌّ بالهزيمة الداخلية لأنَّه لم يجد ما كان يبحــث عنه، ونلمس هذا الأمــر في تذبذب علاقاته مع النســاء وتعددها. وبلا شــك فإنَّ تبعات نكسة حزيران ظهرت في إشــاراتٍ سريعةٍ هنا وهناك مثل ما ورد في أفــكار غالب: "ذو العين الواحدة يطاردني من زمن: علينا ألا نجعل العرب ينســون ليوم واحد ما حدث. ســوف نجعل كابوسه يجثم على قلوبهــم"، ولكن ثقل الهزيمــة لم يكن المحــرك الوحيد لهذه القتامــة، بل هي مجموعة من الظــروف الخارجيــة (المزاج العام) والداخلية (النفسية) أدت إلى هذا الإحســاس الخماســيني الكئيــب. ومــن الواضــح تعمّد غالــب تــرك البــاب مواربًا فيما يتعلق برمزية العنوان ليؤكّد مرةً أخرى أنَّ العمل الذي يقتصر على تأويــل واحد أصبح مــن الماضي؛ فالكاتب ينثر الإشارات في النص والقارئ يلتقط منها ما تســعفه لذلك ثقافته وذائقته ومدى اجتهاده في البحث والتنقيب.

في الختــام نؤكّــد أنَّ الرواية مــرآة للتحوّلات المجتمعيّــة فالــروائي جــزءٌ من منظومــة قيميّة وثقافيّة ومعرفيّة وإنســانيّة، وهو بالضرورة يعبّر من خــلال الكتابة عن معطيــات هذه المنظومة ومخرجاتها، ينطلق مــن تجربته ورؤيته الخاصة بــه لهذا الواقع حتى لو لم تنتــمِ كتابته للواقعيّة كمذهبٍ أدبيّ.

الفنّيُّ والجماليُّ في رواية محمد برادة؛ (بعيداً عن الضوضاء قريباً من السُّكات)

زكية المجذوب*

تنبأ الناقدُ الروائيُّ محمد برادة في حديثه عن مستقبل الرواية العربية بتطوّرها الذي شهده مسارها مع تطوّر المناهج النقدية المقاربة لها، وذلك من خلال كتبه النقدية المتعددة التي نظَّر فيها للرواية: "أسئلة الرواية وأسئلة النقد"، "الرواية العربية ورهان التجديد". وهو يرى أنَّ الإمساك بمحدّدات مستقبل الرواية العربية بناءً على كون الرواية ذاكرةً للمستقبل، يتطلّب استيعاب منجزاتها ضمن نظريات الرواية، والتطوّرات التي عرفها النقد الروائي مع ظهور المناهج النقدية المتأثرة بالفورة اللسانية التي وجهت النظر النقدي صوب البنيات الداخلية للنصوص.

* كاتبة وناقدة مغربية

فالروايةُ المغربيّةُ شــهدت ظروفاً ثقافية وسياسية إلى جانــب نظيراتها العربية، إضافــةً إلى تلك المرحلة الصعبة التي جسّدت صدمة الحداثة، وما ولدته من حالات القلق والصراع وتشــظّي الهُوية العربية التي أصرت على التحول المســتمر، وتفجير الذاكــرة الثقافية المخزنــة عبر التاريخ، وإحــداث ثورة عارمــة في مختلف مســتوياتها ضد كتابة تقليديــة تحاول تكريــس مفاهيمها وأنســاقها المتحجرة ورفض كل أشكال الوعي بالكتابة والتجديد والحداثة[1].

كانت البدايةُ متمركزةً على البعد السيرذاتي الذي شكّل لبنةً أساسيةً في بداية التشــكّل والتكون "لذلك عدَّ الناقد عبد الحميــد عقار هذه المرحلة التي ظهرت فيها نصوص مثــل "الزاويــة" 1942 للتهامــي الــوزاني و"في الطفولة" 1957 لعبد المجيد بن جلون و"سبعة أبواب" 1965 لعبد الكريم غلاب، شــبيهة بتلك التي وصفها (هيجل) بالنسبة للقرن التاسع عشر بمرحلة المرور من الشعر إلى النثر، ومن الجاد للهزلي، ومن الملحمة إلى الرواية»[2]

كما أنَّ الرواية المغربية شــهدت في بدايتها تحولاً بطيئاً ضمن صيرورتهــا التراكمية فقد "شــهدت العقود الأربعة الأولى منذ صدور "الزاوية" للتهامي الوزاني عام 1942 إلى تاريــخ صدور "الأفعى والبحر" لمحمد زفزاف عام 1979، ظهــور نصوص روائيــة تراوحت بين النــص الواحد خلال الســنة الواحدة، وســتة نصوص كأقصى عدد صدر عامي 1972 و1978" [3]

جديــرٌ بالذكــر، "أنَّ الرواية المغربية شــهدت تطوراً ملحوظاً بعد صــدور الروايات المبكرة التي أعقبت رواية "في الطفولــة" لعبــد المجيــد بنجلون، وســيكون المجرى "الواقعــي" مفتوحــاً أمام كل الأعــمال الروائية القادمة، ولعــلَّ المقدمات المشرقية جعلت من هذه الاســتراتيجية غــير مفاجئــة ولا غريبة ضمــن الفضاء السوســيوثقافي المغربي" [4].

وتُعــدُّ رواية "غربة" لعبد الله العروي نموذج تحوّل في الكتابة الروائية بالمغرب، ذلك لأنَّ "الرواية المغربية خلال هذه الفترة لم تكن متقيدة بالمضمون الوطني والســياسي والاجتماعي فحسب، بل كانت تنفتح على مغامرة الرواية العربيــة والعالمية والكيفية التي يتصور بها الكاتب فنَّها. ذلك أنَّ جوهر الرواية بوصفها نوعاً سرديّاً مختلفاً ومتميزاً يكمــن في نهوضها على الفعاليــة التخيلية التي لا ضفاف لها ولا تخوم. تُرَحِّل الحاضر إلى الماضي، وتُلبس الماضي زي الحاضر، وتستنبت أمكنة لم تُرَ، وتختزل الأمكنة المتعددة إلى مكان وحيد، وتلهو بأسماء المدن وتعبث بأسماء البشر. وقــد تخلط بين الحكاية والأحجية، أو تترك الحكاية عاريةً وقد كستها لغة خادعة". [5]

وذلك يُعزى لتعدّد الروافد الثقافية، والمراجع المعتمدة للروائيين المغاربة، سواء أكانت مشرقية أم غربية، وذلك ما أفرز لنا تعدّد النصوص واختلافاتها الفنية والشكلية فأسهم في تشــكيل سيرورة تراكمية للرواية المغربية المنفتحة على مختلــف الروافد والاتجاهات، فزاد مــن تعميق المثاقفة والترجمــة التي شــهدتها تلك المرحلــة، فعُــدَّت الرواية الجنس الأدبي المميز من حيث التعبير عن التجربة المعيشة بمعناها الواسع، لا يعود ذلك إلى تعدّد كتابها أو قرّائها بل أيضــاً تحوّلها إلى موضوع للنقاش والجدال بين الدارســين، بوصفها ممارســةً إبداعية، تــتراءى فيها وتتجــلّى الهُوية الفردية والجماعية، ولعلَّ هــذا من أبرز العوامل الداعية إلى ضرورة التفكير في أســئلتها وتحولاتها على المســتويين الشكل والمضمون.

ويمكن عزو التحوّل الكبير الذي شهدته الكتابة الروائية عامةً أساساً إلى التحوّل في الوعي بالكتابة تنظيراً وتطبيقاً، ذلك بوصفها أكثر المجالات تمثيلاً لحياة الإنسان وهواجسه النفسية والاجتماعية، وأيضاً أكثر قدرة على محاورة نصوص عديدة ومجالات متعــددة من المعرفة واللغات، وهذا ما

يجعلها فنّاً متميزاً على مرِّ العصور، فهي كما اعتبرها الناقد محمــود أمين العالم "بنية زمنيــة متخيلة خاصة.(...)هي تاريــخ متخيل داخل التاريــخ الموضوعي. قد يكون هذا التاريخ المتخيل تاريخــاً جزئيّاً أو عاماً، ذاتيّاً أو مجتمعيّاً، وقد يكون تاريخاً لشــخص أو لحدث أو لموقف أو لخبرة، أو لجماعة، أو للحظة تحول اجتماعي" [6]. وهذا ما يدفع بنا لتناول تجربة محمد برادة من حيث هو روائيٌّ.

محمد برادة روائيّاً

شــكّلت تجربة محمد برادة الروائيّة خير تمثيل وتعبير عن هــذه المرحلة الجديــدة، وتحول الوعــي في الكتابة الروائية، فهي تعتمد على هدم البنى السابقة واستبدالها ببنى جديــدة، مرتبطة باللغة أساســاً، ومواكبة لمتغيرات العصر والإنســان والحياة عامةً. ونتوقف في هذا البحث إزاء روايتــه (بعيداً عــن الضوضاء قريباً من السُّــكات) الصادرة ببيروت 2014.

الروائي المغربي محمد برادة

تسريدُ الحكي

يقــف القارئُ في رواية "بعيدًا عن الضوضاء قريبًا من الســكات" لمحمد برادة على تقســيم الروايــة إلى أربعة فصول مركزية، مع تسمية كل فصل باسم شخصية رئيسة يتمحور حولها سردُ الأحداث وتشــعباتها المتداخلة، لعلَّ أول فصل خصّصه الكاتب لشخصية الراجحي الذي ولد عــام 1975، حاز شــهادة في التاريخ، وعانى مــن البطالة معاناةً مريرةً، بعد ذلك عمل مســاعداً للأستاذ الرحماني، المؤرخ الذي يحاول إنجاز دراســة كبيرة عن تاريخ المغرب قبل الاســتقلال وبعــده، وقد كلفه باســتطلاع الآراء عن تلك الفترة، وتسجيل الوقائع مما يتذكره الأشخاص الذين عايشــوها. من خلال عمله هذا واختلاطه بطبقة خاصة مــن المجتمع، تولدت لديه فكــرة كتابة رواية تروى فيها أحــداث تلك الفترة، تحــدث الراجحي عن نفســه وعن علاقتــه بباقي الشــخصيات، مع إبراز علاقتــه بمحبوبته يقــول:" كنت أتحــاشى في أثنــاء لقاءاتنا الأســبوعية أن أحدثها عن مشــكلاتي، بل أبدو هادئاً، متماســكاً، مهتمّاً بتحضــير أطروحة الســلك الثالث(دكتــوراة) عن (علاقة العلماء بالســلطان المولى إســماعيل)" [7]. تبرز شــخصية الراجحي الطموحة في العمل والاشتغال وتحقيق أهدافها، إذ اســتغل فترة عمله مع المؤرخ الأســتاذ الرحماني الذي كلفه أيضــاً ببحث ميداني عن تاريــخ المغرب خلال فترة الاستعمار وبعده.

وقد عمــد الكاتب من خلال روايته إلى تسريد الحكي، والتخلّص من الذات الســاردة وإعطاء الشخصيات مهمة السرد عن نفسها بكل حرية، وتحريك أحداث الرواية دون تدخل منه.

أمَّــا الفصل الثــاني فقد خصّصــه الكاتبُ لأحــد الأشــخاص الثلاثة الذيــن اختارهم المؤلف الشــاب (الراجحــي) لبناء روايته،

وهــو توفيــق الصادقــي، المولــود عــام 1931، ويصفه بالمخضرم الطموح، إذ يتحمل مسؤولية العائلة بعد وفاة والــده، فيعمل موظفاً في مصلحــة الضرائب ثم محامياً. توثّق ذاكرته اللحظات السياسية المهمّة في حياة المغرب في فترة ما بعد الاستقلال. وقسَّم الفصل إلى مشاهد وفق محطــات تاريخيّة في حياة شــخصية توفيــق الصادقي. فتنــاوب على السرد كل من الراجحي وشــخصية توفيق الصادقي، فصوّر هذا الأخير المرحلة الانتقالية التي عرفها المغرب والأحداث التي شــهدتها تلك الفترة من المقاومة الوطنيــة ضــدَّ المســتعمر، وفــترة الحمايــة، والأحداث الداخلية الســاخنة التي عرفها المغرب بعد الاســتقلال، ويُرجع توفيق الصادقي أســباب الانتكاســة السياســية الكبيرة إلى ذلك الصراع القائم بين النظام الحاكم وأتباعه المتخمين من جهــة، وبين الثوريين وقــوى المعارضة من جهة أخرى.

أمَّا الشخصية الثالثة الرئيسة التي تحرك أحداث الرواية فهي شخصيةُ المحامي "فالح الحمزاوي": وهو من مواليد عــام 1956، يعيــد سرد ذكرياتــه أو رؤيتــه الخاصة عن أزمنة الرصــاص، ويتطرق خلالها إلى دور أحزاب المعارضة في الحياة السياســية المغربية، ومشــاركتها في حكومة غير متجانســة، والتحولات التــي طرأت على طبيعــة النظام الحاكم أواخــر القرن الماضي، ومطلع هــذا القرن، وحتى صعود التيارات السياسية الدينية في انتخابات عام 2011.

نبيهة سمعان

تحضُر المــرأة المثقفة التي تولــت إدارة مجرى السرد، في شــخصية الطبيبة النفســية الجريئة "نبيهة ســمعان" التي ولدت عام 1956، تشــبعت بفكــر التحرّر في رحاب الجامعة، وفي أثناء دراســتها في فرنسا وقصصها العاطفية المتعــدّدة، ثــم عودتهــا إلى المغــرب وتأسيســها صالوناً فكريّاً اجتماعيّاً. تطرح الطبيبــة قضايا فكرية واجتماعيّة وإنســانيّة ملحّة، وتقوم بتحليلها سرديّاً، أو حواريّاً، خلال اللقــاءات في صالونها، مثل موضوعــات: الهُوية الفردية، والتقاليــد الموروثة، وحقوق المــرأة، ووضعها في المجتمع، إضافةً إلى القضايا النسوية الأخرى، علاوةً على أنَّها بحكم اختصاصها تســلّط الضوء على جوانب، ومشكلات نفسية أخــذت تنتشر، وتؤثــر على تركيبة شــخصية الفرد، وعلى بنية المجتمــع، كانت امرأةً ثائرةً عــلى الأعراف والتقاليد الســائدة التي تفرض على المرأة، فهي المحلّلة النفســية التي اســتطاعت بالتحليل النفسي أن تكشف عن بواطن النفس البشرية، وتعقيداتها. ليست هذه الشخصية حاملةً لقضية المرأة من حيث هي فكرة فحســب، بل ممارســةً عملية للتحــرر من القيود المجتمعية، ولعلَّ المحيط الذي نشــأت فيه أســهم إلى حدٍّ كبير في تشكيل رؤيتها للوُجود وللعالم ولنفسها بصفتها امرأةً داخل عوالم الرجولة.

تقول نبيهة ســمعان في هذا الســياق:" قبل كل شيء: أُصارحــك أنَّنــي منــذ المراهقــة كان لدي رفــض جارف ل"الانحبــاس الهُوياتي" وفق ما يمكــن أن أعبر عنه بلغة اليوم. كان أبي موسراً وأمّي متعلمة عصرية، مرتاحة داخل جلدها، وحين اكتشــفتُ العوالم التي تفتح نوافذها اللغة الفرنســية اســتولت عليّ رغبة جنونية في أن أصير غيري. ليــس بمجرد تمثيــل لطرائق عيش الأجانــب بل الرغبة في أن أكسر الحواجز، وأوهم النفس أنّني أنتمي إلى شســاعة الدنيا، وأحلّق في الأجواء اللامحدودة". [8]

ضدَّ الموروث

لقــد خلّف الاســتعمار وراءه مخلفاتــه الإيديولوجية سياســيّاً واجتماعيّــاً وثقافيّاً فيما عُــرف بصدمة الحداثة وطرق العيش الحداثية، وقد شــكّلت قضية المرأة جزءاً لا يتجزأ من هذه الصدمة لدى الذين عاشــوا فترة في فرنسا

وتشبعوا بثقافتها وطرق عيش شعبها خاصةً، وما نبيهة سمعان إلا تجسيد لذلك. فإذا كنا مع فالح الحمزاوي عشنا النضال السياسي كأداة للتغيير فإنَّ أداة نبيهة سمعان للتغيير تكمن في النضال ضدَّ الموروث والوصاية وضدَّ التقاليد والأعراف؛ فكان منظورها ثقافيّاً لا سياسيّاً، تقول في ذلك: "إلا أنَّني لم أكن أحسُّ أنَّ الالتزام السياسي هو ما سيستجيب لتطلعاتي إلى تغيير المُجتمع. كنت أستشعر ثقل الموروث وفخامة المعوقات المتغلغلة في عمق النسيج الاجتماعي والسلوكي، من ثم أقَلّب باحثةً عن قراءات موسعة في علم النفس ونظريات (سيغموند فرويد) مقتنعةً أنَّ هذا هو المدخل لاستجلاء الغوامض التي طالما حيرتني، وأنا أعيش مراهقتي، ومطلع شبابي، باحثةً عن نموذج يتناغم مع الأحلام التي هدهدت فترة اكتشاف.. وسحر المعرفة وتجربة الثَبات". [9]

مع كل شخصية نقرأ سرداً لمسيرة التحوّل في المجتمع المغربي في تلك الفترة، من خلال سرد سجلها الذاتي، ورؤيتها لأوجاع المغرب وآماله وعاداته وتقاليده وطقوسه الاجتماعية، مما يجعلنا أمام شخصيات روائية جامعة لكل الوجوه والرؤى، لا سيّما وأنَّ جميع تلك الشخصيات ترتبط بقواسم مشتركة، وإن كانت كل منها تتحدث عن ذاتها في إطار متداخل بين العام والخاص.

التجنيسُ والتهجينُ

يقود البحثُ التجريبيُّ الدائم، والمتواصل، لدى الكاتب محمد برادة "إلى تجاوز الأشكال المستهلكة والعقيمة، وإلى تجريب أدوات جديدة، وخلق أشكال حية، مما يمنعه من العمل وسط المجانية واللامسؤولية، ومن استنفاد الجهد في توخي "أشكال جميلة"، أي أشكال تتفق مع مقاييس جمالية مقرّرة سلفاً، إنَّه يستحثه على التماس الفاعلية وحدها: فاعلية تلك الحركة التي بوساطتها ينكشف الواقع الخفي ويتشكّل". [10]

تميزت رواية "بعيدًا عن الضوضاء قريبًا من السكات" بالتهجين اللغوي الذي يحتضن خطابات متعدّدة من زجل وأشعار يقول السارد:

"ربيعة يا ربيعة حلّي لي باب الدار
النهار طلع عليّا وأنا راسي عَرْيان"

إضافةً إلى هذين البيتين وردت أبيات تراثية لعبد الرحمن المجذوب، يقول فيها:

"عيَّطت عيطة حنينة
فيَّقْتْ من كان نايـــــمْ"
"ناضوا قلوبِ المحنِّة
ورَقَّدوا قلوب البَهايم"

ومقترباً من اللغة الراهنة، واليومية مرةً، كالحديث عن التطرف والمتطرفين وما رافقها من رسومات كاريكاتورية والهروب إلى اللغة الخاصة أحياناً، كالحديث عن التجربة الغرامية في قصص نبيهة سمعان وفالح الحمزاوي، إذ تدفع المتلقي للفضول والتشبث بالنص بوصفه سرداً روائيّاً، يقوم على صور متقطعة ظاهريّاً ومتصلة جوهريّاً؛ إن كان على مستوى البناء الروائي، أو على مستوى الوعي الاجتماعي، أو على مستوى تكامل التجربة.

كما نجد أيضاً توظيف أشعار إنجليزية مترجمة: "الورود انبثقت حيث لم تكن سوى الأشواك وعلى الأرض البوار الماحلة يغني النخل طريق الشطط التي تقود إلى قصر الحكمة". [11]

لن نجد الزجل والشعر وحدهما، بل توظيف بعض المقاطع من الأغاني إما المشرقية أو المغربية. فمن الأغنية المشرقية نستحضر "أروح لمين؟ وأقول يامين ينصفني منك؟" لأم كلثوم، ثم مقطع من الأغنية الغربية بعنوان "ملاك صغير أسود" أدرج مقطعاً منها في الصفحة 157. والأغنية المغربية حاضرة في الرواية بمقطع للحاجة الحمدوية:

"قـالـــوا لي دِرْتي وأنا شي ما دِرْتـو
وحق ربّي المعبود صاحْبي لا فرَّقْتو".[12]

صفــوةُ القول هي أنَّ الكاتب مــن خلال روايته هذه عمــل على تنويــع خيوطــه السردية، وإضــاءة الأحداث المروية من جوانب مختلفة، واســتدعاء القارئ وتشويقه لمحكيات الرواية وعوالمها التاريخية المستوحاة من الواقع. كانت الشخصيات الثلاث التي اختارها محمد برادة وثائق تاريخية قبل أن تكون شــخوصاً روائية، تتحدث بالتاريخ وتحولاته وصراعاته وتناقضاته في ظلِّ الصراعات السياسية في حقبتي الحمايــة وما بعد الاســتقلال، وبين الصراعات الثقافيّة النفسيّة وقضايا المرأة في بعدها النضالي والتطلّعي لتغيير الواقع، وتحرير المرأة من القيود التي فُرضت عليها.

عــلى أنّ مــا يلفت النظــر في رواية محمد بــرادة هو التأشــير على كتابة روائية مختلفة في خلاصها من أنســاق الكتابــة التقليدية الاختزالية في نظرتهــا للواقع، مما يتيح للكاتب أن يسرد من خلالهــا الكثير من الأفكار والعيّنات التي تسعف على بناء الدلالة، وتمنح الأبطال مكاناً مركزيّاً في الحكاية، تقف خلف ابتداع صور ذهنية عن أشكال من التمرد والمقاومة والرفض لكل انتماء.

عــدا عن أنَّ شــخصيات محمــد برادة - وهي تشــقُّ مســاراتها في رحلة حياة متعددة الــدروب والاتجاهات، بحثــاً عن مــكان للحرية يخلصها مــن الرقابة والاحتباس الصعــب بالاقتــلاع - نجد الرغبــة في الحركة هي هاجس الشخصيات في كل روايته، وبحثها المستمر للتطلع إلى الغد المــشرق. وهذا ليس بغريب فقد عُرف الكاتب بجرأته في طــرح الموضوعات الاجتماعية المعقــدة متجاوزاً الحواجز كاشــفاً عن حقائق التاريخ المغربي بحقبتي الاستعمار وما بعد الاستقلال لتكون الرواية مجالاً فكريّاً خصباً لمسارات التأويل اللانهائية.

الإحـــالات:

(1) إدريس الخضراوي، الكتابة النقدية عند محمد برادة، ص 298
(2) الرواية المغربية، الواقع والتجريب، حوار مع الأســتاذ عبد الحميد عقار، ص11، نقلاً عن إدريس الخضراوي، تخيل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة، إفريقيا الشرق، 2017، ص48
(3) عبد الرحيم العلام، الرواية المغربية من التأسيس إلى الامتداد، بيبليوغرافيا، 1942، 1999، منشــورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط 2000 ، ص5.
(4) محمد أمنصور، استراجيات التجريب في الرواية المغربية المعاصرة، مرجع سابق ص، 39
(5) فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، منشــورات اتحاد كتاب المغرب، 1993،ص47، نقلاً عن إدريس الخضراوي، تخيل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 54
(6) محمــود أمين العالم، الرواية بين زمنيتها وزمنها، مقاربة مبدئية عامة، مجلة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، ربيع 1993، ص13
(7) محمد برادة، قريباً من السكات بعيداً من الضوضاء، دار الآداب، بيروت، 2014، ص ص-9 10
(8) المصدر السابق، ص155
(9) السابق، ص 160
(10) ناتالي ســاروت، الان روب غرييه، الرواية الجديدة والواقع، تر: رشــيد بنحدو، وزارة الثقافة والرياضة، مجلة الدوحة العدد 134، 2018، ص23.
(11) محمد برادة، قريباً من السكات، ص 146
(12) المصدر السابق، ص 156

من مقاهي بغداد التراثية

الكتابةُ وجماعاتُ المدن الثقافيّة

علي الفواز*

ما يحدث في المتن السـياسيّ يكشـف عمّا هو مقموعٌ في الهامش الثقافي، وعلى نحـو يؤكّد بقاء المتن مركزًا، والهامش تابعًا، وربما خاضعًا إلى السياسـات التي تصنعها الجماعات السياسـية والحزبية، التي تؤمن أنَّ قوة السـياسي تكمن في قوة "السـلطة" وفي "رأس المال"، في الوقت الذي تظلُّ قوى الهامش الثقافي تمارس وجودها عبر اسـتعاراتها ومجازها وأقنعتها، وشغفها بالتماهي مع سرديات "الحلم الثوري" و"الحرية" أو من خلال ما تصنعه اللغة من خطاب، يقترح وجوده وأسئلته، عبر التفكير والتخيّل والإخفاء، أو من خلال ما تصنعه الكتابة من أثر، أو من "مركزيات موازية" ما زال الشـعر من أكثر تبدياتها سـحرًا وإغواءً، مثلما جعلت للرواية وجودًا متعاليًا من خلال سرديات الحكي، والسـيرة، أو من خلال علاقتها ب" المتخيل السردي" الذي يصنع وجوده عبر التمرد على التاريخ، أو للاقتصاص منه، أو من السلطة والطبقة والجماعة..

* كاتب وباحث عراقي

حركــة الروّاد في الشــعر العراقي أو في القصة هي حركــة "الهامــش الثقافي" الذي اصطنــع وجوده من خلال "المدينــة الثقافية" التي أعطــت لهذا الهامش قوّةً في المكان والهُويــة، وفي تمثيل الجماعة الثقافية، إذ تحوّلت مقاهيهــا وحاناتها وصحفها وأرصفتها إلى أمكنة موازية، لحياة تتقوض فيها رتابة المتن السياسي، مقابل ضجيج الهامش الباحث عن المغاير والمختلف، وربما عن وهم بطولة ما، أو عن معارضة أو رافضة أو حالمة، فكانت الكتابة الجديدة نوعًا من تمثيل التعالي، والجــدّة، والاختلاف، وربما كانت وجهًــا آخر لكتابة ســيرة المثقف وهو يشــتبك مع المكان والإيديولوجيا والوعي، وأحســب أنَّ روايات مثل " خمسة أصوات، النخلــة والجيران، شــقة في شــارع أبي نواس، شــارع الأميرات، ضجة في ذلك الزقاق" تكشــف عن إشكاليّة علاقة "البطل الثقافي" بالمكان المديني، وبكل تحدياته الوجودية والطبقية والسياسية..

أنمــوذج "البطل الثقــافيّ" وجد في المقهى شــغفه الوجــودي، ولذته في تمثيل إشــباعاته النفســية، وفي تمثيل "أصواته المتعددة والمختلفة" لا ســيّما في تمثيل أجوائه النفسية وأحلامه وشغفه بالتمرد والثورة، كما وجد في المــكان الثقافي مثل الجريــدة والمقر الحزبي إحساسًا بتمثيل أســئلة "الذات الثقافية" وهي تضجُّ بوجودهــا واغترابها، كما في رواية "خمســة أصوات" التــي تحوّلــت إلى بؤرة سردية يشــتبك فيهــا الحلم الثوري، بتوتر السجّال والجدل، حيث الانغمار بالحلم والخــواء والإيديولوجيا، تقابلــه مواجهة صاخبة مع الحلم الثوري اليوتوبي مــن خلال المكوث الضدي في أمكنة تجمع بين الدوستوبيا والطهرانية، مثل السجن كما في سرديات جمعة اللامي، والحانة والهور...

شعريّةُ المدينة والتمرد..

حملــت شــعريّةُ الريــادة معها خرقًــا للمألوف، والإحساس بأنَّ المدينة هي المكان الاجتماعي والنفسي والســياسي المُحرّض على ذلك الخرق، فالسياب الذي خــرج مــن الأيديولوجيا عاجــزًا، لم يجــد ذاته إلا في مغامرة صناعة السؤال الوجودي، عبر الهامش الثقافي، وعبر ما يستدعيه من حساســية متعالية، ومن رغبة بالكتابة الجديدة، والتمرد على متن "شعرية البداوة"، وعبــد الوهــاب البياتي خــرج من أحــلام الرومانسي الشــيوعي، ليجد حريته الواعية في المكان الصاخب، وفي التمرد على اللغة، وعــلى تاريخ القصيدة، وحتى نازك المسكونة بوهم الحلم القومي لم تجد إلا الجدّة الشــعرية تمثيلاً لأصوات أنوثتها المكبوتة، ولتســكين وجودها المضطرب داخل القصيدة الهامسة بالتمرد، فــكان التعالي خيارًا لمواجهة وعــي مأزوم، ولحرية لم يكتمل وجودها، إلا عبر اللغة التي لم تُتح للشعراء أن يكونوا خارج بلاغتها بالتمام والكمال..

القصيدة الجديدة ابنة تلك المدينة المتحولة، وابنة "جامعاتها" ففي عوالمها كان الاحتكاك بالعالم ينعكس عــلى الاشــتباك باللغة، مثلــما كان الوعــي الثوري، الماركسي بشكل خاص أكثر تهييجًا للخروج من الزمن الشــعري الرتيب إلى زمن آخر أكثر صخبًا، ومن جسد الشاعر الأب المتعالي إلى جسد الشاعر الصعلوك..

الصخــب في التحوّل الشــعري، لا يشــبه كثيرًا ما حدث في "السرديــة العراقية" فريادة القصة ارتبطت بالبرجوازية العراقيــة، وحمولتها النقدية الواقعية، لم

تكن بعيـدة عن ما حملت الأيديولوجيا الثورية، من نقد للواقع والسـلطة، ومظاهر الفقر التي يعيشـها الهامش الاجتماعي، فبـدت بروحها المتوهجة أقرب إلى سرديـات كتّـاب البرجوازيـة الواقعيـة في العالم "غوغول وموباسـان وبلزاك وتشـيخوف..."، فهؤلاء جعلوا من القاص العراقي مسـكونًا بشعرية واقعية، وبحساسية أن تكون اللغة حافلة بالمفارقة، وبالاتجاه الـذي أعطـى للقصـة خيـاراتٍ متعـددة، توزعت بين الكتابـة الرمزية، وبين الحمـولات الأيديولوجية والنفسية، إذ تحوّلت رؤية القاص إلى مجسّ، لتلمّس الواقع، ولتعرية صراعاته المقموعة، ولكشف توحش المدينـة، عبر معاناة شـخصيات الهامـش المديني/ الأضحوي – البغي، الفقيرة، المريضة- أو عبر شخصية المثقف الحـالم والمأزوم والثـوري والعاجـز غراميًا، وأحسـب أنَّ ما كتبه عبد الملك نوري، وفؤاد التكرلي، وغائب طعمة فرمان، ونزار سليم، ومحمد روزنامجي وغيرهم كانت تذهب باتجاه التمرد على متن المدينة السـياسي والطبقـي، واسـتعادة الوجـود من خلال تمثيل عوالم تلك الحيوات القلقة، وأزمات شخصياتها النفسية والسياسية...

بيروت وخرق المألوف الشعري

في المقابـل نجد أنَّ ثقافوية "مدينة ضاجة بالحلم والترف مثل بـيروت" كانت أكثر صخبًا في التعبير عن مشروعهـا المديني، وعـن مفارقات مـا تصنعه من سرديـات حول الحريـة واللغة والعلاقـة مع الآخر، فبقـدر ما تحمله هذه المدينة من توصيف تاريخي- طبقـي، اجتماعي، جندري- فإنَّها كشـفت عن موار أكثر تمثيلاً لصخب الـصراع الأيديولوجي، الذي يدور بهوس ثقـافي حول حلم التغيـير، والتجاوز، لا ثورية واضحـة فيه، سـوى التمرد على المكبـوت اللاواعي للهُويـة والطائفـة والمكان، مقابل الشـغف الواضح بالجـدّة، بوصفها تجـاوزًا وتغيـيرًا، والنظر إلى الآخر مـن خلال عدتـه المختلفة والسـاحرة، في النظر إلى

اللغــة والأنوثة والأفكار التي لم تكــن مألوفة، حتى بدت بيروت وكأنَّها "مدينة بابلية قديمة" تتبلبل فيها الأصوات، مثلما تتســع فيها أقنعة ساخرة ومتناقضة للتمرد على السلطة والطبقة، حيث يكون الشاعر هو البطل الحلم إزاء شخصيات "العرّاب" والباشا والبيك والسيد والقديس، وعلى نحو جعل من هاجس حرية تمثيل هذا الحلــم واضحًا، وأكثر تعبيرًا عن ذاته من خلال الخطاب والجســد واللغة..

(مجلــة شــعر) ليســت "مجلــة الأقليــة" أو جماعــة "الثقافــات الهامشــية" كما ســمّاها الروائي علي بدر، بقدر ما كانت مجلة "المدينة" التي جعلت من الهامش متنًا، فكان لهُويتهــا وجودٌ مفــارقٌ في التمثيل الثقافي، وفي تحويــل حرية الكتابة إلى فضاء للتجاوز ومساءلة التاريخ واللغة، إلى ما يشــبه مواجهة حساســية التابو، ومركزية المتن الشــعري التقليــدي، إلى التعاطي مع "الحداثــة" بوصفهــا أفقًا للحرية، ولخــرق المألوف، ولوضع اللغة الشــعرية إزاء رهانات أسئلة جديدة، تُعنــى بوعي التحــول، وبرغبات المدينــة الجديدة، التي يعمل "مواطنها الشــعري" على نزع الشعر عن التاريــخ، والجماعة عــن الطائفة، حتــى تبدو لعبة التجاوز الثقافي وكأنَّها محاولةٌ في إعادة توصيف المتن المتعالي/ المتخيل، عبر شغف خرق "النسق" العصابي للولاءات والمرجعيات- هناك.. وعلى نحو جعل من رهانات التجــاوز، والمغايرة، قرينًا بتذويب مركزيات الأيديولوجيا والســلطة، ومنها أدلجة الحزب القومي السوري، وأفكار أنطوان سعادة التي كانت جزءًا من فضاءات المجلة، في موقفها الأيديولوجي، وفي مشغلها الثقافي والحداثي الذي صنع علاماته من خلال اللغة النافرة عن سياقها وتاريخها...

صدمة مجلة شعر

الحضور المفارقة للمجلة ليس بعيــدًا عــن هُوية المدينــة، ولا عن الجماعة التي قادها الشــاعر يوســف الخــال، التــي جعلــت من هوســها بالتجديــد نزوعًا إلى المفارقــة، وإلى اســتعادة فكــرة "التنويــر" بوصفها مشروعًا "ثوريًّا" لمواجهة مركزية "النمط" والانفتاح عــلى الآخــر دون حساســية اللغة والاغــتراب والهُويــة، فكانت لحظة البدء هــي الأقرب إلى الصدمة، وإلى وضع القصيدة الجديدة إزاء تحديات مفهوم التجاوز، وبما يجعل هذه القصيدة وكأنَّها خيار لتمثيل شعرية المدينة، في ســحريتها المكانيــة والثقافية، وفي تمثيلها لكوزموبوليتيــة الجماعات والهُويات، وحتى للصراع الحاد مع هُوية شعرية مركزية، ومع تركيب طائفي لا يتقبل المختلف بسهولة، بما فيها الآخر الأيديولوجي..

مغامــرة التحديث في المجلة حملت معها هاجس اللغة أكثر من هاجس الهُوية، وسؤال الجدّة أكثر من سؤال التاريخ، إذ جعلت من ثنائية "المتن والهامش" نوعًــا من المغامــرة والتمــرد على المألــوف الثقافي،

وأحسب أنَّ عددها الأول حمل معه هذه الحساسية والمفارقة ف"أشار إلى أنَّ اختيار القصائد لا يخضع لأيّ مذهب فنّي ينتمي إليه القائمون على تحرير المجلّة، فالمقياس الوحيد ارتفاع الأثر الأدبي إلى مستوى لائق" وهو ما دفع الشاعر أدونيس إلى الدفاع عن هذه الخصوصية، من خلال ما كتبه في سيرته الشعرية "ها أنت أيَّها الوقت" بالقول " كان المهاجمون كُثُرًا أو متنوّعين: مزيجًا غريبًا من الأشخاص: متشاعرين، شعراء، متحزّبين، متعهّدي وطنيات وأيديولوجيات، متسكّعين حول شرفات ينحصر طموحهم كلّه في أن يُقال عنهم إنّهم قذفوا الشتائم في اتجاهها".

الموقف من المجلة هو ذاته الموقف من "الحداثة" ومن "المُناخ الثقافي" الذي كشفت عنه، فضلاً عن نظرتها النقدية للموروث الشعري، فنشر قصائد النثر أثار سجالاً صاخبًا، كما أنَّ ترجمات الشعر والفكر الجديد أثارت هي الأخرى حفيظة البعض، لا سيَّما من مريدي التيار القومي الذي وجد في صدور المجلة وكأنَّه "خيانة ثقافية" وأنَّ هناك جهات تمويلية خارجية تقف وراءها، فرغم أنَّ المجلة لم تُصدر بيانًا تأسيسيًّا، إلا أنَّ صدورها الصادم تحوّل إلى ما يشبه المواجهة بين تيارين، تقليدي، وآخر حداثي، عبّر عن مشروعه من خلال ممارسات ثقافية وكتابات بدت الأقرب إلى الجرأة، وإلى مناكفة خيارات مجلة الآداب البيروتية، ذات التوجهات القومية والحساسية الثقافية إزاء التاريخ والعروبة والهُوية..

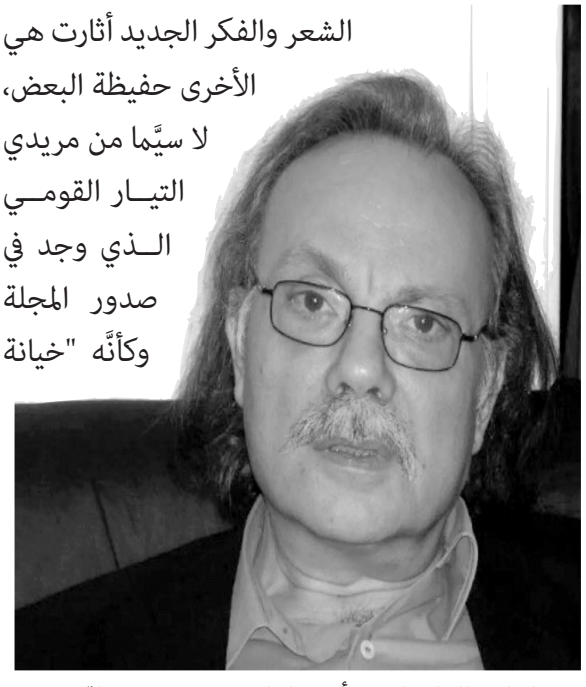

الشاعر اللبناني الراحل أنسي الحاج؛ من مؤسسي مجلة شعر

النظر إلى مجلة "شعر" لا يعني تجزئة تاريخها، وفصله عن السياق، فبقدر مغامرتها في الصدور والنشوء والإعلان، فإنَّها تحوّلت إلى قوة "سسيوثقافية" اثّرت كثيرًا على الاجتماع الثقافي العربي، وعلى أشكال الكتابة، وعلى علاقة هذه الأشكال بالتاريخ، وبمفهوم التجدّد والتحديث، ومدى علاقة ذلك بحيوية الجماعة الثقافية التي أسست هذا المشروع، وعلى رأسها يوسف الخال، فضلاً عن أدونيس وأُنسي الحاج وفؤاد رفقة ومحمد الماغوط وشوقي أبي شقرا وخالدة سعيد..

لقد كانت شهادة خالدة على هذا المشروع جزءًا من رؤيتها، ومن وعيها، ومن علاقة ذلك بالمدينة وبالاجتماع الثقافي والتاريخ والهُوية، وهو ما أشارت إليه في كتابها "يوتوبيا المدينة المثقفة" بالقول: " إنَّ مجلّة شعر وسجالاتها قد أسهمت إلى حدٍّ كبير في تحرير الشعر من أسر التاريخ وقانون الجماعة، ومن نمطيّة النظرة التراثية... كما أسهمت إسهامًا واضحًا في دفعه في اتجاه الفكر الفلسفي والحدوس وتحريض اللاوعي وتَراسُل الملكات".

لطيفة الزيات

المرأةُ كذاتٍ سرديّة: من التهميش إلى المقاومة في أدب (توني موريسون) ولطيفة الزيات

بسمة علاء الدين*

يحتــلُّ مفهوم الــذات السردية موقعًا محوريًّا في النقد الأدبي الحديث، إذ يُنظر إليه بوصفه آليةً لتمثيل الفــرد داخل النصوص، بما يتيح فحــص التحوّلات التي تطرأ على الشــخصية في علاقتها بالعالم. وقد اهتم منظّــرون كــ (ميخائيل باختين) بجدلية الصــوت والفضاء في الرواية، بينما ربط (بــول ريكور) بين السرد والهُوية، معتبرًا أنَّ الحكاية ليست مجرد نقل للوقائع بل بناء للذات عبر الزمن. في المقابل، طوّرت النسوية الأدبية، ممثلةً في (ســيمون دي بوفوار، وهيلين سيكسو، وإيلين شــووالتر..)، أدوات نقدية تكشف آليات التهميش التي لحقت بالمرأة داخل النصوص الكلاســيكية، واقترحت اســتراتيجيات بديلة تجعل المرأة ذاتًا فاعلة لا مجرد موضوع للرغبة أو أداة رمزية.

* كاتبة وباحثة مصرية

لم يكن حضور المرأة في السرد الأدبي مجرد مسألة جمالية أو شكلية، بل هو فعلٌ ثقافيٌّ يعكس موقعها في المجتمع، ويعيد تشكيله في آن واحد. بين التجربة العربية التي جسدتها لطيفة الزيات في الباب المفتوح "1960"، والتجربة الأميركية الأفرو- نسوية التي صاغتها (توني موريسون) في رواية "محبوبة"1987"، تتكشف أمامنا مفارقة نقدية غنية: كيف تتحول المرأة من كيان مُهمّش إلى ذات سردية مقاومة، وكيف تتنوع استراتيجيات الكتابة لتعيد للمرأة صوتها المسلوب عبر التاريخ.

المقاومةُ عبر السرد: إعادةُ صياغة البطولة

شكّلت تجربة لطيفة الزيات علامةً فارقةً في مسار الرواية العربية، ليس فقط من حيث موضوعاتها السياسية والاجتماعية، بل من حيث تمثيلها للمرأة كذاتٍ سرديّةٍ فاعلةٍ، قادرةٍ على إعادة صياغة الحكاية من الداخل. فإذا كان حضور المرأة في الرواية العربية الكلاسيكية مرتبطًا بالهامش أو بوصفها موضوعًا للمتعة أو الرغبة أو التضحية، فإنَّ الزيات تقدّم نموذجًا مغايرًا..المرأة التي تكتب ذاتها، وتقاوم عبر السرد، وتواجه آليات التهميش من خلال استراتيجيات سردية واعية.

عند الزيات، يبدأ التهميش من الأسرة والفضاء الاجتماعي التقليدي، المرأة محكومة بعين الأب والمجتمع، مقموعة داخل البيت، ويُختزل وجودها إلى أدوار الطاعة والزواج. في "الباب المفتوح" تُبنى شخصية "ليلى" على أرضية اجتماعية مشبعة بالتناقضات، فهي ابنة الطبقة الوسطى التي تُحاصرها القيود العائلية والأعراف، وفي الوقت نفسه تُجبرها التحولات السياسية على مواجهة سؤال الهُوية الفردية والجماعية. في هذا الفضاء، يظهر التهميش عبر تقييد حركة الجسد، والرقابة على الرغبات، وإقصاء المرأة عن الفعل السياسي المباشر. لكنَّ الزيات لا تقدّم هذه القيود كقدر، بل كحافز سردي يدفع البطلة إلى تمزيق البنية الذكورية التي تُقصيها، ليغدو الشارع فضاءً للحرية. الفضاء العام هنا لاستعادة ذاتها الوطنية والإنسانية. مع انخراط ليلى في الفضاء العام، تتبدل معادلة السرد. الجامعة والمظاهرات والشارع ليست أماكن محايدة، بل فضاءات تولّد وعيًّا جديدًا. هنا تتجاوز المرأة كونها مفعولًا به إلى فاعل، لا تعيش ردود الأفعال فحسب، بل تصوغ موقفًا ورؤية. الاستراتيجيات السردية التي تستخدمها مثل المونولوج الداخلي وكسر خطية الزمن، تعكس هذا الانتقال من الهمس الداخلي إلى الجهر العلني، من الخوف إلى المشاركة. إنَّ المقاومة في نصِّ الزيات ليست مجرد موقف سياسي، بل هي فعل وجودي يمنح المرأة حقَّها في أن تكون "أنا" لا هي.

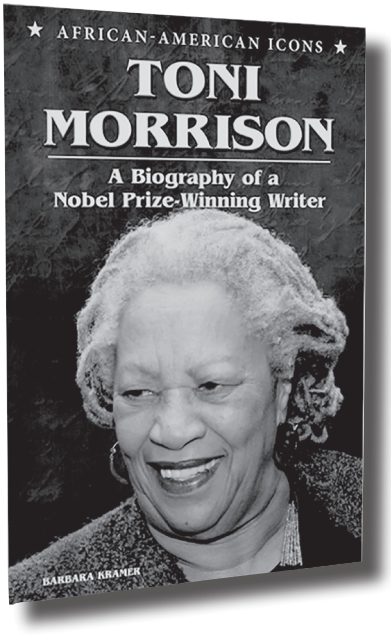

التهميشُ: وجوهٌ متعددةٌ لآلية واحدة

في عـالم الأدب الأميركي، تـبرز (توني موريسـون) كصوتٍ اسـتثنائي أعاد تشـكيل السرد الروائي ليمنح المـرأة، خصوصًا المـرأة السـوداء، موقعًـا مركزيًّـا طالمـا غُيّـب في النصوص الكلاسـيكية. لم تكن (موريسون) تكتب عن النساء فحسب، بل كانت تكتب من خلالهن، لتجعل من الذات الأنثوية أداة مقاومة، ووسيلة لفهم التاريخ، وتفكيك السلطة، وإعادة بناء الهُوية من منظور المهمّشـين. فالمرأة السـوداء التي غالبًا ما جرى تصويرها في الخطاب الغربي كجسد مستلب أو كصوت صامت، تتحول في نصوص (موريسون) إلى كيان سردي مركزي يملـك الذاكرة، ويعيد صياغة الزمن والفضاء، ويمارس مقاومة على مسـتوى الخطاب والتمثيل للنقد النسـوي الغربي، منذ أعمال (فرجينيا وولف) وصولًا إلى (شـووالتر) و(سيكسـو)، انشـغل بسـؤال: كيف يمكن للمرأة أن تكتـب ذاتها خارج أطر السرد الأبوي؟ (موريسـون) تقـدّم إجابةً خاصةً تنطلق من التجربـة الإفريقية-الأميركية، حيث يتداخل قمع وعنف العبودية والعنصرية البنيوية.

في روايـة " المحبوبة" التهميـشُ مضاعفٌ، قمع العبودية الذي يحوّل الجسـد الأسـود إلى ملكية، وقمع النظام الأبوي الذي ينزع عن المرأة السوداء إنسانيتها. في كلا السياقين، تصير المرأة مادةً سرديّةً بلا صوت، موضوعًا يُروى عنه لا ذاتًا تروي نفسها.

(موريسـون) تسـتثمر المـكان كأرشـيف حـي للذاكرة الجمعية، حيث تُسـكنه أرواح الذين لم يُمنحوا صوتًا ، يتحول البيـت إلى فضاء محوري ليس للراحة، بل للتعذيب والذاكرة الثقيلة. بيت "124" مسكون بالأشباح، بما يحيل إلى أنَّ الماضي لا ينفصل عن الحاضر. المكان هنا ليس محايدًا، إنَّه نصٌّ بديلٌ يعيد صياغة التاريخ الذي لم يُكتب.

شـخصية (سيثي) تجسّـد كيف يصبح الجسـد الأنثوي الأسـود موقعًـا للمقاومة التـي تحكمها الذاكرة الجسـدية للعبودية عندما تقتل ابنتها كي لا تعود للعبودية، تقول:

"سـأقتلها مرةً أخرى. لن أدع أحـدًا يعيدها إلى هناك. لا أحد يجعلها تعيش ذلك"

الجملة تُظهر كيف تتحـول الأمومة هنا إلى فعل مقاومة متطرف، حيث يصبح القتل حماية من العبودية. المرأة ليست مجرد كائن بيولوجي، بل ذات سردية تحفر في الماضي وتحاكم التاريخ الجسد هنا ليس مجرد كيان بيولوجي بل نصّ مقاوم يكتب التاريخ بدمه.

"سيثي" ليست مجرد ضحية بل ذات فاعلة، تتخذ قراراتها، تواجه أشـباحها، وتحاول أن تصنع مسـتقبلًا مختلفًا لأبنائها. النسـاء في الرواية هنّ الحامـلات لذاكرة العبودية، وهنّ من يقدمن أشـكال المقاومة اليومية، سواء بالصمود أو بالاعتراف أو بالقدرة على الحكي.

بين لطيفة الزيات و(توني موريسـون) يتجسّـد معنى أن تكـون المرأة ذاتًا سردية: أن تنتقل من الهامش إلى المركز، من الصمـت إلى الصوت، من كونها موضوعًـا إلى أن تصير كاتبة وروائيّـةً ومؤرخة. اختلاف السـياقات (الاسـتعمار في مصر، والعبودية في أميركا) لا يلغي تشـابه المسار: التهميش واحد، والمقاومـة واحدة، وإن اتخذت أشـكالًا متباينة. والنتيجة أنَّ الرواية في الشرق والغرب تصبح ساحةً لإعادة توزيع السلطة الرمزية، حيث تنطق المرأة باسم ذاتها وباسم تاريخها.

المفارقة: الزيـات تنطلق من البيت نحـو الوطن لتحرير المرأة، بينما (موريسـون) تجعل البيت نفسه جرحًا ذاكراتيًّا يجب تطهيره قبل أي تحرّر جماعي.

الناقد والباحث الأمريكي (روجر آلن)

كيف قرأ (روجر آلن) الرواية العربيّة

د. نضال الشمالي*

تتشــكّل المثاقفة Acculturation ضمن قانون الأخذ والعطاء والتفاعــل الطوعي بين كيانين حضاريين مســتقلين في الملامح لدراســة "الأنا" من منظور "الآخر" دراســة تزامنيّة تدعم هــذا النهج، وتحجّم فكرة التبعيّة والانفتاح اللامحســوب والوقوع في فخ الانبهار، ومن ذلك دراســة المنجز الغربي حيال أدبنا العربي الحديــث بعد عصر الاســتشراق Orientalism وعــصر الاســتعمار Post-Colonialism لوضع ضوابط منهجيــة تحكم صورة الأنا في منجز الآخر. ومن ذلك حضــور الرواية العربية في المنجز النقدي الغربي لدى الناقــد الأمريكي (روجر آلــن) Roger Allen (1942- ...)، إذ حقّقت الرواية العربيــة تراكماً نقديّاً جيداً بالاستناد إلى المرجعية النقدية الغربية في بناء نوع الرواية وتحديد ملامحها. وهذا التراكمُ النقديُّ لم يقتصر عــلى المدونة النقدية العربية بل واكبت ذلك مدونة نقد غربية اهتمت بالسرديات العربية الحديثة وعلى رأسها الرواية. إذ عكف (روجر آلن) أستاذ الأدب العربي في (جامعة بنسلفانيا) الأمريكية على تتبع الرواية العربية والتأريخ لها طيلة أربعة عقود خلت[1] جامعاً بين تاريخ الأدب والتحليل النصّي للروايات.

* أكاديمي وباحث أردني

يعود اهتــمامُ (آلن) بالرواية العربيــة إلى عام 1968 عندمــا كتب أطروحة الدكتوراة عــن المويلحي. أمَّا أهم إصداراته فكتاب عنوانه "الرواية العربية مقدمة تاريخية ونقدية" ترجمتــه حصة منيف[2]. وكتاب "مقدمة للأدب العربي" ترجمه رمضان بسطويسي وآخرين. وله دراستان أخريان عن أدب يوسف إدريس القصصي؛ الأولى بعنوان "في عــين الناظــر" 1978، والثانية بعنوان "فنيّة يوســف إدريــس" 1981. كما عكف على ترجمــة روايات لنخبة من الروائيين فترجــم "المرايا" و"الكرنك" و"خان الخليلي" لنجيــب محفــوظ، و"النهايــات" لعبدالرحمــن منيف، و"دنيازاده" لمي تلمســاني، و"مجنون الحكم" و"العلامة" لبنســالم حميش. كما أنجــز عدداً من المقــالات النقديّة حول الرواية من بينها مقالة بعنوان "المعركة في الســوق: مكانــة الرواية العربية في الســياق العالمــي"[3]، و"مرايا نجيب محفوظ"[4]، و "ترجمة الرواية العربية"[5].

أمَّــا كتابه "الروايــة العربية مقدمــة تاريخية نقدية" فأصله ثلاثُ محاضرات ألقاها في (جامعة مانشستر) عام 1980 بدعوة من البروفســور (آدمون بوزوورث) أســتاذ الدراسات العربية، ثم نُشرت على هيئة كتاب في الولايات المتحدة الأمريكية (1982) بالاتفاق مع مجلة الدراســات الساميّة. بعد ذلك قامت جامعة الكويت بتمويل بترجمة الكتــاب ونشره عام 1986. وفي هــذا المصنّف المهم يركّز "آلــن" على الروايات الصــادرة بالعربية لا بلغات أخرى، وقد قسّــمه إلى أربعة فصــول؛ الأول: تعريــف بالرواية وأصولها، والثاني التطوّرات المبكرة لتقاليد الرواية العربية وبدايات عصر النهضة، أمَّا الثالث فخصّصه لتقييم مرحلة نضج الرواية وتطوّرهــا(1939 - 1980)، وتضمن الرابع دراســة لثماني روايات مثل "ثرثرة فــوق النيل" لمحفوظ، و"ما تبقى لكم" لغسان كنفاني، و"عودة الطائر إلى البحر" لحليــم بركات وغيرها، وقد وصف (روجر آلن) دراســته التحليليّة لهذه الروايات بأنَّها "حذرة ومحافظة"[6].

منهجُ المؤلف

يكتســب هذا المصنّفُ أهميتــه في قدرته على إجمال تاريخ الرواية العربية - على تشــتتها وتوزعها عبر الأقاليم والأزمنــة- والمزاوجــة بين تاريــخ الأدب والتحليل النصّي للأعــمال الروائيــة. إذ لم نعــرف مصنّفاً أجنبيّــاً يغطّي هذه المســاحة الجغرافيّة والزمنيّة للرواية العربيّة، وقد ساعده في ذلك إتقانه للعربية وإلمامه بالمنهجين التاريخي والاجتماعي.

ألمح "آلن" في أكثر من ســياق تبنيه الرؤية الاجتماعية في تحليل الرواية العربية وتأصيلها. يقول "آلن" في معرض تقييمه لأدب نجيب محفوظ: "وهذا الخطُّ يركّز العدسة على المجتمع القائم في عصره ســواء عن طريق أســلوب الواقعية الاجتماعية الذي يلجأ إلى التفاصيل إلى حدّ كبير، أو عن طريق رؤية انعكاسيّة قد تكون أكثر حذقاً في كثير من الأحيان، أي من خلال منظور الفرد ضمن المجتمع"[7]، فهو يرى منجز محفوظ امتداداً للواقعية الاجتماعية التي تُرصــد ضمن مفاهيــم المنهج الاجتماعــي. كما يوازن في أدواتــه النقدية بين متطلبات المنهــج التاريخي في تأريخ الرواية، ومتطلبات المنهــج الاجتماعي في الربط بين بنى المجتمــع وقوانين الإنتــاج فيه، ومكانــة الرواية العربية حيال هــذه البنى، إذ يفسّر الظاهــرة الأدبية بهدي من حوادث تاريخيّة ومتغيرات اجتماعيّة وسياســيّة ترافقها، إلى أن يضع الرواية في ســياقها التاريخي المناســب ضمن مفهــوم الانعكاس، يقــول "آلن": "وهــذا المنظور القاتم للواقــع الذي يتوجــب على الــروائي العــربي أن يصوّره

ينعكس في العديد من الأعمال التي ناقشناها ضمن هذا الفصل"[8]، ويُتبع ذلك باقتباس ل(جورج لوكاش) من كتابه "نظرية الرواية"، فالرواية عند "آلن" ضمن هذا المنظور "تقوم بشكل عام بأداء وظيفتها كمرآة عاكسة لتنوع الحياة في المنطقة وتعقيدها، على الرغم من أنّ تقاليد قومية معينة قد تتراوح وتتذبذب مصائرها طبقاً للظروف الاجتماعية والسياسية"[9]. ضمن هذه الرؤية النقدية العامة يتشكّل نمطُ القراءة الذي يصدر عنه "روجر آلن" في الإجابة عن سؤال الرواية، وهذا النمط يرتهن لثلاثة إجراءات هي: المقارنة، والموازنة، والتزمين.

أولاً: نمطُ المقارنة

ينطلق "آلن" في تشخيصه للرواية العربيّة من رؤيةٍ شاملةٍ يحكمها فعلُ القراءة في اتجاهين؛ اتجاه يعكس سعة الاطلاع ووفرة المعلومات ودقتها، واتجاه يقوم على الإحاطة بالآراء النقدية الغربية والعربية معاً تلك التي تدعم وجهة نظره فيما يحلّل ويقوّم، وهذا الأمرُ يفسح المجال واسعاً أمام فكرة المقارنة Comparative التي تتم بين ثقافتين أو قوميتين مختلفتين في الطرح واللسان على صعيد الآراء النقدية. فعندما يتحدث "آلن" عن تسلسل نجيب محفوظ في نشر أعماله في الصحافة المحليّة يقرنها بمثال أوروبي: "بل إنّ أشهر روائيّ وهو نجيب محفوظ دأب على نشر أعماله، مهما كانت طويلة، في هيئة متسلسلة أولاً، وهذا أمرٌ نجده في الآداب الأجنبيّة أيضاً. كما يقول (كوكس) في كتابه (من ديكنز إلى هاردي): "نشْرُ جانب كبير من الأدب الفيكتوري.. في الصحف والمجلات الدورية، وبذلك كانت هذه الصحف تشكّل فترة الحضانة بالنسبة للإنتاج الأدبي"[10]. و"آلن" فيما سبق يرسم عبر نمط المقارنة خطى الأدباء في رعاية أعمالهم الإبداعيّة عبر قنوات الإعلام والصحافة وصولاً إلى القرّاء، ففعل الانتشار يُنجز على سوية واحدة بين رائد الرواية العربية وروّاد الأدب الإنجليزي.

وفي سياق آخر (ص25) يقارن "آلن" بين سلسلتين روائيتين تاريخيتين؛ الأولى لـ "والتر سكوت" والثانية لـ"جرجي زيدان" وكأنّ السلسلتين مرّتا بالظروف نفسها في الانتشار، بمعنى أنّ الرواية العربية تقتفي أثر الرواية الأوروبية وتحذو حذوها. ويتكرّر فعل المقارنة عند حديثه عن ثلاثية نجيب محفوظ :"وشأن الروايات الطويلة التي تعالج سيرة حياة أُسر بأجيالها مثل روايات تولستوي وجلا سوورذي، وترولوب، وفيكتور هيجو، وآخرين"[11]، هذا النمط من المقارنة الإشارية تجعل من فعل القراءة لدى "آلن" تكريساً لفكرة تبعية الرواية العربية للرواية الغربية في طرق انتشارها وأسباب تشكّلها وتقنياتها الفنية. ومن الأمثلة المعزّزة لهذه الفكرة وضع نجيب محفوظ مقابل الروائي الفرنسي غوستاف فلوبير، يقول "آلن":"إذ إنّ أسلوب محفوظ في السيطرة على هذا الاستعراض التاريخي الواسع النطاق للمجتمع المصري خلال فترة تحوّلاته يذكرنا بما كتبه (جورج لوكاش) في كتابه (نظرية الرواية) حول كتابات فلوبير"[12]. هذا البعد المقارن غايته الحديث عن التدفق المستمر واللامحدود للزمن في كتابة نجيب محفوظ وكتابة غوستاف فلوبير،

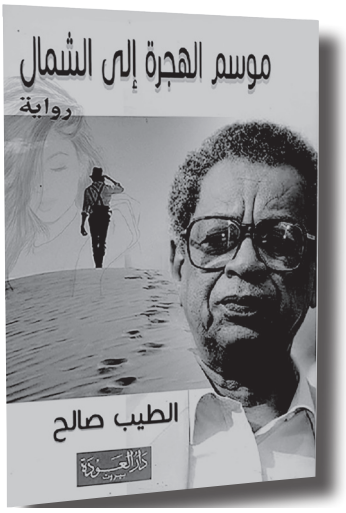

ونمط المقارنة هنا يتّخذ من تماثل الظروف معياراً لتشابه المحاولتين مع مراعاة أقدمية (فلوبير) زمنيّاً.

وهــذا النمط مــن المقارنة يمكن أن يُقرأ باتجاهين؛ اتجاه يسـعى إلى ربط الرواية العربيــة بالرواية الغربية فتتخــذ الأولى مــن الثانيــة أنموذجاً يُحتــذى عبر حلول واتجاهــات سـعت لها كانت قد سـبقتها إليهــا الرواية الغربيــة وفي ذلك تلميـح لفكرة التبعيــة، واتجاه يؤكد وحــدة الفعــل الإبداعي عالميّــاً مهما تباينت المشــارب والأصــول والأقاليم، عبر التعامل مــع الرواية العربية وما رافقها من رعاية نقدية على أنَّها جزءٌ من التكوين المعرفي للإنسانية جمعاء، وأنَّ الرواية العربية من حقِّها أن تحاكي واقعها وتتفاعل معه.

ثانياً: نمطُ الموازنة

الموازنــة هــي المعادلة بــين أمرين لغايــات التقويم والتقديــر بعدالــة، إنَّهــا أداةٌ مــن أدوات النقــد تتغيا التوصيف والحكم بين مسألتين أو حالتين. والموازنة تُبنى على سـعة اطلاع الناقد وترتقي بحصافتــه وقدرته على إصــدار الحكم النقدي. وقد أكــثر "آلن" من هذا النمط في قراءتــه النقدية للرواية العربيــة في مراحلها وظروفها المتباينة.

ومــن أمثلة ذلــك موازنته في فعل الوصــول المرتجى للقــرّاء مــن قبل الروائيــين العرب فيــوازن[13] بين لجوء جرجي زيــدان في روايته للماضي، واختيار كتّاب الأعمدة في الصحــف مقالات متتابعة تعلق على المجتمع المعاصر والسياســات الراهنة، وهذا يعكس حرص كل كاتب على تجسيد رؤيته. كما يلجأ للموازنة خلوصاً إلى حكم نقدي مهــم في معرض موازنته بين حافظ إبراهيم والمويلحي في اسـتعانتهم بـ "أسلوب المقامة لنقد الأوضاع السياسية في مصر في نهاية القرن التاسـع عــشر"[14]، إلا أنّ مثل هذه الاســتعانة لم تحقّق المراد منها ولم تفرض الأسلوب التراثي في كتابة الرواية العربية، وبقي الانصراف إلى أنماط الرواية الغربية هو الحاضر فيما يُكتب آنذاك.

كما يظهــر نمط الموازنة في ســياق آخــر لتأكيد فكرة النسق الرومانسي في كتابة بعض الروايات العربية، عندما وازن "آلن" بــين كتابات جبران خليل جبران والمنفلوطي: "وشــأن المنفلوطي كانت مؤلفات جــبران، التي اتخذت شــكل قصص قصيرة أو قطع أدبية أطــول، ذات طبيعة رومانتيكية خالصة"[15]، وهذا النمط من القراءة يســعى إلى بناء اتجاهات حقيقية في كتابة الرواية العربية.

وفي السياق ذاته يوازن بين المويلحي الساخر وكتابات ســليمان فيضي في "الرواية العكاظية" 1919م، والسخرية هي ما يجمع بــين الكتابتين لمصري وآخر عراقي، و"آلن" في ذلك يحاول أن يوحّد بين الأقاليم العربية في إســهاماته لا أن يجعل لكل إقليم سمته الخاصة.

إنَّ مبدأ الموازنة سرعــان ما يظهر في نقد "روجر آلن" بمجــرد توافر ما هو المشــترك بين عملــين أو حالتين، وفي كل الأحيان تســعفه الموازنة في رســم مشهد كلي للرواية العربيــة في المرحلــة الزمنية مدار اشــتغاله عليها، ففي معرض حديثه عن روايــة "طيور أيلول" لإميلي نصر الله 1962 يســتحضر إلى جوارها كتابــات جبران خليل جبران لعاملــين؛ خلفية العمــل وفكرته، يقول: "وشــأن "أرواح متمردة" التي كتبها جبران قبل ســنوات عديدة تستخدم الكاتبة الريف اللبناني وظواهره الطبيعية كخلفية لعمل ناقدٍ للمجتمع. غير أنّ المواعظ التي تطفو على الســطح بصــورة بارزة في عمل جبران غير موجودة في رواية إميلي نــصر الله التي نجحت في أن تعــبّر عما تريده من خلال تطوّر الأحداث ذاتها"[16]. إنّ فكرة اســتحضار عمل سابق على عمل لاحق فكرة تعزّزت لدى "آلن" من أجل إحكام

الصلــة بين نمــاذج الرواية تعينــه على تأريخيّــة العمل وتأسيس مشهد كلي لها في مراحلها المتباينة.

ومن الموازنات الجدلية التي ســاقها "آلن" تلك الموازنة بين أسباب تفوّق نجيب محفوظ على عبدالرحمن منيف في موضــوع الجوائز العالمية، وســياق الموازنة متأتٍ من رأي للناقد الأمريكي (جون أبدايك) (1932-2009) عندما أخذ على عبدالرحمن منيف عدم احتذائه لتقاليد الرواية الغربية فيما يكتبه، يتســاءل "آلن" في هذه الصدد: "هل من الممكن أن نستنتج من آراء (أبدايك) والمنطق الغريب فيها قائلين: "إنَّ محفوظاً من الفائزين في الســوق العالمي لاحتذائه القدوة الغربيــة، وإنّ منيفاً من الخاسرين لأنَّه قرّر ألا يحتذيها وآثر عليها الإحياء، بطريقة دقيقة، لبعض الصفات الأصيلة في السرد التقليدي العربي والتاريخي منه على وجه الخصوص" [17]، يســتهجن "آلن" بهذه العقلية الاســتشراقية التي يصــدر عنها ناقد ك(جــون أبدايك)، ملمّحــاً لعــدم إدراك الغربيين مقــدّرات الرواية العربية واستقلال هُويتها بعد.

ومن أنــواع الموازنات التــي وظفها "آلــن" تلك التي توازن بــين الآراء النقدية التي تحضره في ســياق التأريخ للروايــة العربيــة، إذ لا يــتردّد في توظيــف رأي نقــدي يخصُّ ســياق الشعر أوردته ســلمى الخضراء الجيوسي في كتابها "الاتجاهات والحركات في الشــعر العربي الحديث" ليطبقه على الرواية ونشأتها، مفاده أنَّ الزمن والتقدم في المستقبل كفيلان بأن يميّزان بين الأعمال الأدبية الحقيقية والأعــمال المقلّدة، يقول "آلن": "وبالرغم من أنَّ ســلمى الجيوسي كانت تشــير بذلك إلى الشــعر المعاصر، غير أنّ المبدأ ذاتــه يمكن أن يُطبّق على الروايــة أيضاً وبالصدق نفســه"[18]. وهذا يؤكّد مرونة "روجر آلن" في تبني الآراء النقدية ونســبتها إلى أصحابهــا دون تردّد رغم أنّ المعنى الذي قدمته الجيوسي يبقى في إطار العمومي من الأفكار ولا يمكن قصره على كاتب محدّد.

كما تتخذ الموازنة لديــه فعلاً ثقافيّاً عندما أفرد مبحثاً كامــلاً في كتابه عن رواية الطيب صالح "موســم الهجرة إلى الشــمال" 1967، فقد صنّف [19] هــذه الرواية ضمن الأعمال العربية التي عالجت موضوع اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب، مشخّصاً طبيعة هذه اللقاء تحت فعلين؛ الصــدام والمجابهة الثقافيــة[20]، جاعلاً حديثه عن هذين الفعلين في ســياق الموازنة بين ما أقدم عليه "إســماعيل" بطل رواية يحيى حقي "قنديل أم هاشم" 1944، وموقف "مصطفى سعيد" بطل "موسم الهجرة إلى الشمال"، فهذا الأخير بنى لنفســه نمطــاً جديداً من القيــم في مجابهة الآخــر. إنَّ إدراك (روجر آلن) لهذا النمط من القيم جاء ضمن تصور فعل المواجهة الفردية الحاســمة في التعامل مع قيم المســتعْمِر وشروطه الثقافيــة، فتوقف مليّاً عند مشــاهد العنف والقتل؛ أكان ذلك في ترحال البطل أم في حلّه، فالعنفُ يبقى منظومةً ثقافيّةً يهجس بها "مصطفى سعيد" أينما حلّ، وقد استعان سارد القصة بعنصر الزمن، وبأسلوب المجاز لإحداث الفارق في روايته؛ فالزمن تجلّى بـ (التجزئة، والارتجاع، والتحولات)، أمَّا المجاز فكان درع الرواية في تأجيج فعل المجابهة الثقافيّة.

ثالثاً: نمطُ التزمين

والتزمــين أو التحقيب فكرةٌ يقــوم عليها تاريخ الأدب وينهض بهــا في ترتيب كــمّ الأعمال الأدبيــة الصادرة في مرحلة ما بغية تقييمها والخلوص إلى جملة من السمات التــي تحكمها، و"روجر آلن" يقرّ في غير ســياق بنظرته التاريخيّــة للرواية العربيّة: "وما يثــير اهتمامي بوصفي

مؤرخـاً للرواية العربية، هــو النتائــج المترتبة عن هذه التطـوّرات والتجــارب، ومنها إعادة البحــث في المراحل الأولى لــتراث الروايــة العربية" [21]، وفعــل التزمين لدى "روجر آلن" لا يرتبط بالســمات الفنيّــة للرواية العربية عبر عقودهــا المتتابعة ابتداءً، بل بالمتغــيرات التاريخيّة والاجتماعيّــة والثقافيّة التي تمرُّ بها المجتمعات العربية، وما يطرأ على ثقافاتها مــن تغيّرٍ وتبدّل: "قد تصور هذه الروايات وأولئك الروائيون فترات معينة من تاريخ تطوّر الثقافة العربية المعاصرة، غير أنّ العقود الأخيرة من هذا القــرن شــهدت تغــيرات هائلة في نســيج المجتمعات العربية... ولذا كان مــن الطبيعــي أن يصبح لزاماً على الروايــة أن تحقّق الدور الذي تؤديــه بصــورة تفــوق كل الأنماط الأدبيّة الأخرى، وهي أن تكون مرآةً، وناقدةً، للمجتمع الذي يتم تطورها فيه"[22] إنَّ النظرة المثالية لما تقدمه الرواية العربية هي أن تكون علامةً اجتماعيّــةً بالدرجة الأولى للمراحل التاريخيّة التي تعيشها المجتمعات العربية.

كما يرتهــن تقدّم الرواية العربية لدى "آلن" وتطورها بالمتغــيرات السياســيّة والاقتصاديّة لهــذه المجتمعات، فالرواية تابعةٌ في تطورهــا لتغيّر المجريات، وهذا الطرح يتوافــق والمنهجية الاجتماعيّة في النقد الأدبي القائمة على فكرتي الانعكاس والالتزام، يقول "آلن" في مستهل حديثه عن مرحلــة نضج الرواية العربية: "شــهدت المجتمعات العربيــة تغيّرات واســعة النطاق خــلال العقود الأربعة الماضية، فيما يخصُّ أسلوب الحياة السياسيّة والاقتصاديّة. ولذا فليس من المســتغرب أن تشــهد هــذه الحقبة من الزمن توسّعاً هائلاً في حقل الرواية "[23]، ومثل هذا الربط التزميني يعين "آلن" بنهجه الاجتماعي على تتبع مناحي التطــور والتجارب التي جدَّت في تلــك المرحلة وجعلت الروايــة شــاهداً على التغــيّرات السياســية والاجتماعية والاقتصاديــة لمرحلة ما من مراحــل المجتمعات العربية، ويضيــف: "غير أنَّنــا إذا أخذنــا بعين الاعتبــار الارتباط الوثيق بين كتابة الرواية والظروف التي يعيشها المجتمع، يبــدو حين ذاك أنَّــه لا بدَّ من أن نســتعرض بإيجاز بعض الأحداث الأساســيّة والاتجاهات الســائدة في العــالم العربي في الفــترة ذاتها فهي تمثّل الخلفية التي نستعرض ضمــن نطاقها ذلــك الفيض من الأعمال القصصيــة"[24]، فالأعمال الروائية لا يمكن قراءتها إلا بقراءة الخلفيــة التاريخية لهــا. فمثلاً لا تُقــرأ رواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ بعيداً عن تأثيرات الحرب العالمية الثانية على مصر، ورواية الخمســينيات لا يمكن أن تكتمل ملامحها دون استحضار مأســاة فلســطين 1948، وثورة 1952 في مــصر، وثورتي العراق والســودان عام 1958. أمَّا رواية الستينيات فتبرز "باعتبارها ذلك العقد مــن الزمن الذي عبرت من خلاله الأنظمة الثورية العربية مــن غمرة النجاح المبدئي الذي أتى به الاستقلال، وما تلاه، إلى حقبة صياغة بعض المبادئ الأيديولوجية التي بُنيت أو ســتُبنى الثورة على أساســها،

وطــرق وضع هذه المبادئ موضع التطبيق" [25]. و"روجر آلــن" في هــذا الطرح التزمينــي لتطور الروايــة العربية يسعى إلى تقديم رؤية تصوّرية محدّدة عن معالم الحياة الاجتماعية والسياسية التي برزت في المجتمعات العربية، فتتحــد خطى الرواية العربية بنــاءً على خطى التغيّرات الاجتماعيّــة فيها. وقــد انطبق ذلك على جــلّ الروايات العربية التي ناقشها في كتابه وعلى رأسها ثلاثية محفوظ التي تصوّر النزاع والانقســام في المجتمع المصري وشعور المثقفين بالاغتراب.

لقــد اتخذ "آلن" مــن ذلك وســيلةً إلى إجمال صورة مشــتركة واضحة المعالم لذلــك التنوع الجغــرافي الهائل للرواية العربية ما بين المشرق والمغرب ومصر وبلاد الشام وبعــض دول الخليج العربي، فانعكــس ذلك على فصول كتابــه. إنَّ فكرة تزمين الروايــة العربية، ورهنها بأحداث تاريخية وسياســية ومتغيرات اجتماعيــة كان هو المؤشرُ الأبــرزُ في نمط القراءة الذي تبناه لرســم لوحة بانورامية تؤطــر الرواية وتقيّمها بين ثنائيتــي التأصيل والتغريب، وقــدرة هذه الرواية على الاســتجابة المباشرة للمتغيرات الثقافية التي مرّت بها المجتمعات العربية.

وبعد؛ فقد انطلق (روجر آلن) في فعل قراءته للرواية العربيــة من رؤية إجماليّة تخدم فكــرة تاريخيّة العمل عزّزتها رؤية نقديّة تحليليّة، وقد انطلق من فكرة التوحيد بــين الأقاليم العربية في إســهاماتها الروائية تحت عنوان الروايــة العربية، لا أن يجعل لكل إقليم ســمته الروائية الخاصة، فضلاً عن توظيفه لأدوات المنهج الاجتماعي، وما يقتضيه من انعكاس، والتزام.

الهوامش:

(1) Muhsin Al- Musawi: Editor's Pretace, Journal of Arabic Literature, 41, 2010, p1.
(2) نشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1986، وعدد صفحاته 173 صفحة.
(3) مجلة فصول، ع3، م16، شتاء 1997، ص ص 21-15.
(4) في العدد السابق نفسه، ص ص 251-236.
(5) Roger Allen: Translating Arabic Fiction, Journal of Arabic Literature, 46, 2015,pp157-167.
(6) روجر آلن: الرواية العربية مقدمة تاريخية ص 7.
(7) روجر آلن: السابق، ص 61.
(8) السابق، ص 89.
(9) السابق، ص 170.
(10) السابق، ص 23.
(11) السابق، ص 57.
(12) السابق، ص 58.
(13) السابق، ص 26.
(14) السابق، ص 28.
(15) السابق، ص 29.
(16) السابق، ص 88.
(17) روجر آلن :المعركة في السوق: مكانة الرواية العربية في السياق العالمي، مجلة فصول، ع3، م16، شتاء 1997، ص17.
(18) روجر آلن : الرواية العربية مقدمة تاريخية نقدية، ص 112.
(19) السابق، ص 136.
(20) السابق ، ص 142.
(21) روجر آلن :المعركة في السوق: مكانة الرواية العربية في السياق العالمي، ص17.
(22) روجر آلن : الرواية العربية مقدمة تاريخية نقدية، ص 63.
(23) السابق، ص 45.
(24) السابق، ص 45.
(25) السابق، ص 50

" نكهة بيروت: موائد وسرديات" لنادر سراج

عبقُ الطعام وشغفُ الذكريات

د.عيسى برهومة*

يـأتي هذا الكتاب " نكهة بـيروت: موائد وسرديـات " للبناني نادر سراج (دار المؤلـف ببـيروت 2025) مـن مدينة لا تنـام، تحمل في طياتهـا عبق الذكرى وطعم الزمن، يحدثك عن الطعام ويرتحل معك إلى أعـماق النفس البشرية، حيـث اللقمة تلتقـي بالكلمة، والمائدة بالذاكرة، والجوع بالشوق.

* أكاديمي وباحث أردني

حين تتكلم الموائدُ

فالطعامُ في هذا الكتاب وقودٌ للجسد، ولغةٌ تُترجم أحلامَ الأمـم وأوجاعهـا، فنـادر سراج يأخذنا في رحلـةٍ عبر موائد بيروت، ليكشـف لنا أنَّ المدينة ليسـت حجارةً وشوارع، بل هـي نَكَهاتٌ تتردّد في الأزقـة، وحكاياتٌ تُحكى على مهلٍ بين أطباق التبولة والفتوش والكبّة.

ويذكرنا بأنَّ بيروت، كالمرأة العظيمة، تحمل في طياتها تناقضـاتٍ جميلـة: شرقية تلبس ثوب الغـرب، حديثة تعانـق قديم الحجر، فقد كتب جبران في "النبي": "أنتم أقويـاء لا بصلابة عظامكم، بـل بليونة قلوبكم." هكذا

بيروت في هــذا الكتاب: قويّة بليونــة نكهاتها، عظيمة بتنوع موائدها.

الطعامُ شيفرةٌ ثقافيّة

إنَّ سراج يصــف الأطبــاق، ويفتــح أبوابًــا إلى عــالمٍ من الدلالات، فالطعام شــيفرةٌ اجتماعية، كما يصفه (تشاندلر) تعكــس هُوية الجماعة، وتاريخها، فالكبّة الأرنبيّة خليطٌ من البرغل واللحم، وهي عقدٌ ثقــافي بين يدَين: يد الفلاح الذي زرع القمح، ويد الأم التي عجنت الذاكرة بالبهارات. فالأشياء لا قيمة لها إلا بالمعاني التي نُلقيها عليها. فيصبح الطعام نصًّا مفتوحًــا، كلُّ طبــقٍ حرف، وكلُّ رائحةٍ إيقاع في ســيمفونية المعنى. وقد استعرض الكتاب كيف تحمل الأطباق التقليدية مثل المنســف في بلاد الشام، والكســكسي في المغرب العربي، والكبّــة في لبنــان، دلالاتٍ عميقــةً عن الانتــماء الجغرافي، والثقافي، فالمائدة مكان للأكل ومسرح للهُوية ورموزها.

اللغةُ والطعام.. توأمان لا يفترقان

إذا كانــت بــيروت هي الجســد، فإنَّ لغتها هــي الروح، فالكتــاب يؤكّــد أنَّ الكلمات المتداولة حول المائدة ليســت "ثرثــرة"، إنَّها طقــوسٌ لغوية تُعاد كتابتهــا كل يوم، فجملة مثــل "كلوا.. هيدا من عرق ظهري!" تحمــل في طياتها تراثًا من التضحية والكرم. فالكلمة كالنحلة، إذا أُحسِــنَ اختيارها أعطَــتْ عســلاً، وإلا لسَــعَتْ." فالمائدة تتحــول إلى مسرحٍ للبلاغة الشــعبيّة، إذْ يتبارى الجالســون في صياغة العبارات التي تزيد الطبق نكهةً وإشراقًا.

ويتعمّــق الكتــاب في تحليل الظاهــرة اللغوية المرتبطة بالطعام، ويشــير إلى مصطلحات مثل "السُّفرة" و"الوضيمة" و"النقيعــة" التي تحمــل في طياتهــا تاريخًا مــن العادات والتقاليد، فالكلمة وسيلة تواصل ووعاء للذاكرة الجمعية.

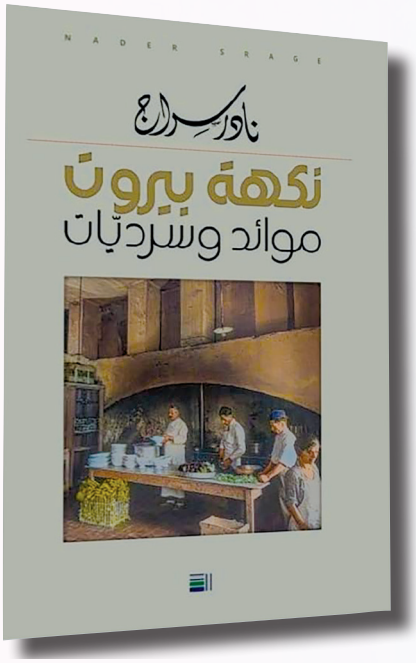

المائدةُ مرآةُ التحوّلات الاجتماعية

يرصــد الكتاب بدقــة كيف تتجلّى تحــولات المجتمع في مائدتــه، فكلمة "عيش" التــي تعني الخبز والحياة في العاميــة، تختــزل في اللغة الحديثــة إلى "أكل"، ويعكس هــذا الانزياح اللغوي تحوّلًا وجوديًّا: من مائدةٍ تجسّــد معنى "العيش" المشترك، إلى وجبات فردية سريعة تشبه "الوقود" للجســد، وتتحول المطاعــم الحديثة إلى أماكن بــلا ذاكرة، في حين تظلُّ موائد البيــوت تحمل في طياتها حكايات الأجداد.

فالكتاب يقدّم مقارنةً دقيقةً بين مطاعم بيروت العريقة مثل "مقهى الحاج داود" و"مطعم أبو عفيف"، وبين المطاعم الحديثة التي تقدّم الوجبــات السريعة، فالأولى تحمل روح المدينة وتاريخها، لكن الثانية تعبر عن زحف العولمة وتأثيرها على الهُوية المحلية.

سردياتٌ تُحكى بالملعقة

يحفل الكتاب بحكايات شعبية ترويها الموائد، فطبق الفتوش لا يذكر البيروتيين بخضار السوق فحسب، بل بأيام الحصار حين كانوا يخلطون الخبز اليابس بالبقدونس، حينئذٍ تمسي المائدة جامعة شعبية تورث الأجيال قصصها مع كل مضغة. فالكتاب يروي حكاياتٍ من التراث الشعبي، مثل قصة "الخبيصة" التي ترمز إلى الفوضى والاضطراب، و"طبخة الحجارة" التي ترمز إلى الأمر الذي لا جدوى منه، هذه الحكايات لا تعبر عن الواقع الغذائي حسب، بل عن الرؤية الفلسفية للحياة.

بين التراث والحداثة

يُبرز الكتاب التناقض الجميل بين الأصالة والحداثة في مطابخ بيروت، وتتعانق أطباق السوشي مع الحمص على المائدة البيروتية، ويصبح التناقض رمزًا للهُوية المركبة، ويحلّل الكتاب كيفية تعامل اللبنانيين مع التراث الغذائي في ظلِّ العولمة، ويشير إلى أنَّ بعض الأطباق التقليدية حافظت على مكانتها، فتأثرت بالثقافات الوافدة، مما يشير إلى صراع هُوياتي بين الانفتاح على العالم، والخوف منه على التراث.

لغةُ الطعام بين التعريب والفرنسة

يسلّط الكتاب الضوء على ظاهرة لغوية طريفة، وهي تأثر مفردات الطعام باللغات الأجنبية، فكلمات مثل "مينيو" و"شيف" و"ديليفري" أصبحت جزءًا من اللهجة البيروتية، كغيرها من اللهجات. ثم يقدم الكتاب من وجه آخر تحليلًا دقيقًا لظاهرة "الفَرْنَسَة" في لغة الطعام، ويومئ إلى أنَّ بعض المطاعم تفضل استعمال المصطلحات الفرنسية على العربية، مما يؤكّد تأثير التبعية الثقافية، لكنَّه في الوقت نفسه لا ينكر أنَّ اللهجة البيروتية استوعبت هذه المصطلحات وطوّعتها لخدمة هُويتها المحلية.

المطاعمُ فضاءاتٌ للذاكرة

يخصّص الكتاب مساحةً كبيرةً للمطاعم البيروتية العريقة، مثل "مقهى الحاج داود" و"مطعم أبو عفيف"، فهي أماكن

للأكل، وفضاءات للذاكـرة الجمعية، فكل مقعد فيها يحمل قصة، وكل طبقٍ يروي حكاية. لقد تحولت هذه المطاعم إلى ملاذات للروح البيروتية التي ترفض الاندثار.

يحيي المؤلـف ذاكرة هذه المطاعم بالروايات الشـفوية والصور التاريخية، موضحًا وكاشـفًا عمّا مثلته هذه الأماكن من مسرح للأحداث السياسيّة والاجتماعيّة، فمطعم "الحاج داود" مكان لتناول الطعام، ومنتدى للمثقفين والفنانين أيضًا.

الطعامُ في الأفراح والأتراح

يتعمّـق الكتـاب في دراسـة دور الطعام في المناسـبات الاجتماعيّـة، فلكل مناسـبة طعامها الخـاص، ففي الأفراح تُقـدم أطباق مثل المحاشي والكباب، وفي الأتراح يّقدم طعام "الوضيمـة" تعبيرًا عن التعاطف مع أهـل المتوفى، فالطعام وسيلةٌ للتعبير عن المشاعر الإنسانية.

شعراءُ يغنّون للطعام

من عادة الشـعراء الشـعبيين مثل عمـر الزعنّي التغني بالطعـام وبالأشربة، فجعلوا من الرغيـف والزيتون والجبن رموزًا للحياة والبسـاطة، فلم تكن الأغاني تسلية حسب، بل كانـت تعبيرًا عن فلسـفة الحياة. إنَّ الطعام مادة للشـعر، والشعر وسيلةٌ للحفاظ على تراث الطعام.

التحدياتُ والآفاق

يواجه التراث الغذائي اللبناني تحديات كبيرة بسبب العولمة وانتشـار المطاعم العالمية، لكن الكتاب يظهر أنَّ ثمة جهودًا لإحياء هذا التراث من خلال السياحة الغذائية والمهرجانات التراثية. وكما يقول جبران: "الأمة التي لا تحافظ على تراثها كالشـجرة بلا جذور." فيصبح الحفاظ على التراث الغذائي واجبًا وطنيًّا وإنسـانيًّا. وعلى هـذا فكتاب "نكهة بيروت" ليـس كتابًا مثلما أَلِفنا من الكتب، إنَّه مرثيةٌ للمدينة التي تحاول أن تحفظ روحها في مواجهة العاصفة، فهو يجمع بين عمق الباحث وروح الشاعر، بين دقة العالم وقلب الحكاء.

و"نكهة بيروت" يسـتحق أن يُقرأ على مَهَلٍ مثلما نتذوَّق القهوة في فنجـان الصباح، إنَّه دعوةٌ لإعـادة تذوق الحياة، لأنفسـنا ومدينتنا وتراثنا. ودراسة أكاديمية، ورسالة حب إلى بـيروت، وإلى جل المدن التي تحـاول الحفاظ على روحها في عصر العولمة.

ومثلما كُتب في "النبي" لجبران: "لكي تفهم العالم، انظر إلى لقمة الخبز، ففيها تاريخ الأرض وتعب الإنسان." هكذا يكون "نكهة بـيروت" نافذة نطلُّ منها على عالمنـا، لنفهم ماضينا ونصنـع مسـتقبلنا. فليحفظ الله بـيروت، وليحفظ كل المـدن التـي ترفض أن تموت، وتبقـى حيّةً في نكهـات طعامها، وكلـمات أهلهـا، وذاكرة أبنائها.

د. نادر سراج

تمثال (كونفوشيوس) حكيم الصين

كيف تغتني الثقافةُ العربيّةُ بالانفتاح على الحضارة الصينيّة*

د. سلطان الزغول*

في عـام 1345م وصـل ابن بطوطة إلى ميناء (تشوانتشـو) في الصين. وأكثر ما اسـترعى انتباهه فيها هو براعة الفنانين المحليين وإبداعهم في الرسـم، وصناعة الحرير، والخزف. ثم زار مدينة (غوانغشتو) ووصف طريقة صُنع السفن الكبيرة فيها، أمَّا مدينة (هانغتشو) في الشمال فتحدث عن سحرها بلا ريب؛ فهي مدينةٌ تجلس إلى جانب البحـيرة الجميلـة التي تحيطها التـلال الخضراء، مؤكدًا أنَّها مـن أكبر المدن التي رآها في حياتـه. ومما أعجبه في (هانغتشو) الأعداد الكبيرة من السفن الخشبيّة التي صُنعت وزُخرفت بعناية فائقة، محتضنة أشرعتها الحريريّة.

ذكر ابن بطوطة أنواع المأكولات الصينيّة. وأثار استغرابه استخدام العملات الورقية في ذلك الزمن الذي لم تكن العملة الورقية معروفة فيه في حواضر العالم، وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ وجود عملة ورقيّة يعني وجود طباعة قادرة على نسخ عدد كبير متطابق من العملة الواحدة تعجز عنه أيادي الناسخين.

* كاتب وباحث أردني

مثّلت هذه الرحلةُ المدهشــة منعطفاً حاسماً في تاريــخ التلاقــي العربي الصينــي. فقد نقلت صورةً واضحةً عن الطبيعة الاجتماعية والثقافية والاقتصاديــة والسياســية لبــلاد غنيــة جميلة، ولشعب خلّاق. ومن أشــهر ما قاله ابن بطوطة عقــب رحلته إلى الصــين: "وأهــلُ الصين أعظمُ الأمم إحكامــاً للصّناعات وأشــدّهم إتقاناً فيها، وذلك مشــهور من حالهم، قــد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه. وأمَّا التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من ســواهم، فإنّ لهم فيه اقتداراً عظيماً... وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالًا للمســافرين، فإنّ الإنسان يسافر منفرداً مســيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة، فلا يخاف عليها."

أكّد كثيرٌ من الكتّاب العرب القدماء على مهارة الصينيين الخارقــة في التصوير. كصاعد الأندلسيّ صاحــب كتــاب «طبقــات الأمــم»، والثعالبيّ والجاحظ، وهذا هو المسعوديّ يقول: "وأمَّا أهلُ الصين فمن أحذق خلق الله كفاً بنقش، وصنعة، وكلّ عمل لا يتقدّمهم فيه أحد من سائر الأمم".

يمتلك الوطن العربي تاريخاً مديداً من العلاقات الاقتصاديّة والإنســانيّة عبر طريق الحرير، وهو تاريــخ قام أساســاً على روابط شــعبية حاولت تحقيــق تفاهم بين الثقافتــين الصينية والعربية

طريق الحرير

تمثال لابن بطوطة يجسّد زيارته للصين

من خلال التبادل الفكري والثقافي بحثاً عن القيم المشتركة ومسارات التواصل العميق.

تجمع الثقافتين الشرقيتين العريقتين قواسمُ روحيّةٌ وأخلاقيّةٌ مشتركة تتمثل في العادات والتقاليد وقيم العائلة، والقيم العليا التي ترسّخها تعاليم (كونفوشيوس) والتعاليم الإسلامية. كما يسند هذه القواسم تاريخٌ من التبادل الثقافي وأرضيةٌ مشتركةٌ لتكوينهما وتطورهما.

إذا كانت الوسطية هي أبرز ما يمثل روح الفكر الكونفوشي الذي بنيت عليه سياسة الصين ومبادئها وأخلاقها، والوسطية والانسجام هما أساس متين في تكوين وجدان الأمة الصينية، فإنَّ الشعار الإسلامي "لا إفراط ولا تفريط" يعبّر ببساطة عن اعتدال ووسطية مشابهة حاول الفكر الإسلامي ترسيخها، سواء على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو الروحي. فالتوازن بين العقل والروح أساسٌ من أسس الحضارة العربية الإسلامية طوال تاريخها. فقد جاء في سورة البقرة: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" (البقرة - 143).

ويشهد الباحث الأمريكي (برنارد لويس) أنَّ

"قدرة الحضـارة العربية على اسـتيعاب الآخر، وتقبـل المتناقضـات المختلفة قد خلقـا حضارةً جديدة اتسمت بالانفتاح والتسامح. فقد قُبلت وجهات النظر المتناقضة، بل تم الاعتراف بالأنظمة الدينيـة القائمـة في المجتمع، وأُعطيـت الحرية للمعتقدات المتعارضة مع الدين الإسـلامي، فلم يتـمّ حظرها أو تضييق الخنّـاق عليها، كما كان سائداً في أوروبا في العصور الوسطى".

خزف صيني

في بدايـات النهضـة الحديثة نهلـت الثقافـة العربيـة مـن الغرب، وترجمت الكتب الأدبية والفلسـفية الأوروبيـة بغزارة، وانفتح العقل العربي على حضارة غربية يمكـن وصفهـا بالمادية. لكن الاتجـاه شرقاً، واسـتعادة روابط طريـق الحرير التاريخي بدأت أخـيراً، وهي تدفع العقل العربي إلى رؤيـة الصورة كاملة، لا جانبـاً واحـداً منهـا. خاصةً وأنَّ الروابـط مع الصين يدعمها التاريخ الثقافي المشـترك والروح والأخـلاق المتشـابهة، والعمق الحضاري العريق. فعلى المثقف العربي إعـادة اكتشـاف عمقه الشرقـي ورحلة أجـداده التي اغتنت بالمعرفة الشرقية.

لقد خضتُ شـخصيًّا تجربةً فريدة قبـل أربعة عـشر عاماً: حيث أتاحـت لي وزارة التجارة

نقش صيني

الصينية و(جامعة نانشـــانغ) الإقامة لمدة شهر في مدينة (نانشـــانغ) صيف عام 2011 كانت كفيلة بقلـــب مفاهيمـــي الثقافية وأولويـــاتي المعرفية. وأكثر ما أعتزُّ به إضافـــة إلى تجربتي الاجتماعية الثقافية الفريدة في التعامل مع الشعب الصيني العريق والصـــافي والمحـــب والمتعاطف قصيدتي التـــي وثّقت أجمل اللحظـــات والذكريات، وهي بعنوان "نانشانغ"، ونشرت في مجموعتي الشعرية

"حضن الأفول" التي صدرت في عمان عام 2019، وتم تناولها في دراسات علمية في عدد من أقطار الوطن العــربي، حيث تعرّف كثيرٌ من الأكاديميين والنقّــاد لأول مــرة على هذ المكان الســاحر عبر صياغته شعريّاً.

ويمكن أن أتناول هنا مقطعاً من هذه القصيدة التي وثّقت علاقتي ب(نانشانغ)، عاصمة مقاطعة (جيانغــشي) الصينية ذات الطبيعة الخلابة، تلك المدينــة في جنوب الصين التــي يخترقها نهر جان جيانغ ليمدّها بالحياة. وطالما قادت الأنهارُ درب الحضارات عبر التاريخ.

" كانت النساءُ تُلقي على ضفةِ النهر البهجةَ
فتكبرُ ماءً يُلقيهِ النهرُ إلى السماء،
فيكبرُ غيماً
يُلقيه الغيمُ إلى الأرض،
فترفعُ النساء مظلاتهنَّ خجلاً من بهجةٍ صارت مطراً يتساقطُ على قلبي...
كنتُ أعجُّ بالغيم يَلْبَسُني حتى أكادُ أن أمطرَ
فتُمْطِرُني البهجةُ غيماً على غيمي
يتراكمُ الغيمُ فأزدادُ دفئاً،
أمشي دون مظلةٍ
تدفعُ كتفي امرأةٌ ... من البلّور الطازج
تحيطني بالبهجة...
تتساقطُ البهجةُ عن شمالي ومن فوقي...
ثم تمضي مع انحسار الغيم.
ألملمُ قلبي عن ضفاف النهر لأرجعَ
أزدادُ عطشا
يزداد قلبي خفقا
تزداد المرأة بهجةً
يزداد النهر ماءً
تزداد السماء غيماً
يزداد الغيم مطراً
يغمر المطرُ الضفافَ ببهجة جديدة
تغمرُني الضفافُ بالبهجة
فيتناثرُ قلبي من جديد
وأعودُ لأجمَعَهُ
تحت مظلَّةِ امرأةٍ تضيءُ الطريقَ
تتقي البهجةَ بمظلَّتها
حتى لا تُغرقَ المدينة..."

لعلَّ في هذه التجربة الخاصة نموذجاً حيّاً على اغتناء الثقافة العربيــة والأدب العربي بالانفتاح على مفردات الحضارة الصينيّة التي طالما شكّلت نبعاً متدفقاً من الجمال والخير.

***(الكلمة التي أُلقيت باســم وزارة الثقافة الأردنية في "مؤتمر التعاون الثقافي والســياحي الصيني العربي" الــذي عُقــد في بكين بتاريــخ 20 أيلــول 2025، الذي نظمه المركز الصيني العربي لدراســات التعاون الثقافي والســياحي بالتعــاون مــع وزارة الثقافة والســياحة الصينيّة).**

للخطاط العثماني راقم

الوصولُ إلى النهضة بالخطِّ العربي

محمد أبو عزيز*

لم يصمّم الفنانُ العربيُّ آليةً ليشتغل عليها، لذا فإنَّ محصلته تتالت ومرّت من خلال طفرة مبدعين بشكل فردي _ مع تفاوت الفترات الزمنيّة، غير منكرين خصوصيات تحلّى بها، فهو على عكس الفنان الغربي الذي جاء نتيجة تراكمات عبر ثورة حطّمت المألوف (السائد في عصره) غير متناسٍ الفنون الأخرى كالفنون اليونانية والرومانية القديمة، فاستفاد منها مما انعكس ذلك ايجابًا على إبداعاته، لقد استخرج من ذاك الزخم المتراكم صياغةً استطاع أن يستثمرها، وغالبيتهم استطاعوا تأليف صياغات نسجوا نهضتهم الحضارية عليها. فالعمود الفقري النهضوي في أوروبا ظاهرةٌ خاطبت العالم بأسره .

* كاتب، خطّاط وفنان تشكيلي أردني

والحرفُ العربيُّ سحر الشرق أولاً، في الحقبة عندما دخل العثمانيون الإسلام، لقد أنهضوه من تقاعسه فاشتغلوا عليه وطوّروه، عندما استعان حمدالله الأماسي (ابن الشيخ) المولود سنة (480هـ /1436م _ 926هـ/1520م) _ بفنِّ التشريح _ وأدخل النِسب للحرف، حينها نال حرف الألف بخط الثلث سبعة رؤوس بمقدار جسم الإنسان _ دخل عالم الجمال _ وهذا يذكرنا في النِسب عند اليونان المأخوذة إجمالاً من النِسب الطبيعيّة، ولكن الحرف العربي بقي ذا ارتفاع وعرض _ ذا بعدين _ ، وتُعدُّ هذه الميزة شرطيّة لأنَّ الشرقيين عموما رضخوا للتسطيح، تجاهلوا رسم الروح لاعتقادهم بأنَّ الرسم من المحرمات، بالرغم من أنَّ هذا ما يقوله البعض كالمستشرقين، وغالباً ما يتنافى مع البيئة العربية والإسلامية، وما تحمل هذه الأقاويل من دلالات ومضامين، فبقوا دهوراً من الزمان متقوقعين ولم يدخلوا عالم التلوين والتجسيم، تمترسوا بخندق الرسم (الجرافي) الذي يعتمد على الخط _ line، ونلحظ بأنَّ التراكيب والتكوينات بدأت تنضج ويشترك بها الرسم والخط كعمل تصويري يحمل في طياته دلالات دينية مستوحاة من الوظيفة ذاتها.

كما ويشير الخطّاط المرحوم هاشم البغدادي بأنَّ حمد الله الأماسي كان أستاذاً في الأقلام الستة، وكتب سبعة وأربعين مصحفاً، كما كتب العديد من الأنعام الشريفة والقطع والمرقعات والأمشاق وغير ذلك.

ثم جاء الحافظ عثمان (1052هـ_ 1111هـ/ 1642م_1699م)، وهو واحدٌ من عباقرة فنِّ الخطِّ العربي والمعروف بحافظ القرآن، فأبدع في مجال خط النسخ، إذ أضاف له العديد من التنميقات الجمالية، حيث ضبط الحروف برصانةٍ وأسلوبٍ فريد آنذاك، كما يُقدّر نتاج الحافظ عثمان (25) مصحفاً أو ما يقاربها، وكتب الأنعام ودلائل الخيرات والرقى والألواح الخطية وكثيراً من الأحاديث الشريفة، ويُقدّر مجموع نتاجه الخطّي بما يقارب (1500) نتاج خطي، كما جاء في مدونات الخطّاط الأستاذ هاشم البغدادي رحمه الله.

ربما حظي العرب والمسلمون من دخول العثمانيين هذه المساحة _ عالم الخط العربي _ التي استطاعوا وبعدما اكتسبوا العديد من التعاليم على أيدي الخطّاطين البغداديين والفرس، أن يستقوا منهم فاعتكفوا في صوامعهم، إلى أن أدخلونا في روح هذا الفن، وكان لهم دورٌ في إرسال- وبشكل فردي- بعض الخطّاطين ليقوموا بتزويد عالمنا العربي والإسلامي بجمالياته، عندما أُوفد الخطّاط عبدالله الزهدي إلى منطقة الحجاز لكسوة الكعبة الشريفة والحرم النبوي الشريف من قبل السلطان عبد الحميد خان، فقد بقي

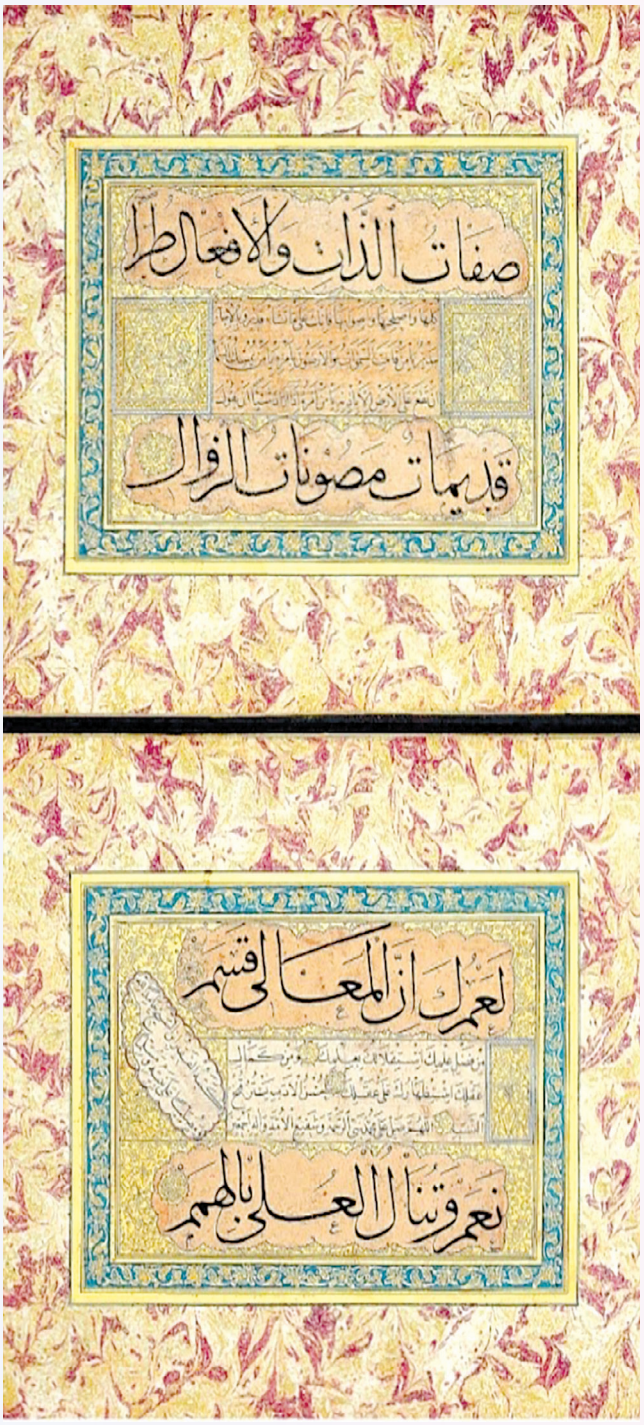

للخطاط حمدالله الأماسي

في الحجاز عشرة أعوام ثم سافر إلى مصر، وله العديدُ من الكتابات على المساجد وغيرها ...

ثم أوفد السلطان عبد الحميد الخطّاط محمد شفيق إلى الأراضي الفلسطينية عام1258هـ (للكتابة على المسجد الأقصى وقبة الصخرة)، وبقي محمد شفيق في المنطقة المذكورة ما يقارب الستة أعوام، وأكملها وعاد إلى إستانبول كما تؤكد العديد من المصادر.

سنعرج على الخطّاطين العثمانيين بهذا السياق من خلال تزويد المتلقي العربي- ما أضافوه لروح فننا العربي والإسلامي-، بالعديد من المخطوطات التي نتمنى من القارئ العربي التمعن بها وتذوقها من الناحية الجمالية.

كما سنضيف لهذا التنوّع أبرز الخطّاطين الإيرانيين بهذا الفن الذي يوازي الموسيقى من الناحية الإيقاعية لحروف العربية، وبهذا الصدد نود الإشارة إلى أنَّ كتاباتهم بلغتهم أكثر رصانةً وإيقاعاً من كتاباتهم بلغتنا المفاهيمية، بمعنى إذا تمعنا بخطهم سنعرف مدى تقبل تلك الحروف لبعضها إيقاعيًّا وبصريًّا. وهذا ربما فيه سرٌ للغة الخاصة التي يتحلون بها. كما أنَّهم ما زالوا يحافظون على أحبارهم وأوراقهم المُقهّرة.. وزخارفهم ومنمنماتهم التي تزيدك سحراً وحياة.

وفي الألف سنة الأخيرة، تدخل الزخرفة

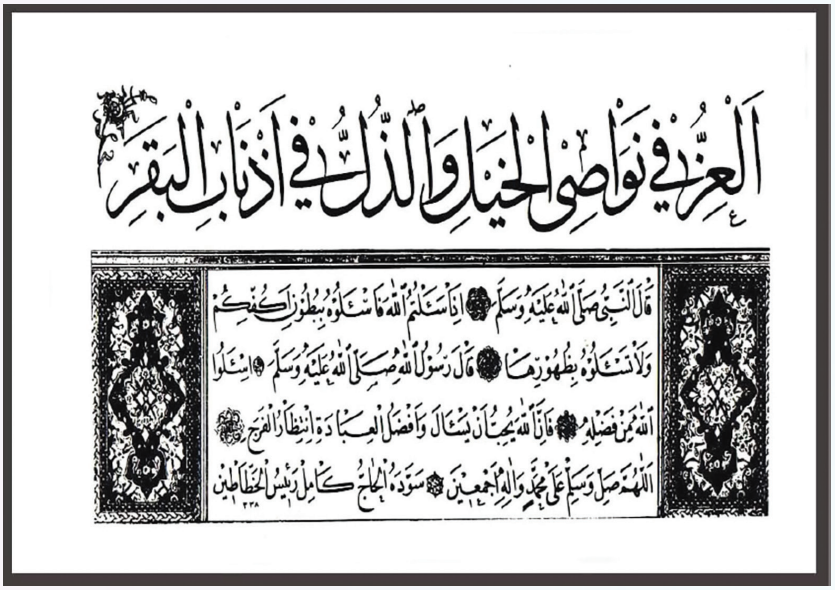

للخطاط العثماني أحمد الكامل

والتذهيب في فنِّ التصوير غير المنفصل عن الجرافي الملوّن.. فالمفردات تتكـرر وتتوالى إلى ما لا نهاية، لأنَّهـا نابعةٌ عن عالم الرّوحانيـات. وكما أنَّها ذات مدلـولات تؤدي إلى الوحدانيـة، وأنَّ خالقاً بديعاً وراء هـذا الكـون، لأنَّ التواصل اللانهـائي يحيلنا للاستمرار والديمومة ...

ولو تتبعنا الحقب التاريخية.. سنجد بأنَّ الكتابة العربيـة ابتدأت مجردة ـ إن جاز القول ـ ومن ثم أخذت تتضح شيئاً فشيئاً.. إلى أن أصبحت ما تعرف عليه الآن بالكتابة الكلاسـيكية.. وهذا سيضعنا في مواجهة مع الفن الأوروبي الذي تسلسـل بطريقة مضادة لفننا العربي... فهم نبعوا من الكلاسـيكية إلى أن دخلوا عالم التجريد.

كـما أنَّنا لا نعول على القراءات التي تتحدث عـن الخط كونـه فنّـاً تقليديّاً محضـاً، لأنَّ ذلك يحتاج إلى عين مدربة وتتمتع بموسـيقى لا تحضر إلا بالخط العربي، فالحروف تتوالى وتشـكّل لحناً خاصـاً، يحتـاج كل حـرف القياس نفسـه الذي تحتاجـه (النوتة الموسـيقية) كي لا يضر الحرف _ مـن ناحية القياس أو الميزان، فإذا اختلف الحرف مـن ناحية الهيئة التي يُبنـى عليها لاختل الوزن، وأصبح في غاية النفور (Averse to).

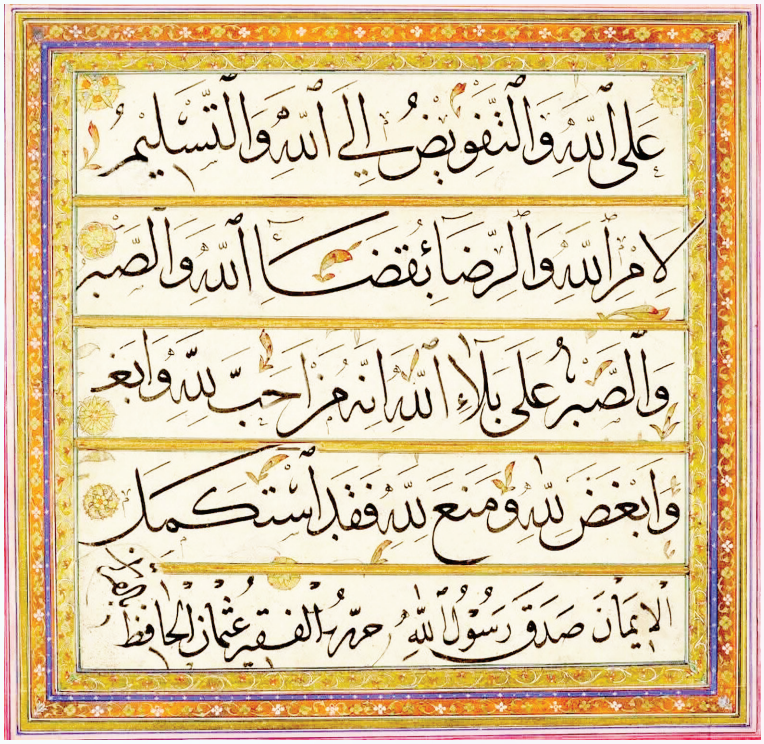

الخطاط العثماني الكبير حافظ عثمان

وثمة فنانون أوروبيون أمثال: (بول كلي، بيكاسو، فان كوخ، ماتيس، غوغان، تابيس...) وغيرهم، استقوا مواردهم من فنون الشرق القديم.. مما هيأت لهم مُناخاً غنيّاً لا سيّما استلهام الكتابة وتجلياتها: حرارة الشرق والنور، التوليف، الترداد البصري، الأبعاد الخاصة للفن العربي الإسلامي.

في وقتنا الحاضر، هناك العديدُ من التيارات الأوروبية خاصةً في إيطاليا أخذت تنصاع عودةً إلى الفن الكلاسيكي لما له من مكانة رفيعة وصحية لا ينبغي الاستغناء عنها.

أمَّا نهضتنا فهي بحالة مستمرة وغير متناهية بالرغم من هذا الزخم التقني والتكنولوجي الذي أصبح يشوّه ويزعج البشرية. إنَّ العلم في حالة من التطوّر السريع.. وما زال الفنان العربي ـ خاصةً المسلم ـ يتشبث بهذا الفنّ (الخط العربي) لأنَّ القناعة لديه تجعل منه المعطى السليم في البحث عن ماهية الحقيقة بهذا الوجود.. فالانحياز له هو الإبداعُ الذي يبني عماد الأمة ويجعلها تتباهى بما تمتلك من كوامن زيٍّ خاص يسترها من أية شوائب دخيلة.

كتابةُ الرؤيا: رؤى ومقارباتٌ بالحبر الحرّ والقلم المشاكس

البشير عبيد*

كيف تبدو الكتابةُ كِيَانًا مستقلاً، ومُغايرًا لِحَيْثِيّاتِ الواقع في ذهْن صَانِعِها الكاتب المُبْدِعِ؟.

هذا هو السُّــؤالُ المِحْــوَرِيُّ الحارقُ الضّارب بعُمق في مُخيّلة الكائن البــشري المُثَخّن بطقوس الكتابة الإبداعيّة ومُناخاتِها، المؤثَّثة بالأماكن القريبة والقصية، وبالأيام الخوالي المنبعثة منها خيبات الإنسان، وانكساراته، ومواجعه، الحالم بعالم خالٍ من الحروب والاضطهاد والاستغلال والاستبداد..

فالكتابةُ الإبداعيّةُ ها هنا هي البوصلة الحقيقيّة، والمنارة التي تشــعُّ منها مســاراتُ الضّوْءِ، الطّالع من أنْفاق الظُّلُــماتِ، المُبَدِّدة لــكل الغيوم المتراكمة في جل الجهات، شرقًا وغربًا، شــمالاً وجنوبًا. منــذ القدم، كانت علاقة الإنســان بالكتابة مُعَبِّرةً عن جوهر الصراع الدائر في كينونة هذا الكائن بين معسكَرَيْن مُتَضادّيْن: مُعسكرِ الحُرّيَّةِ، ومُعسكرٍ غارقٍ في أوحال العبودية. في هذه الوضعيّةِ حاوَلت الأصابعُ المُمْسِكةُ بالقلم والأوراق أن تخُطَّ إبداعاتٍ شــتّى؛ شعرًا ونثرًا، فكْرًا بعيدًا عن أســوار الحصار المضروب على قلاعٍ مُحَصَّنَةٍ، مناهضة بطبيعتها لإعتاق الإنسان من كل ضروب التّهميش والتّنكيل والتّشريد والاضطهاد... هذه الأصابع المكتوية بجمرات الواقع، لا تســتطيع أن تنــسى أو تتناسى الأســئلة الحارقة المؤثثة لجوهر الكتابة الإبداعيّة وما تحملــه من دلالات التّجاوز والخروج من النَّفَق المُظْلِمِ إلى الأضواء الساطعة.

* شاعر وباحث تونسي

الكتابةُ وتجليّاتُ الرحيل

قد يبــدو هذا الوصــفُ غامضًــا حدَّ الإبهــام، لكنَّ المُتَمَعِّنَ في مســاراتِ الكتابة الإبداعيَّــةِ، منذ البدايات الأولى للتاريخ الإنســاني، يلْحظُ مباشرةً، ودون عناء كبير، الارتباط العضــوي والمركزي والجدلي بين طقوس الكتابة ومُناخاتهــا وتقنياتهــا، ورحيــلِ الأفــكار والقِيم المُنْبَعِثة منها إلى كل الأمكنــة والأقاليم، في أصقاع الأرض كلِّهــا. يحــدث الرحيــل ها هنــا تقنيًّا ومعرفيًّــا، ويقع التجاوز لإحــداث النُّقلة النّوْعيّة على مستوى الأفكار ومنظومات المعرفة، لتكسير (ثقافة) السائد/ الموجود، والذهاب عاجلاً وآجلاً إلى العــالم المنشــود الغــارق في بيــاض البهاء. هذا هــو الرحيل الاســتثنائي، ومــا يحملــه مــن مقاصــد التّضــادِّ مــع الواقــع ومناهضته على كل المســتويات؛ فكريًّــا ومعرفيًّا، لإخراج الكائن الإنســاني المُراوح مكانَهُ وكأنّــهُ معزُولٌ عن بِقاعِ العالم كلِّهــا، وحيْثِيّات تَرَاكُماتِهِ المَوْبوءَة بالطعنات والانكســار، وحمْل الأجْسادِ المُنْهَكَة إلى تخــوم الأمل وتناغُم الذّاتِ مَعَ العَالَمِ ، والخُرُوج مِنَ العُزْلَةِ، والانْفِتاح عَلَى فَضَاءَاتِ البَهَاء.

في اللّحْظــةِ الفارقــةِ الّتــي يحْيَاهَــا المُبْــدِع، يكون بالضَّرورة مُمْســكًا بــأَدَوَاتِ التَّفرُّدِ وَتَقْنِيَاتِــهِ، طَالَمَا أَنَّ طُمُوحَــهُ اللاّمُتَنَاهِي هُوَ الذّهَــابُ بِنَصِّه "الإبْدَاعِيِّ" إلى أقَاصِي الكَــوْنِ، وَآخْتِرَاقُ المَنْظُوماتِ وَالأَنْسَــاقِ المَعْرِفِيّةِ والحَضَارِيّــةِ جميعًــا. ولا يُنْجَــزُ هــذا العملُ الشّــاقُّ والمُضْنِي إلا بإتقان "المُثاقَفَةِ" ومُحَاوَرَةِ ما أبْدَعتْه الأُمَمُ، والحَضــاراتُ، والأعْــراقُ، عبْر التّاريخِ القديمِ والوَسِــيطِ والحديثِ وَالمُعاصَرِ...

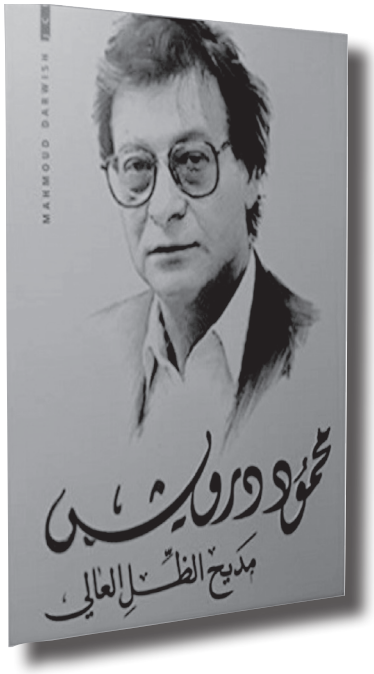

فالمَوْهِبَةُ، ها هُنا، هِيَ بيْتُ القَصيدِ، أوْ مَرْبَطُ الفَرَسِ، في الكتابــة الإبداعيــة، ومِيكَانِيزْمَاتِهَــا، وَحُضُورِها اللاّفِتِ فِي شَــخْصِيّةِ الكَاتِب/ المُبْــدِعِ، ليُعْطِــيَ لِعَمَلِيَّــةِ بنــاءِ النَّصِّ الإبْدَاعِيِّ- تَقْنِيًّــا وَجَمَالِيًّا ومَعْرِفِيًّا- نَصًّا زاخِرًا بالإضافَةِ، والتَّجَاوُزِ، والتَّفرُّدِ، الأمْرُ الّذِي يَجْعلُ هذَا النّصَّ في قِمّةِ التّماسُكِ، مَبْنًى ومَعْنًى، شكْلًا ومُحْتَوًى. فالكتابةُ الاِسْتِثنائِيّةُ هي الثّمْرةُ الطّبِيعِيَّةُ لِعَمَلِيَّةِ التّخْيِيــلِ، وَخَلْــقِ التَّنَاغُمِ، والتّنَاسُــقِ بيْنَ المِعْــمَارِ الهَنْدَسِيِّ وَمَقَاصِــدِ اللُّغَةِ، وَتَجَلِّيَاتِهَــا الفَنِّيَّــةِ، وأبْعادِهَا الجَمَاليّة، ومَا تحْملــه دلالاتُها مِــنْ رحِيلِ الكلامِ المَكْتُــوبِ بِرَحِيــقِ الخَيَــالِ الخَلاّقِ إلى مدَارَاتِ الحُلمِ، ومَرافِئِ الدّهْشةِ.

فالكتَابةُ الخَارِجةُ عنْ سِــيَاقِ السّائد ورتابته، وفَجَاجةِ الواقعِ هِيَ المُحَقِّقَةُ بالضَّرُورَةِ لِإبْدَاعِيّةِ النَّــصِّ المَكْتُــوبِ بالأَصَابِــعِ المَكْتُوِيَــةِ بِجَمَــرَاتِ القَاعِ الاِجْتِماعِــيِّ، والمُؤَثِّثةُ في اللّحظة نفســها بتقنيّات اللُّغةِ، الحَالِمــةُ المُبْحِرةُ في مِيَــاهِ النُّورِ. لَا نَســتَطيعُ أنْ نُحَقِّقَ الحَبْكَةَ الفنِّيّةَ والمِعْمارَ الهنْدَسِيَّ الرّشــيقَ لِنَصٍّ إبْدَاعِيٍّ، شِــعْرًا ونَثْرًا، إذا كان الواقع بِــكُلّ تعْقِيدَاتِهِ وتعْبِيراتِهِ في حالــةِ غِيَابٍ، بلْ، الأَحْرى بِكاتِبِ هذا النَّصِّ أنْ يُثَابِرَ مِنْ أَجْلِ خلْقِ تَنَاسُقٍ بيْنَ المَبْنى والمَعْنَى، لِنلْحَظَ مِنَ الوَهْلَةِ

الأُولَى الاِنْصِهَارَ الكَامِلَ بيْنَ الاِثْنَيْن.

الإبداعُ والمأزقُ الإنسانيُّ

إنّ الكِتابةَ الإبْداعِيّةَ، مِثْلَمَا أكّدنَاَ سَــلَفًا، هِي الحامِلةُ للْبَوْصَلَةِ والمُعَبِّرَةُ عنْ تناقُضاتِ الحَيَاةِ ومفارقاتها وَخَيْبات الإنْســانِ وانكســاراته، بلْ هِيَ المَرْآةُ الَّتِي تَنعْكِسُ فيها تفاصيلُ المَشْهدِ الإنْسَانيِّ كله: نرى الموْتَ والألَمَ والجُرْحَ والفَرَحَ والأمَــلَ والحَنِــينَ والفِقْدانَ والحِرْمــانَ والقَهْرَ الاجْتِماعِيَّ المُنَاهِضَ لِقِيَمِ التّقَدُّمِ وَالعدَالةِ والمُساوَاةِ.

بهذهِ الشّاكلةِ تُعْطِي الكتابةُ نَمُوذَجًا فَرِيدًا لِمُنْتَجَاتِ إبْداعيّةٍ مُغايِرَةٍ وَمُفارِقةٍ ومُشاكِســةٍ للإنْسانيِّ في مشْهدِ الحَيَاةِ المُنَخَّنَةِ بالتّنَاقُضاتِ الصّارِخَةِ :الكاتبِ/المُبْدِعِ الحُرِّ سَــوَاء كَانَ شاعرًا أو قاصًّا أو رِوَائيًّا أو مُفكِّرًا، لا يستطيعُ أنْ يَكْتُبَ نُصُوصَهُ خارجَ سِــيَاقِ اللّحظةِ التّاريخيّةِ الّتِي يحْيَاهَا، بلْ مِنْ أبْجَدِيّاتِ الكِتابَةِ الحُضُورُ الطّاغِي لِلْوَعْيِ التاريخــي، وإتْقانُ الإمْســاكِ بِقضَايَا المَرْحَلَــةِ، والوُلُوجُ بِذكاءٍ نَادِرٍ إلَى المَنَاطِقِ الوَعْرةِ الّتي تُمَثِّلُ حجَرَ الزّاوِيَةِ بيْنَ الوَعْيِ والذاكرة والحرية، واســتِحْداث التّقنيَاتِ لإعطاء هذا الثّالوث الذّهَبِيِّ أبْعَادًا جمَالِيّةً وســفَرًا عجَائِبِيّا إلى مَبَاهِجِ الحُلمِ وعَتَبَاتِ النُّورِ، لإخْراجِ الكائنِ البَشريِّ مِنْ مآزِقِه وانْحِداراتِهِ وإدْخالِه طَوَاعِيّةً إلى الحُصون والقلاع المُضيئة، حيْثُ الأنْوَارُ الآتِيةُ من تَشابُكِ اللّغَة وتقاطعِها مع الواقع والوعْيِ التّاريخي، دون نِسْيان الفكْر النّقديِّ والرُّؤْيَةِ المَعْرِفِيَّةِ. هذه العناصرُ المُتشــابِكةُ هي المُحدِّدَةُ لإبداعيّةِ النّصِّ، وجَعْلُهُ كِيَانًا لُغَوِيًّا مُستقلاً بذاته ومُحلِّقًا في ســماوات جمال الفنّ. لــوْ لمْ تتوفّرْ هذه العناصرُ لَمَا قرأْنَا (مديحَ الظِّلِّ العالي) و(ذاكرةً لِلنّســيانِ) و(غِنائيّةَ أحمد العــربي) للراحل الكبير محمــود درويش. كذلك الأمر، لوْ لمْ تكن هذه العناصرُ مُتَنَاغِمةً ومُتناسِــقةً حدَّ الاِنْصِهَــارِ، لَمَا أصَابَتْنا الدّهْشَــةُ لحْظــةَ قِرَاءَتِنَا لـ(شرْقِ المُتَوَسّــطِ) و(أرض السّــوَاد) لِعِمْــلاقِ الرِّوَايَــةِ العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ: عبْدِ الرّحمن مُنيف.

وَاضِحٌ إذنْ، أنَّ لا كتابةً إبْداعِيّةً مشْهُودًا لَها بالحَبْكةِ الفَنِّيَّةِ الفريــدَةِ دُونَ وُلُوجِ مَجَاهِــلِ الواقع وتعْقيداتِهِ وقضَايَاه المُتعدِّدةِ. فالكاتبُ المُبْدعُ الحُرُّ هو المُتمرِّدُ علَى كُلِّ شَيْءٍ، والذاهِبُ بأحلامِهِ إلى أقاصي الدُّنْيَا، حاملاً بيْنَ يديْهِ جمَالِيّاتِ اللُّغةِ المُشْتهاةِ، وَوَاضِعًا أقْدامَهُ على أرْضٍ صُلْبةٍ أساسُــها الوعْــيُ، والذّاكرةُ، والتّحَــرُّرُ الاجتماعيُّ، لإخراج الكائنِ الإنســانيِّ منْ انكساراتِهِ وخَيْباتِهِ، وجَعْله أكثرَ قُدْرةً على مُوَاجَهَةِ قُوَى القهْرِ والاسْتغلالِ والإحْباطِ والخُنُوعِ والخُضُوعِ لأوْضَاعِ العُبُودِيّةِ المُعَاصِرَةِ...

هكــذا رأينا كبارَ الكُتّابِ المَوْهُوبِينَ، شرْقًا وغرْبًا، مِنْ كُلِّ الأُمَمِ والحضــارَاتِ والأعْراقِ، يخُوضُون مَعَارِكَ كُبْرى وقاسِيَةً، ضِدَّ أعْداءِ الحياة، لكَيْ تَصِيرَ هذِهِ الأخيرةُ جديرةً بأنْ تُعاشَ في سِيَاقِهَا الإنْسانيِّ الطّبيعِيِّ.

صفوةُ القول

إنَّ الكتابةَ الإبداعيّة هي الحياةُ، ومِحْورُها الإنســانُ ومرْكزُهَــا الحُرِّيَّةُ، وأسَاسُــها العَدَالــةُ وعَمُودُها جمالُ اللُّغةِ عبْر اسْتِحداثِ المُبْتَكَرِ في التّعْبيرِ والمقاصِدِ والمَعَاني. إذنْ، في هذا المسارِ حتمًا سنصل إلى مرافئ الحُلمِ، حيثُ اليَنَابِيــعُ والتِّلالُ والحدائــقُ والأنهارُ والسِّــلْمُ والأمَانُ، وتختفي مِنْ مشــهدِ الحيَــاةِ، افتراضِيًّــا وجَمَالِيًّا، صُوَرُ الانكِسَــارِ والآلَامِ المُتَنَاسِلَةِ هُنا وهُناكَ... الحِبْرُ المُشَاكِسُ هــو بوْصلَــةُ الاتِّجَاهاتِ المُتَشَــابِكةِ. والقَلَــمُ الحُرُّ هو القلْبُ النّابِضُ الصّاعِدُ إلى الأعَالِي، والذّاهبُ إلى الأقَاصِي والمُسَافِرُ إلى كلِّ الأقَالِيم.

الروائي إبراهيم نصرالله

تجربةُ إبراهيم نصر الله الروائيّة: بين ترميم الوعي وحفظ الهُويّة

نور بني عطا *

يقف إبراهيم نصر الله في تجربته الروائيّة على النقطة المنصفة لمسار الزمن، متحسّرًا على ماضٍ يُعدُّ الأفضلَ في ظلِّ ما يُشاهد في الحاضر البائس، ومستشرفًا مستقبلاً دستوبي الحال والمآل، لذلك يمم إبراهيم نصر الله وجهه دون تردّد نحو الماضي، وفتح الباب على مصراعيه أمام الذاكرة والخيال، تاركًا لهما رسم المشهد المبتغى، على نحو جعل الجمع بين الجانبين السير ذاتي والآخر الروائي- بتقديري- مميزًا ومن مميزات تجربته التي قدمها عبر العديد من أعماله الروائيّة، وجاء هذا النسيج بدون تصريح وميثاق، متوافقًا مع الفكر الأدونيسي في "الثابت والمتحول". ومبدؤه في فكرة التجاوز الدائم نحو الإبداع، لغاية أسرَّها نصر الله في سطوره، لحين مرور بعض السيّارة.

* كاتبة وباحثة أردنية

وفي محاولتي لممارسة فعل القراءة، أجد نصر الله يسعى إلى تخليد الملهاة الفلسطينية عبر سرد يجمع فيه بين الجانبين؛ السير ذاتي، والآخر الروائي؛ ليتحرّر بذلك من السرد التفصيلي، والواقعي، قدر الإمكان، ففي بنائه الشخصيات نراه يراوح بين الخاص والعام، فيحرك الأحداث عبر شخصية بعينها، على نحو يجعل القارئ قريبًا منها متعاطفًا معها، ثم يلجأ إلى تعميم ظروف هذه الشخصية، وذلك بدمجها مع شخصيات كثيرة مماثلة لها في الهم الجمعي، على نحو يمكنه من إشعال فتيل الأحداث على مسمع القارئ الواعي، غايته من ذلك الحفاظ على هُوية حاول، ويحاول المغرضون طمسها في زمن القطيعة.

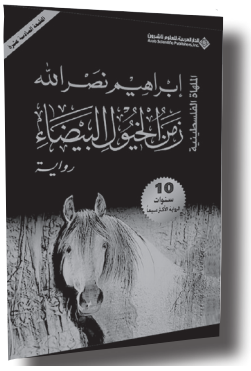

فطفق نصر الله إزاء ذلك يخصف على الحاضر والمستقبل من ورق الماضي، في محاولة منه لاسترجاع قيمة الذات عن طريق الحسّ بالاستمرار، بعد التغيّرات الجذرية التي أصابت الحاضر، وتلك المرتقبة في المستقبل بصفتها نتيجةً حتميّةً؛ فالماضي بالنسبة للإنسان العربي هو الأشبه بعالم المُثُل الأزلي المتصف بالصفات التي رسمها أفلاطون لجمهوريته. لذا، فإنَّنا نجد الميل إلى الخلود في الماضي عند نصر الله رؤية لطالما راودت الكثير من المبدعين، وسبق أن تعاملنا معها في الكثير من النصوص من قبل، ولكن ما يشغلنا هنا هو الأسلوب المعبِّر عنها.

الذاكرةُ والمتخيّلُ

فيتكئ إبراهيم نصر الله في رؤيته هذه على ثنائية الذاكرة والخيال، ليعالج بها دستوبية الواقع في حاضره، ومستقبله، فنجده يحاول إضاءة قناديل الماضي ليشع بريقها نحو الحاضر المظلم، فلطالما أرهق الحاضرَ العربيَّ ظلامُ الخيبات والانكسارات المتلاحقة، وليستشرف بالتالي مستقبلاً أفضل من المتوقع، منطلقًا في ذلك من وعيه بمدى أهمية التاريخ في خدمة ما يرمي إليه من مضامين، لا سيّما وأنَّ الوعي هو منطقة الأفكار التي يتصل بها الكاتب قبل الشروع بالكتابة. وبهذا يمكننا القول: إنَّ نصر الله - فيما يبدو- شكّل معماره الروائي على استثمار الماضي في استنهاضه الهمم لإنقاذ ما تبقى من الحاضر والتأسيس لما هو آت في المستقبل، بهدف التخفيف من حدّة الحاضر المخيّب للآمال، والبناء عليه في المستقبل.

وتشكّل ثنائيةُ الذاكرة والخيال معًا في أعمال نصر الله مفارقةً مهمّةً؛ ففي ظلِّ تأرجح حضورهما وغيابهما صاغ الكاتب مضمون النص، وعليه، يمكننا عدّ تقنية نصر الله في استحضاره الماضي بكل مكوناته عبر الذاكرة المتخيلة بمثابة مضاد للنسيان والضياع والاندثار، ويأتي هذا انطلاقًا من إيمانه بإشراق الماضي وازدهاره مقابل انحطاط وضع الحاضر، وقياسًا عليه المستقبل، ويظهر هذا في مرائي (حرب الكلب الثانية) مثلاً، إذ إنَّ نصر الله قدّم الحاضر والمستقبل في صورة دستوبية تمامًا، بالمقابل كانت الأحوال في الماضي أفضل إلى حدٍّ ما.

الذاكرةُ والنسيان

ولا تنطوي الذاكرة المتخيلة عند نصر الله على هدف "النستولوجيا" فحسب، وإنَّما هي نوعٌ من الاختراع

التخييلي للـماضي، قاصدًا بذلك اسـتنهاض الوعي لدى المتلقي، لذلك لا نجده يقتصر على الذاكرة الفردية، وإنَّما يرتكز بشـكل أسـاسي على الذاكرة الجمعيـة؛ فيتأرجح متعمـدًا بين الذاكرة والنسـيان؛ ليحقّق غايته في اختراع ماض بطولي يواجه به النسـيان والأعداء، فبين النسـيان والتذكر منطقه مراوغة نسـج عليهـا إبراهيم نصر الله حكاياته.

وعليـه؛ حمّـل إبراهيـم نصر اللـه رواياتـه أحداثًا وشخصياتٍ صنع بفعلهم "أدب الذاكرة" وشكّل على أثره ظاهرة "ذاكـرة الأدب" بهدف الحفاظ على الهُويـة الزمكانية، لتكون سـلاحًا يُشـهر في وجـه من يسـعى إلى طمس الهُوية الفلسـطينية، والحقوق العربية، والإسـلامية في فلسطين، وهذا ما يتضح من خلال فكرة الكاتب في رواياته -على سـبيل الذكر لا الحصر- "طيور الحذر"، و"طفل الممحاة"، "حرب الكلب الثانية"، و"زمـن الخيـول البيضـاء"، و"قناديل ملـك الجليل"، و"طفولتـي حتى الآن".

إذ نجده يعتمد فيها على الماضي، فيحاول أن يسـترجعه ويخلده في الحاضر والمسـتقبل، المسـتقبل الذي لا يراه إلا ارتدادًا لخيبات الحاضر. فبعد الرؤية الدستوبية التي قدمها في روايته حرب الكلب الثانية إزاء الزمنين الحاضر والمستقبل، نجده يكمل مشروعه في "طفولتي حتى الآن" وذلك في استدعائه الزمن الماضي، وسعيه إلى استمراريته في الحاضر وضمان خلوده في المستقبل.

الماضي هو الهُوية

فتظهر رؤية نصر الله الفنية هذه من خلال سـيطرة عامل الزمن على رواياته ككل؛ ففي رواية "حرب الكلب الثانيـة" تمثلت هذه الرؤية في تخيله عبر مرايا ضريرة ما ينتظر الماضي والحاضر من مستقبل، فنجده بذلك يعلن بعد وعيٍّ تـام أنَّه يتمنى خلود الماضي وضمان ديمومته. وتكتمـل الفكرة ذاتهـا في روايته "طفولتـي حتى الآن" إذ يـصرح في بدايتها بقوله: "إنَّنا أصبحنا شـعبًا محكومًا بالخـوف على الماضي وكأنَّـه لم يعد لدينـا غيره لإثبات الوجود".

لـذا، فإنَّنـا نجـد نـصر اللـه لا يعتمد عـلى تقنية الاسترجاع فحسب، وإنَّما على إيقاف الزمن في المـاضي حرصًـا منه على جعـل الماضي حاضره ومستقبله؛ غايته من ذلك الحفاظ على الهُوية نتيجـة القلق والخوف اللذين يسيطران عليه، بفعل وعيه بما يدور حوله؛ ففعل الرؤية والمشـاهدة لم يتحقق له إلا عبر مرايا ضريرة، وبطبيعة الحال، فإنَّ هذه المرايا لم ولن تعرض عليه سـوى انعكاسات لمشـاهد سـوداوية مظلمـه في الزمنـين؛ الحاضر، والمستقبل.

روايةٌ أم سيرة!

إنَّ روايات نصر الله تجعل القارئ يشكُّ أحيانًا في أنَّه يتأرجح بين فنّي الرواية والسـيرة؛ ففي روايته (طفولتي حتى الآن) يشعر القارئ أنَّه لم يرد للطفولة أن تنجز، بل جعلها معلقةً إلى الآن، لغاية لا يصل إليها إلا من يحفر في طبقات أنساق تجربة نصر الله الإبداعية، باحثًا عن آثار انعكاس الجذور المرجعية الضاربة في أعماقها، فما يكتبه نصر الله يُعدُّ انعكاسًـا لمرجعيات متعدّدة السـياقات. لذا، تُصنف روايات إبراهيم نصر الله ضمن روايات تيار

الوعي؛ إذ إنَّها بمعمارها تكشــف عن الجوانب النفسية والذهنية للكاتب المتغلغلة في ذاتها، ويظهر هذا جليًّا في تعامله مع الماضي كأحد أهم المقومات السياقية الرئيسة فيها، في إطار محاولته لضمان التلاقي بينه وبين الحاضر والمســتقبل، فرؤية نصر الله هذه تقــارب -إلى حدٍّ ما- رؤية (أوغسطين) للزمن في اعترافاته، تلك الرؤية المتمثلة في أنَّ حضور الماضي وخلوده تضمنه الذاكرة المتخيلة.

ولأنَّ روايــات نصر الله -بحســب تقديري- تشــكّل تسلســلاً فكريًّا، فإنَّه من الممكن دراستها كظاهرة كلية مثلما دُرســت ظاهــرة النظام الأبــوي في ثلاثية نجيب محفوظ مثلًا، فأعمال إبراهيم نصر الله تُعدُّ من الأعمال الروائية التي استثمرت الماضي بفعل إحيائها بعض الشــخصيات والأحــداث المهمــة فيه؛ وذلــك لإيمان الكاتــب العميق بــأنَّ ضمان الشــعور بالاستمرار لا يمكن أن يتم إلا باللجوء إلى الماضي، وبأنَّ الارتكاز على الماضي أســاسٌ متينٌ وأمرٌ مهمٌّ للتخلص من خطر تردي الحاضر والمســتقبل، خاصــةً أنَّ التاريخ بالنسبة لمن يكتب في القضية الفلسطينية ضرورة وليس خيارًا؛ فالهُوية والوجود أمران مســتهدفان بشكل مباشر من طرف عدو صهيوني غربي مشترك، يحاول جاهدًا إزالة هــذه الهُوية ومحوها ومحو كل ما يذكّر بها في الوجود، وذلك بطمس الماضي وإحلال الحاضر الزائف المناســب لمراميه ومطامعه.

أي أنَّ الزمــن الذي وظفه نصر اللــه في هذه الرواية هــو زمنٌ نفــسيٌّ، فكانــت تجربته هذه أشــبه بتجربة (مارسيل بروست) في روايته "البحث عن الزمن الضائع" وهو بذلك يدخل في دائرة الفلســفة وعلم النفس بفعل موازنتــه مفهوم الزمن بــين؛ الفلســفة، والأدب، وعلم النفس. متجــاوزًا بذلك جريان الزمن مــن نقطه بداية إلى أخرى تعلن بدورهــا النهاية بفعل الذاكرة المتخيلة، على نحو يشــير إلى مدى الخبرة التي اكتســبها نصر الله مــن التجارب الحياتيــة المحيطة، إذ إنَّهــا جعلته يعمد إلى أزمــان متنوعــة متداخله تمكّنه من تجســيد الحالة الشعورية التي يحمّلها شخصيته الروائية.

فنجــد إبراهيم نــصر الله بذلك يعيــد علينا ما قاله (بــول ريكــور) (1913 - 2005) في كتابــه "الذاكــرة والتاريخ والنســيان" من علاقة بين الوعي والذات والهُوية جاعلاً من الذاكرة الرابط والجسر الــذي يوصل بينهــا، وفي الوقت نفسه جعلها هي الراسم لتخوم الاختلاف والتنوع بــين الهُويات ســواء على صعيد الأفراد أو الجماعــات. وكذلك يعيد علينا ما قاله (هنري برغسون) (1859 - 1941) من أنَّ الذاكرة التــي يعتمد عليها ذاكرة تصويريــة تقوم على تخزين الماضي وتحيا بــه في ديمومة مســتمرة، انطلاقًا مــن أنَّ الزمن الماضي بطبيعة الحال هو الفردوس المفقود للإنســان العربي، إذ نجده دائمًا ما يعود إلى أحضانه ويركع في محرابه؛ هروبًا من تطورات الحاضر والمستقبل، غايته من ذلك مختلفة عما تظهره الأحداث من نظرة تشاؤمية، على نحو يمكننا من قراءتهــا على أنَّها محاولة لفت نظــر للمتلقي نحو مآلات الزمن بمراحله الثلاث، وذلك بهدف إيقاظ الوعي لديــه على أمل التغيير، لا ســيّما وأنَّ خطابه يُعدُّ موجّهًا لاستثارة الوعي لدى المتلقي تحديدًا.

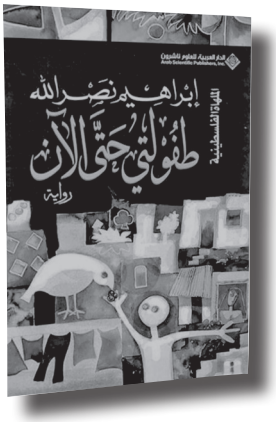

الكاتبة جين سعيد المقدسي

(جدتي وأمّي وأنا) لجين سعيد المقدسي: كتابٌ يسبر غورَ المرأة العربيّة في ثلاثة أجيال

جهاد الرنتيسي *

تجدُ الباحثةُ الفلسطينيّةُ (جين سعيد المقدسي) في تسليط الضوء على واقع نساء المشرق العربي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين؛ فضاءً ملائماً لنفض الغبار العالق بتجارب الحركات النسوية العربية، وتوطئةً لتوفير أرضية ملائمة لتصحيح مفاهيم ملتبسة، وتكوين تصورات أكثر دقةً ووضوحاً.

فتقارن في كتابها (جدتي وأمّي وأنا) الصادر عن المركز القومي للترجمة في القاهرة، بين مذكرات ثلاثة أجيال من النساء العربيات مع تجربتها وتجربتيّ أمّها وجدّتها مع إعطاء هامش للتأمل في تحوّلات الظروف التي أسهمت في تشكيل التجارب الثلاث.

حدّدت الباحثة إطاراً لدوريّ الأم والأب، وحضور كل منهما في حياة الآخر، لتضيء عوالم تغيب عن جدل النسويات العربيات الذي تطغى عليه في العادة رؤى مستمدة من واقع اجتماعي واقتصادي وسياسي مختلف.

* كاتب وباحث أردني

ففي سياق سردها لدور أمّها تذكر أنَّها كانت تتأكد من وضع الأب؛ من تفاصيل حياته، من عطره، وهي المشرفة على وجبات طعامه، تتابع زيارته لطبيبه حين يمرض، تتبع إرشادات الطبيب، ومن خلال هذه الشواهد تصل إلى أنَّ أمّها الراعية لأبيها، وحبل نجاته، من دونها ينعزل تماماً وينفصل عن الصحبة اللطيفة، وبفعل حضورها يتمتع بعطايا الحياة الكوزموبوليتانية، مشدّدة على إسهام الأم في توفير الصحبة والمكانة في المجتمع، وفي المقابل كان الأب راعياً للأم وحبل نجاتها، فقد كان يتمتع بحسٍّ فكاهةٍ طفوليٍّ شقي، يواجه به ميلها إلى القلق والكآبة، ويوفّر لها الإمكانات اللازمة للقيام بكل ما يجعل للحياة قيمةً ومعنى.

بناءً على تحديدها للأدوار تصل المقدسي إلى قناعة بتجانس وتكافؤ علاقة الأم والأب، ووجود أرضية تفاهم في توزيع المهام داخل الأسرة، فقد كانت مسؤوليته إيجاد مكان في العالم، وكانت مسؤوليتها تحديد ملامح المكان وتحسين حالته.

وتسترسل الباحثة في وصفها لتؤكّد قيام العلاقة بين الوالدين على المساواة وتقسيم المهام، فقد اهتم الأب بكل ما يدور خارج البيت، واهتمت الأم بكل ما يدور داخله، وكان البيت والأسرة بؤرة وجودهما، ونظراً لأنَّهما حُرما من المشاركة السياسية اخترعا وحدّدا معالم عالمهما الخاص بهما.

قوةُ الإقناع

في سياق تشريحها لتبادلية العلاقة ترى الباحثة أنَّ حصول المرأة على مكانتها في الدنيا يأتي عبر توظيفها الذكي للقوة الدبلوماسية، فكل مسعى لمواجهة الزوج بشكل مباشر كان مصيره الفشل، وكان سبيلها الوحيد هو استخدام قوة الإقناع لجعله يفعل ما تريده.

ولإيصال الصورة واضحةً للقارئ تستعير المقدسي مقولةً لوالدها يشير فيها إلى أنَّ "الرجل رأس العائلة والمرأة الرقبة التي تحرك الرأس مثلما تحبُّ" وبذلك تمتلك الأم زمام السيطرة على اتجاهات بوصلة الحياة اليومية.

لدى الباحثة قناعةٌ بامتلاك نساء المشرق العربي سلطةً أموميّةً وأنثويّةً قويّةً ومطلقة، يتباين وضوحها باختلاف ظروف النساء، حيث تشير إلى أنَّ صورة السلطة كانت أكثر وضوحاً لدى أمّها وعمّتها نبيهة وخالتها إيميليا مما كانت عليه لدى جدّتها التي لعبت دوراً فريداً في حياتها.

حقوقٌ بهامشٍ متّسع

بخلاف حملات الدعاية الغربية التي تتناول حياة النساء في العالم الإسلامي ترى الباحثة في الثقافة العربية الإسلامية ضمانةً لحصول المرأة على الحقوق والرعاية، وهامشاً واسعاً لقيامها بدورها في المجتمع، وسقفاً مرتفعاً للتسامح " كانت أمّي تحدثني في حديثها عن الشريعة الإسلامية بأنَّها منحت الأخ ضعف ميراث أخته، لأنَّ الأخ مسؤول عن أخته غير المتزوجة والمطلقة، والأرملة، ووالدته الأرملة بطبيعة الحال إذا احتجن إليه". كما تتوقف عند حقيقة أنَّ الأم الكبرى صاحبة السلطة في العائلة التقليدية الممتدة، وتؤكّد مقدسي التي تنحدر من أسرة مسيحية ودرست في مؤسسات تعليم مسيحيّة أنَّها لم تشعر بأية درجة من الصراع تجاه العالم الإسلامي الذي تعيش فيه.

تحدّد وضع الفتيات في المشرق العربي بأنَّه "حالة ترتبط بنطاق السلطة الأسرية" كما تشير إلى الحسِّ السائد بأنَّ الفتاة "شيء ثمين يجب حمايته ورعايته بأي ثمن" لكن لهذه القاعدة استثناءات تخضع للوضع الطبقي إذ تؤكّد في أحد

شروحها لواقع النســاء العاملات في منــزل العائلة أنَّ القهر الواقع عليهن كان نتاجاً للفقر وليس الانتماء لجنس النساء.

النساءُ في الحروب

ترى مقدسي التي عايشت الحرب الأهلية في لبنان أوجه متعددة لأوضاع النســاء أثناء الحروب التي تمرُّ بها المنطقة، لا تنحسر في المعاناة التــي يجري التركيز عليها في مثل هذه الحــالات، فقد كانت تشــعر بأنَّها تخون دورهــا كامرأة لو شــكّت أو تذمرت أو أظهرت أدنى درجات الضعف في وجه الرعب المحيط.

تُســقط الباحثةُ الحواجــزَ الحضاريّــة والجغرافيّة حين يتعلق الأمر بمشتركات أوضاع النساء في المنطقة والعالم، فهي تجادل في أنَّ الاختلافات بين النســاء تفرضها الطبقة والعمل أكثر من كونها اختلافات بين الشرق والغرب، لكنَّها في المقابل تبقــي على بعض التباينات الناجمة عن الأوضاع الاجتماعية فتقــول عند مرورها على تجربتهــا في الولايات المتحدة: " لا أعلم إن كانت تجربتي في أمريكا تجسّــد الحياة الجامعية للطبقة الوســطى أو حتى الحياة في كل الكليات النســائية النخبويــة، ولكنَّهــا أظهــرت لي مؤخراً أنَّ عزلة النســاء عن السياسة مســألة أقرب إلى الحياة الأمريكية مقارنة بالحياة الاجتماعية العربية في ذلك الوقت". كما تشير إلى أنَّها عاشت "الحياة الجافة الخانقة لنســاء الطبقة الوســطى الأمريكية الثرية في ضواحي واشــنطن" حيث الأفراد يعانون من حياة مغلقة في بيوت مريحة، معزولة حتى عن أقرب الجيران.

لتوضيح فكرة "الطبقة" و"العمل" تؤكّد على أنَّ "المجتمع الأمريــكي الذي صرت أنتمــي إليــه الآن كان مجتمعاً قائماً على التمييــز والفصل حيث يتم الالتفات إلى كل مظهر من مظاهر الاختلاف" مشيرةً إلى "قطع صلبة متناثرة في البوتقة" حيث الفصل الحاســم بين الناس المنتمين إلى أعراق وأعمار ودخول مختلفة.

تدفعها أهميــة الفكرة إلى خطوة أخرى في تشــخيصها لذلــك المجتمع، فقد كان الجميــع في الضاحية التي تعيش فيها ينتمي إلى الأغنياء البيض المتمتعين بالشــباب والصحة، ولا توجــد وســائل للمواصلات العامة في هــذا الحي، وهو اختيار مقصود من قبل ســكان المنطقــة للحفاظ على نقاء ضاحيتهم مــن الاختلافات التي قد تمثــل تهديداً لوحدتهم المصونة.

وتلتقــط لــدى توقفها عند حجــاب المــرأة نقطةً بدت غائمة حتى وقت قريب، تتعلق ببعد ســياسي لاتخاذ نســاء مســلمات قرارهن بارتدائه، فقد بــات "الخط الفاصل بين الزي الوطني والديني غائماً" وهناك تجارب في تاريخ شعوب المنطقــة تدلّل على ذلك، من بينها ارتداء النســاء الحجاب طواعيةً في الجزائر تعبيراً عن موقف احتجاجي ضد الاحتلال الفرنسي، وقيام الإيرانيات بفعل شبيه خلال مظاهراتهن ضد حكم الشاه.

بــدا التوظيف الغــربي للحجــاب جديداً أمــام كتابات المستشرقين الرحالة الذين زاروا المنطقة في وقت مبكر، فقد نشرت مجلة "ذا فورين نيشوري" مقالة للأب(س. جيسوب) بعــد رحلته إلى مدينة حــماة عام 1876 أشــار فيها إلى أنَّ "ارتداء النساء المسيحيات واليهوديات للحجاب كان جنباً إلى جنب مع المســلمات في المدن والبلدات السورية وخاصةً في المناطق النائية" الأمر الذي ظلَّ شائعاً حتى القرن العشرين، وعــلى الرغم من وجود اختلافــات إقليمية وطبقية عديدة كان المسلمون والمســيحيون... يلبسون ويأكلون ويتصرفون

بالطريقة نفسـها تقريباً، كما كتب (الأب بادور) عام 1849 عن إعجابه بالطريقة الديمقراطية والمساواة في ارتداء الإزار، فلم يكن ممكناً التمييز بين زوجة الحاكم والحِرَفي البسـيط، كـما تضمنت كتاباته مقارنةً بين مزايا ثوب النسـاء الطويل والثوب الأوروبي حيث المشـدّات والكورسـيهات والمشابك التي كانت تعذب النساء الأوروبيات.

تنتقل مقـدسي إلى مقارنة أخرى تتعلـق بالقوانين، فقد كانت الأموال والممتلكات التي تحصل عليها المرأة الإنجليزية حتى صدور "قانون أملاك النساء المتزوجات" في عام 1870، تنتقل تلقائياً لزوجها، ولم يسمح للنساء بالاحتفاظ بأموالهن قبـل العام 1882 في الوقت الذي كانت النسـاء المسـلمات يتحكمن ويدرن أموالهن.

ترى الباحثة أنَّ هموم النسـاء العربيات مشتركة، تشعر حين تسمع نقاشات حول المرأة العربية "وكأنَّنا امرأة واحدة أو كأنَّنا جميعاً متطابقات" وتشير في هذا السياق إلى نصائح وتحذيرات صارمة حول التصرف والسلوك عند الزواج، تلقتها من امرأة خلال لقاء عابر في المستشفى.

ألوانُ قوس قزح

توصلّت الباحثة أثناء عملها على كتابها إلى قراءة معقدة لوضع النساء، كما جاء في أحد أجزاء الكتاب، فلم يعُد لونهن اللـون الأبيض ووحدة الضوء وجود بالنسـبة لها، وترى بدلاً من ذلك قوسـاً قزحياً من درجات الألـوان المتغيرة والقابلة للتغير والجميلة والزاهية.

لا يحول تأكيدها على القواسـم المشتركة في قضايا المرأة دون انتقاد تجاهل النسـويات العربيات للاختلافات "بعض النسـاء العربيات غير مباليات بتلك الفروق الدقيقة، يرين

الحرية في النموذج الغربي، ويسعين إلى محاكاة هؤلاء النساء، والمطالبة بالحقوق التي تفقدها بعض النسـاء العربيات في سـعيهن إلى الحداثة" وعلى سـبيل إيجـاد الأمثلة ضمّنت مقدسي كتابها انتقادات للحركة النسـوية الغربية التي تنكر الدور الأمومي "يريدوننا أن نشـعر بالذنب تجاه أي دقيقة نقضيهـا كأمّهات" وترجح في الخلاصات التي انتهت إليها أنَّ العربيات السـاعيات إلى مثل هـذه الحداثة يجهلن الأعباء التي تتحملها النسـاء الغربيات، وبالتالي يتجهن بلهاثهن إلى الملبس واللغة والسلوك نحو شبح الحرية في شبح الحداثة.

انتهت مقدسي بعد مراجعات تطلّبتها الدراسة ومناقشتها منظومة المفاهيم إلى أنَّ "صيحات تقدّم حياة النساء محض خيال" ووجدت في ذلك ما يكفي من المسـوغات للدعوة إلى حداثة خاصة بالعرب، تراعي فهم الماضي "بترسـيخ أنفسـنا فيه بثبـات، ليكون التحـرك، نحو حداثة نصنعهـا بإرادتنا وأيدينا" تحركاً واعياً.

- زليخة أبو ريشة
- عزت الطيري
- رشاد رداد
- جميلة عمايرة
- مجدولين أبو الرب
- ليلى سلامة
- أمل العلي

تعريفاتٌ

زليخة أبو ريشة*

موسيقيَّةٌ :

لم تكن تؤلِّفُ
كانت فقط تُصغي إلى
روحِها...

شاعرةٌ :

الشِّعرُ يتقافزُ حولَها في
الأشياءِ
هي تلملمُه بأصابعِها
النَّاحلةِ
وتحشو بهِ قلبَها حتى اندلعتْ منه
الأنهارُ..

مغنِّيةٌ: (إلى رُبَى)

صوتُها لا ينبعثُ من حنجرتِها
بل في داخلِها
امرأةٌ أخرى
تستحمُّ بالشَّموسِ.!

نحَّاتةٌ: (إلى منى السَّعوديّ)

لم تحتجْ إلى الإزميلِ يوماً ...
كلُّ ما كانت تفعلُهُ
أن تحرِّكَ يدَها في الهواءِ
وهي تشتهي لمسَ أفكارِها المنحنيةِ!

قنَّاصٌ :

كتِفُكَ أيُّها الفتى
أبهى من أن تجعلَها متَّكَأً
لبندقيَّةٍ ...

سيبيريا :

سيبيريا تتمشى في عروقي ...
هل هذا هو
الفراق؟!.

الأمُّ:

في كلِّ يومٍ كانت تغسلُ قلبَها بالياسمين
قبلَ ولوجِ الصُّبحِ
لتُضيئَهُ ..

* شاعرة أردنية

قِطَّةٌ :

مخاضُها عسيرٌ تلك الهرَّة
كأنَّها تنوي أن
تضعَ
نمراً هصوراً!!

احتكارٌ :

لِمَ أيَّتُها الآلامُ المبرِّحَةُ
نحنُ فقط من
يحتكرُكِ؟.

معجمٌ :

كلما صدرَ كتابُ "معجمُ الشَّاعرات"
ولا أجدُ اسمي
أتيقَّنُ أنَّني
وهمٌ ....
وقد يكونُ مرَّ في هذا
الكونِ!.

جبلٌ :

كم هو عالٍ هذا الجبلُ الذي ما زلتُ أصعدُه
وشاقٌّ !!!
لا غروَ ...!
فهو جبلُ قافِ
العشقِ...

ترابٌ :

كن خفيفاً على هذا التراب
فهنا
كانت عاشقةٌ
تبكي!.

عاشقٌ :

لطالما قال: "غابتِ الشَّمسُ، غابتِ الشَّمسُ.."
وهو في وهجِ الضُّحى..!
أخفّاشٌ في ثوبِ عاشقٍ؟.

حكمةٌ :

كيف تأتيني الآن
وقد وهنْتُ حتى عن استقبالِك والحديثِ إليكِ
أيَّتُها الحكمةُ؟.

وإذا قلتُ اسمكِ

عزت الطيري*

وإذا قلتُ اسمكِ
يتصدع جبلْ
ويئن الرملُ
ويبكي غربتَه
بين سهولٍ وبقاعِ
يتلوّنُ وردٌ باللون القاني
ويخاصم حمرتَه
وينادى عصفورٌ
مقصوصُ الأجنحةِ عليكِ طويلاً
ردّي لي أجنحتي لأطير
وردّي لي حنجرتي لأغني
ردّي لي في الفجر فضاءً لأحلق
وشموسًــا ناعمةً لا تخذل (عباس بن الفرناس) إذا انصهر الشمع وساح
وسقط قتيل مغامرة فشلت
واحتفظ التاريخ بها
كوني في الليل طحينًا
وطعامًا لصغارٍ جاعت
ولأمٍّ تطبخ رملاً وحصى
تنتظر مغيثًا ومجيرا
حين سيمرق بين خيام الجوعى
يمنحهم سمنًا وطحينًا ولحوما
وعصيرًا لحلوق جفّت واهترأت..!!

*****

قدمي عاريةٌ من دفء
كيف سأصعدُ جبلاً
مكتظًا بصخورٍ نارياتِ السحنة
تسَّاقط برقًا وجحيما...
خذلتني بنتٌ في البكالوريا
صبّت في وجهي نظراتٍ قاتلة
قنبلة تعقب قنبلة
خذلتني الجامعة
وأعطتني محــض دروس لا أحتــاج إليها في درب حياتي الشائك!.
فهربتُ إلى الكافتريا
كي أنتظرَ فتاةً
منحتني ما أحتــاجُ من الودِّ وهربت بي نحو تلال الورد تظلّلنا
في مزرعة الكلية.
قالت: كن لي؛ فغدوتُ وكنتُ وأصبحتُ...

* شاعر مصري

خذلتُ البنتَ، وخنتُ العهدَ

فخذلتني الجدرانُ الأركانُ وســقفُ البيت

وساحته

خذلتني عاداتٌ وتقاليدُ

وقالت أمّي: يا ولدي كن أنتَ

ولا تسمع لكلام الغير

وعد عن غيّكَ

فأطعت الغيرَ..

وها أنذا أتحسّسُ رأسي

وأعيد القلبَ

إلى ما كان عليه

أرمّم نصفَ القلب

أعيد النصفَ الضائعَ منه

أعيد الأحلامَ إذا ولّت

وابتعدت عني

يا أمّي!!.

وحدي

رشاد رداد*

وحدي أدافعُ عن دمي
هذا طريقُ الحبِّ حين
أصيرُ حرفاً من أحدْ،
وأرى ملائكةً هناك تزفّني
فتضيء روحي في الجسدْ.
أمشي على غيمٍ مُعدٍّ
من غناء الحور عند مصبِّ نهر الخلد
في أعلى الأبدْ.
وحدي أرى رؤياي
أمشي
لستُ أعرفُ من أنا
وكأنَّني هو حين كنتُ أقولُ شعراً
في نُعاسٍ يشبه الذكرى على ملحِ المنافي
في صحاري الليل
إنِّي الآن شيءٌ ما
بين ماءٍ أو زبد،
إنِّي الزبدْ.
لا أشتهي شيئاً سوى
معزوفةِ الشهداء
قبل دخولهم بهو البياض السرمديّ

هناك نورٌ غير مؤذٍ للعيون
هنا أرى
أمي كلؤلؤةٍ يشعّ بهاؤها
وأبي بعيدٌ من هنا
نهرٌ عميقٌ بيننا
فتشتُ عن بابٍ لأهربَ منه
عن بشرٍ يخلّصني
صرختُ.. سقطتُ عن فرس المجاز
وظلَّ إيقاعُ القصيدةِ لاذعاً
كالزنجبيلِ وإن بردْ.
أعلى من الأحلام مئذنةٌ
أقلّ من الرصاصة في جسدْ.
لم أحتملْ
هذا السكونَ
فصيلُ نملٍ في دمي
يجري ويحفرُ في دماغي
من يخلّصني
ويأخذني إلى أرضٍ تعانقني بحبٍ
تشبه طينَ آبائي
وموّالَ السنابلِ في أناشيد الجسدْ.

* كاتب أردني

خريف

جميلة عمايرة*

أريدُ أن أنظفَ رأسي من كلِّ ما يؤرقني.

من كلِّ شيء.

من تلك الأفكار المجنونة التي لا تتوقف عن الثرثرة في رأسي، ولا أعــرف من أين تجيء، ومــن يقف وراءها. ثمة قوى غامضة أجهلها، تقف ضدي وترسلها.

في الليلة السابقة، عادت أحلامي القديمة للظهور من جديد. وكنــت أظنُّ أنَّنــي نسـيتها، أو أضعتها في جملــة أحلام أخرى جديدة، إلا أنَّها عادت ثانيةً. ما الذي تحملينه لي أيتها الأحلام؟.

أجلسُ على الشرفة.

أتأملُ الخارج.

الشــارعُ النائمُ توقظه آلياتُ الجنــد فينهض متثائباً. يودُّ لو يعود إلى نومه ثانيةً، إلا أنَّ خطوات الدركي العريضة توقظه من جديد. فينهض عابساً.

بعــض المارة يســيرون بالشــارع، وهم ملتزمــون بإجراءات الوقاية والسلامة. سياراتٌ قليلةٌ تمرُّ بين الحين والآخر.

صوت أمّي وهي تنادي يصــلُ واضحاً للشرفة، ولا يخطئني. أفزُّ من مكاني مذعورةً وأهرع لغرفتها.

"مــن أين يجــيء كل هذا الغبــار، وكل شيء مغلق"؟ قالت وهي تشير للتلفزيون.

مســحت الغبار عن شاشــته، لتكون الصــورةُ بكل أبعادها واضحةً أمامها، كي يصلها الخــبر طازجاً وبلا تأخير، لتخبرني بعد قليل بما لديها، وتبدأ بتحليلاتها.

عدتُ للشرفة.

أغبــطُ الشــجرة المقابلة للشرفــة، الواقفة بوجــه العابرين والريح. لو كنتُ مكانها.

أنا شجرةٌ.

رنَّ هاتفي. كانت مريــم.. صديقتي التي تقيم خارج البلاد منذ سنوات، وهي شاعرةٌ ومترجمة.

"الأصدقاء الأصدقاء"... ها هي واحدةٌ منهم تطل.

تحدّثنــا كثيراً عبر الهاتــف.. هذه واحدةٌ مــن الميزات التي منحتها لنا تكنولوجيا الاتصالات.

بعثت لي مريم ريان هذه القصيدة:

"هل تسمعني؟.

أشرب قهوتي على عجل،

وأهرول مسرعةً خارج النص.

"داليدا" تغني "حلوة يا بلدي"

وأنا أكتبُ عن وطنٍ ضائع أكثر مني.

وأتساءل أحياناً

لِمَ ينتحر الصوت؟.

وكيف أستعيد الوقت في ساعتي؟

لقد تأخرت.

قهوتي المرة في انتظاري

أرتشفها على مهل

وأغني لتلك البلاد البعيدة".

جاءت أمّي.

لا بدَّ وأنَّ لديها أخباراً، وتريد إعادتها فوق رأسي.

ســجلّت إصابات هذا اليوم 400 حالــة. للتو أعلن "جورج كالوني". غداً حظر لمدة أربعة أيام. تم عزل "الهاشمي الشمالي" وجبل الجوفة" (من أحياء عمان)، بعد اكتشــاف حالات هناك. وتم الحظر في "عين الباشا ومخيم البقعة".

-أغداً حظر؟

-لأربعة أيام متتالية. بدأ الوضع يتفاقم، وخارج السيطرة.

-لا تقلقي يا أمّي. هذا ليس دقيقاً، و..

-قلتُ لك ألفَ مرة لا تعيدي هذه الجملة أمامي. أنا قلقةٌ، وقلقةٌ جدّاً. لو يلتزم الناس، بشروط التباعد بينهم، لما كانت كل هذه الإصابات المحلية.

قالت غاضبةً وخرجت.

صدّقتُ ظنّي بك.

الخريفُ أضاع أوراقه ومضى، الشــارع خــاوٍ تنوح به الريحُ، ومقاعدُ الرصيف جالسةٌ تحدّق بالفراغ.

* قاصة أردنية

السَّبع

مجدولين أبو الرُّب*

عند التاسعة صباحًا فتحتُ المقهى. بدأتُ بتهيئة الشُّرفة الأمامية المُطلّة على الشارع. كانت بوّابتها مغلقة طوال فصل الشتاء. قطعتُ عملي لأعدَّ أرجيلة وفنجان قهوة للعمّ سمعان، الذي يأتي في هذا الموعد كل يوم، ويعود بعد العصر ليأخذ نفَسًا آخر ويلعب طاولة الزَّهْر مع صديقه الحاج عبّاس، وكلاهما متقاعد من وزارة الزراعة.

العمّ سمعان يرتدي بدلة وربطة عنق، وكأنَّه ذاهبٌ إلى الوظيفة. في العادة يبدو منظره نافرًا بين الناس بملابسهم البسيطة؛ فمرتادوا المقهى من العُمّال والشباب العاطلين عن العمل والمتقاعدين. منهم العابرون ومنهم المقيمون.

بعد العصر اشتدَّت الحركة في المقهى، وجاء الشاب الذي يساعدني في ساعات الذَّروة. لاحظتُ أنَّ "الساكت" يجلس إلى طاولته المعتادة، فسارعتُ لتقديم فنجان القهوة والأرجيلة له.

في العادة يجلس "الساكت" وحيدًا، يرسل نظراته نحو لا شيء. قبل عامين كان ينطق فيطلب أرجيلة وفنجان قهوة يرتشفه ببطء، وبعد أن تعوَّدتُ طلبه هذا، صرتُ أحضره له دون أن ينطق. لم يكُن يَصدُر عن طاولته صوتٌ غير قرقرة الماء في زجاجة الأرجيلة. لا أعرف اسمه، لكنّي أسمّيه "الساكت".

من طاولة قريبة، سمعتُ صوتَ العمّ سمعان: "يقولون إنّه مات متسمِّمًا بالكحول".

هزَّ الحاج عباس رأسه مؤكِّدا الأمر: "جارنا يعمل في البحث الجنائي، وأخبرني أنَّ تقرير الطبيب الشرعي يقول: "بضع حبّات فستق في معدتِه، ونسبة الكحول عالية في دمِه".

وتابع: "كان مكفيًّا على وجهِه مرميًّا على الرصيف بمُحاذاة أكوام من الكراتين".

سألتُهما: "أتقصدان السَّبع؟".

أجاباني معًا: "نعم، السَّبع مات".

***

عُدتُ بذاكرتي إلى الليلة الماضية، حين خلا المقهى إلا من أربعة رجال يلعبون ورق الشدَّة. كنتُ قد رفعتُ الكراسي على الطاولات البعيدة عن طاولة اللَّعّيبة، وما إن دلقتُ دلو الماء على الأرض حتى شاهدتُ رجلًا حليق الرَّأس يقفُ بباب المقهى.

بدا مألوفًا؛ رجل أربعيني قصير القامة، يرتدي بنطال جينز متَّسخ، وحذاء صحراويّ ضخم، و"تي شيرت" بأكمام قصيرة تكشف عن وشوم على ذراعيه. عرفتُه من وشومه، ومن ندبةٍ لجرح قديم على خدِّه الأيسر. إنَّه "السَّبع"، لكن لماذا حلق شعره؟

أذكر كيف وقف عند الباب للحظات، ثم اتَّجه نحو طاولة لاعبي الورق. وضع يده على كتف أحدهم، فنظر الرَّجُل مُستغربًا.

- لماذا تجلس على هذا الكرسي؟ إنَّه لي.

حدّق الرجل الجالس به، ثم نهض وقدَّم له الكرسي، وسحب كرسيًّا آخر، وجلس ليُكمل اللّعب.

بقي السَّبعُ واقفًا، ثم شَدَّ الرجل من كتفه بقوّة:

- وهذا الكرسي لي أيضًا.

- صلِّ على النَّبي.

هرعتُ إليه، قلتُ بعد أنْ غمزتُ للرِّجال بعيني:

- أهلًا بالسبع، كلُّ كراسي المقهى لكَ، لكن هل تسمح

* قاصة أردنية

لهؤلاء الطيبين بالجلوس عليها يا طيِّب؟

حلَّك صلعتَه متردِّدًا، ورائحة المـشروب تفوحُ منه. الرِّجال اختصروا الشرّ، فالسُّكْر أذهب عقله.

أنزلتُ له كُرسـيًّا عن طاولةٍ بعيـدةٍ، فهوى عليه مثل جُثَّة وقعَتْ من نَعْش. سألتُه: "ما رأيكَ بفنجان قهوة؟". نَدَتْ عن شـفتيه ابتسـامةٌ خفيفةٌ: "ما صدَّقت وأنا أعَبّيها"، مشيرًا إلى رأسِه. وأكمَلَ:

-"كأس ماء".

لم أتعاطف معه لأنَّ أمّي تردِّد دائمًا "اللي بِسـايِر بِعيش"، ولكنّي أتَّبع المثل "اللي بِشُـوفني بعين، بَشُوفه بِالثِّنتين"؛ لقد خلّصني السَّـبع ذات ليلة من زُعران الليـل وأنا عائدٌ لبيتي، لا أعلم من أين ظهرَ ليلتَها، بينما كان أحدهم يشـهر (موس كبّاس) في وجهي، يُطالبني بِغلَّة المقهى.

لمحتُ كيس الفسـتق الذي اشتريتُه صباحًا، كنتُ قد أتيتُ على نصفِه، فحملتُه مع كأس الماء وقدَّمتُه للسَّبع. شربَ الماء. شرَدَ نظـره للبعيد، وقـال: "إذا أرادوا مُعاقبتي فليحبسـوني، لكن لماذا حلقوا رأسي؟ لا تفكِّر أنّي استسـلمتُ لهم، لزم الأمر أربعة رجال لتثبيتي، بينما الخامس يجول بماكينة الحلاقة على رأسي".

لمحـتُ نبعًا من دمـوع في عينيه، لكنّه لا يفيض. أمَسـكَ كيس الفستق، ونهض مُترنِّحًا باتِّجاه الباب، سمعتُ صوته:

-"لزمني ثلاثون عامًا لأفهم ما حدث معي، فهل سـأعيش ثلاثين أخرى لأفهم ما أنا عليه الآن؟!".

لم أعرف إنْ كان يوجِّه سؤالًا لي، أم لنفسِه.

كان الرجال قد أنهوا لعبة الورق، فنظَّفتُ الطاولة الأخيرة، وأغلقتُ المقهى. سرتُ في شوارع وسط البلد الخالية، منتعشًا بنسمات ربيع عمّان، قاصدًا منزلي في أوَّل طلوع جبل الجوفة. كانـت أكوام مـن الكراتين تتكـدَّس على الرّصيـف، يضعها أصحاب المحالّ التجاريّة بعد تفريغها من البضائع، ويأخذها جامِعو الخردوات عند الفجر.

لمحتُ قدمًا بحذاء ضخم مُتَّسـخ خارجةً من بين الكراتين. ثمّة شخص نائم متَّخذًا الكراتين فِراشًا ولِحافًا.

توقَّفتُ؛ إنه حذاء السَّـبع، فكَّرتُ: لأتركه نائمًا، لا أستطيع أنْ أفعل شـيئًا، لقد خبله السُّـكْر، وليس أوَّل ولا آخر متشرِّد يفعلها.

***

عِبارة "السَّـبع مات" شـدَّت انتباه الزَّبائن على الطاولات القريبة، وحتى "الساكت" كان ينظر ويستمع باهتمام.

أخذ الرِّجال يتحدّثون عن السَّبع، كلٌّ يحكي قصة مختلفة:

- كان يحـبُّ فتاة وزوّجهـا أهلها لغيره، مـن يومها جُنَّ الرَّجل.

- بـل يقولون إنّه درس دكتوراة فلسـفة، ومن كثرة ذكائه جُنّ.

- يا جماعة إنَّه ولد تربّى على المشـاكل والسُّـكْر والسَّرقة، في بيئة وضيعة.

- سـمعتُ أنَّ أخـاه الأكبر أكل حقَّه في المـيراث، وبعد أنْ تعـاركا ضربه على رأسـه ضربًا مبرحًا، فارتـجَّ دماغه ولم يعُد طبيعيًّا.

كاد "الساكت" ينطق؛ فتح فمه، تململت شفتاه، لكنَّه دسَّ في فمه بربيش الأرجيلة، التي نطقَتْ نيابةً عنه بقرقرةٍ مَهيبة، تزامنَتْ معها جلَبَةٌ غير عاديّة عند الطاولة القريبة من مدخل الصالة.

هرعتُ إلى حيث الجَلَبة، وجدتُ رجلًا يمسكُ آخر من ياقة قميصِه ويصرُخ:

- قلتُ لكَ هذا الكرسي أيضًا لي.

ذكرياتٌ سائبة

ليلى سلامة*

سـهرتُ مع صاحبي سـلمان عـلى شـاطئ البحر نطرب لصوت الراحلة ذكرى. مشّطنا الشاطئ للعثور على زجاجات شبه فارغة خلّفها عشّاقٌ مهمومون، وأزواجٌ شاردون، وشبابٌ طائشون. كنّا نرشف ما تبقى وكأنّنا نتذوق الاغتراب بأنواعه.

تنهدتُ: ألا تمل من تكـرار أغنية (هذا أنا)؟! ذكرى تبقى ذكرى جميلة.

صاح سـلمان بعلو صوته: (الأسامي) هي..هي، نعم؛ حقًا إنَّ ذكرى فيلسـوفة الغناء! ففي صوتها يرتـدي الحزن ثوبًا أبيـض. ثمّ ذكرني بكلامـي أنّني لن أحبَّ امـرأةً إلا إذا كان اسمها ذكرى؟!!

قلـتُ: إذا كانت النفسُ حـرّةً، فالأفقُ مفتوحٌ يا صديقي. سكتُ ثمّ بالغ صمتي في حذره.

راح فكري يراقب رجلًا يجمع الزجاجات الفارغة بسعادة غريبة، وجعلت أعدُّ معه مآسي زوّار البحر في آخر الليل. لكل زجاجة قصة لاجئ حزين يبثُّ للبحر أسراره.

ضحك سلمان عندما قلت ساخرًا: الحزنُ وفيرٌ هذه المرة.

اختفـى الرجل السـعيد حامـلًا (شـوالاته) وابتلع درب الخيط الأبيض.

قلتُ لسلمان: لا وقت للمسخرة الآن، فلنلملم عتادنا قبل أن يتجمهر عمال الخردة أمام المحل.

قال سلمان متكاسـلًا: ألم تقرأ قول شكسبير عن الوقت؟!

سألته: وماذا قال؟

خضّ ذاكرته وهاج ضحكه موجًـا: لا أذكر بالضبط، لكنَّه قال شيئًا عن الأبدية، والخشية من الوقت.

قلتُ: ضاعت أعمارنا ندرس الآداب دون أن ننجب إصدارًا أدبيًا نفخر به!!.

قال ساخرًا: أنسيتَ شكسبير؟

أجبـتُ حالمًا: عندما أتـزوج ذكراي سـنعقد زواجنا على (سوناتا 116).

ثم غلبني الصمتُ.

اهتزَّ ضاحكًا، واقشعرَّ ثم سـكن. قال: ذات مرة أخبرتني فتـاة أوروبية كنت ألهـو بصحبتها على الشـاطئ عن رجل أجنبي يقتات على مفقودات السيّاح العرب من البحر.

قلت متعجبًا من مصدر رزق الرجل: نحن العرب مساكين! خيراتنا سائبةٌ.

قال سـلمان: تخيّل أنَّه طبيـبٌ جرّاحٌ يتابـع جدول المدِّ والجزر لصيد المفقودات.

امتعضـتُ مـن حظِّ الرجـل، نحن أدباء نمشّـط مكبّات النفايات للعثور على خردة للعيش، وهو يتصيّد ركاز الأرض.

ردّ ممتنًّا: نملك الآن أكبر محل بيع خردة. لم تعُد تسـمّى خردة بل أشياء مستعملة أصلية.

قلت له متأففًا: لم يبقَ سوى أن تقول عنه محل أثريات!

* قاصة أردنية

اســمها أنتيكة. كلمة لهــا وقع أعظم عــلى الزبائن. قال سلمان بانفعالات مجنّحة.

قلتُ: هل يجيب الزبائن عن أسئلة: كم طفلًا راح ضحية الخــردة؟! كم طفلًا قضى حتفه يلملم خردة من حقل ألغام، أو من وسط مكبّات مخلفات الحروب في بلداننا؟!.

(اللهــم ظلّل الأطفال الذين حلّقت أرواحهم إلى الســماء بأجنحة الملائكة). دعا ســلمان، ثم تذكّــر الصندوق العتيق الذي اشــتراه من أحد هــؤلاء الأطفــال. كان محكم الإغلاق بسبب عوامل الزمن.

قلــت: أذكر أنَّك أعطيته مبلغًا كبــيرًا لقاء هذا الصندوق، لأنَّه ساوم بشدة.

قال سلمان: تعاطي الأشياء الغامضة يفسد جيبي. نتحوّل إلى كلاب سائبة.

مــضى كلٌّ منا في طريقــه قبل أن تمدّد الشــمس أذرعها. ذهبتُ لأفتح المحل، وعاد سلمان إلى المنزل ليفتح الصندوق.

لم ينم ســلمان بــل عزم على نبش الصندوق. فرشــه على الحصيرة وقلّب محتوياته كأنَّه كتابٌ. غليون خشــبي معتّق، لفافات، وولاعة نحاسية يرافقها عدة كتب من سلسلة "كتب الجيب"، ومجموعة أوراق صفراء تحمل ملاحظات هامشيّة بخط دقيق. بدا واضحًا أنَّ صاحب الصندوق كان قارئًا نهمًا، وربما كاتبًا.. عدســة مكبرة ومفكرة جلدية صغيرة، سجّل فيها عناوين أماكن وتواريخ، وأســماء مدن على شواطئ المتوسط تنبض بين صفحاتها حياة مهاجر شرقي، تتبعه هواجسه أينما حلّ. تذاكر ســفر قديمة تشــير إلى تنقلاته المتكرّرة، ساعة يد معطّلــة تصنّمــت عقاربها عند تاريخ قديم، مفاتيح ســيارة مرســيدس، أطلس خرائط انطوى بصفحــات محدّدة بأقلام ملوّنة: بيروت، تونس، باريس، وطرابلس. راح ســلمان ينبش ذكريــات صاحب الصندوق فثمّة قصــة حب منفية، وكاتب منسي ربما شرّدتــه المنافي. كل غرض ينبض بقصة، وقد لامس سلمان ذلك كله كمن يمضي في حياة غيره بخفة وغبطة حتى قبــض على ورقة من صحيفــة مطوية بشــكل مصغّر جدًّا.. ففتحها بحــذر فإذا بها نعي امــرأة وبداخلها خاتم زواج ما يزال محتفظًا بلمعانه، فدوّره بيده ليستشعر وزنه، ثم التقط العدســة المكبرة ليفحص القــيراط فقرأ عبارة منقوشــة من الداخل: (ذكرى شعلة القلب...).

في المساء، عرض سلمان الخاتم أمامي فانحسر موج البحر كلــه في دمي وانقبض المد في ضــوء القمر واعتذر الكلام من الكلام. تمنيــتُ لو كانت أمّي حيّةً لتقــرأ العبارة التي لطالما رددتها من كتابها المفضل: علّمْني الحب في كتاب.

تســمّر ســلمان مندهشًــا متأملًا الخاتم وحكاية الرجل الغامض وذكراه.

قلــتُ له: هذا الخاتم ينتمي لكاتب تعدّى عتبة الشــهرة بأشواط، وأعتاب الثمانين بشوط.

قال سلمان: بل على أعتاب النسيان.

قلتُ له متفائلًا: غدًا نعيد له ذكرى شعلة القلب.

وضع سلمان الخاتم بإصبعه قائلًا: ذكرى لي أنا.

لم يكن ســلمان الصديق الذي أعرفه، فقلتُ له مفارقًا: أنا لا أصاحب سارقَ ذكرى رجل آخر.

"الأصدقاء" للكاتب: خوليو كورتاثار*

ترجمتها عن الإسبانية: أمل العلي**

في تلــك اللعبــة، كان لا بدَّ أن يســير كل شيء بسرعــة. عندما قرّر "الرقم واحــد" أنَّ الوقت قد حان للتخلص من (روميرو)، وأنَّ "الرقم ثلاثة" سيتكفّل بالمهمة، وصل الخبر إلى (بلتران) بعد دقائق معدودة. بهدوء، ولكن دون أن يضيّع لحظة، خرج من المقهى عند تقاطع (كوريينتس وليبرتاد)، واستقلَّ سيارةَ أجرة. وأثناء استحمامه في شقته، مستمعًا إلى النشرة الإخبارية، تذكّر أنَّه رأى (روميرو) آخر مرة في (ســان إيسيدرو)، في يوم سيئ الحظ في مضمار السباق. في ذلك الوقت، كان رومــيرو يُدعى روميرو فقط، وهو وبلتران فقط؛ صديقان حميمان قبل أن تدفعهما الحياة في دروب متباعدة جدًّا.

ابتســم دون رغبة تقريبًا، مفكّــرًا في ملامح وجه (روميرو) حين يــراه مجدّدًا، ولكن وجــه (روميرو) لم يكن ذا أهميــة تُذكر؛ كان عليــه التفكير برويّة في مســألة المقهــى والســيارة. كان غريبًا أن يخطر لــ "الرقم واحــد" أن يقتل (روميرو) في مقهــى عند زاوية (كوتشــابامبا وبييدراس)، وفي تلك الساعة بالذات؛ ربما، إن صحّت بعض المعلومات، كان "الرقم واحد" قد شاخ قليلًا.

على أي حــال، كان غباء الأمر يمنحه أفضليــة: يمكنه أن يُخرج الســيارة من المرآب، ويوقفها مع تشغيل المحرك في الجهة المقابلة من (كوتشــابامبا)، ويبقى منتظرًا وصول (روميرو) كما يفعل دائمًا حين يلتقي بأصدقائه عند الساعة السابعة مساءً تقريبًا. إذا سارت الأمور على ما يرام، فسوف يتجنّب دخول (روميرو) إلى المقهى، وفي الوقت نفســه يمنع روّاد المقهى من رؤية تدخّله أو الاشــتباه فيه. كان الأمر مســألة حظ ودقة؛ مجرد إيماءة بســيطة (لن تغيب عن رومــيرو، لأنَّه حادّ البصيرة)، ومعرفة كيف يندمج في حركة الســير وينعطــف بأقصى سرعة. إذا أدّى الاثنان المطلوب كما يجب -وكان (بلــتران) واثقًا من (روميرو) كما هو واثق من نفســه- فكل شيء ســينتهي في لحظة. ابتسم مجدّدًا وهو يتخيل ملامح "الرقم واحد" حــين يتصل به لاحقًــا، لاحقًا جدًّا، من هاتــف عمومي ليخبره بما حدث.

أنهى علبة السجائر وهو يرتدي ملابسه ببطء، ونظر إلى نفسه في المرآة للحظة، ثم سحب علبة جديدة من الدُرج. وقبل أن يطفئ الأضــواء، تأكــد أنَّ كلَّ شيء في مكانه. كان رجال المرآب الإســبان يعتنون بسيارته الفورد كأنَّها من حرير. نزل عبر شارع (تشاكابوكو) ببطء، وفي الساعة السابعة إلا عشر دقائق أوقف السيارة على بعد أمتــار قليلة من باب المقهى، بعد أن دار مرتين حول المبنى منتظرًا أن تُخلي شــاحنة التوصيــل مكانها. كان من المســتحيل على روّاد المقهى رؤيته من موقعه. من وقت إلى آخر، كان يضغط قليلًا على (دوّاسة) البنزين لإبقاء المحرك دافئًا؛ لم يكن يرغب بالتدخين، لكن فمه كان جافًا، وشعر بالضيق.

في الســاعة الســابعة إلا خمس دقائق، رآه قادمًا على الرصيف المقابــل؛ عرفه فورًا من قبعته الرمادية ومعطفه المزدوج. في لحظة واحــدة نظر (بلتران) نحو واجهة المقهى، واحتســب الوقت الذي سيســتغرقه (روميرو) لعبور الشــارع والوصــول إليه. لكن لم يكن من المنطقــي أن يُصاب (روميرو) على ذلك البعد من المقهى، كان من الأفضل أن يُترك ليعبر الشــارع ويصعد إلى الرصيف. في اللحظة المناســبة تمامًا، شغّل (بلتران) الســيارة وأخرج ذراعه من النافذة. وكما توقع، رآه (روميرو) وتوقف مندهشًا. أصابته الرصاصة الأولى بــين عينيه، ثم أطلــق (بلتران) النار على الجســد المنهار. انطلقت ســيارة الفورد قاطعةً الشــارع بزاوية مائلــة، متقدمة بخفّة على الترام، ثم انعطفت عبر شــارع (تاكواري). فكّر "الرقم ثلاثة" - وهو يقود بلا اســتعجال- أن آخر صورة رآهــا (روميرو) في حياته كانت لرجــل يُدعى (بلــتران)، صديق قديم من مضمار الســباق في أيامٍ خلت.

* خوليو كورتاثــار (1914–1984) كاتب أرجنتيني بارز من روّاد الأدب اللاتيني الحديث، عُرف بقصصه القصيرة المبتكرة وأسلوبه السردي التجريبي الذي مزج فيه بين الواقع والخيال. وُلد في بلجيكا ونشــأ في (بوينــس آيرس) قبل أن يســتقر في باريس؛ حيث كتب أشــهر أعماله مثــل (نهاية اللعبة) و(الحجلة) التي تُعدُّ من أبرز الروايات اللاتينية. اشــتهر بدفاعه عن قضايا الحرية في أمريكا اللاتينية، ويُعدّ اليوم من أبرز كتّاب القرن العشرين الذين جدّدوا شكل القصة والرواية باللغة الإسبانية.

المصدر: من المجموعة القصصية "نهاية اللعبة".

https://biblioteca.choapa.cl/Libros/julio-cortazar-final-del-juego.pdf

** كاتبة ومترجمة أردنية

نوافذ ثقافية

محمد جميعان *

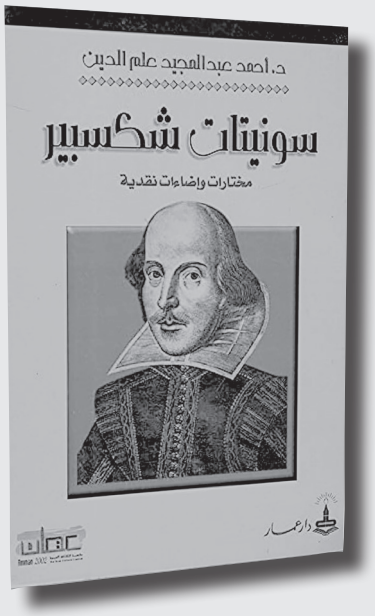

ثقافة عربية

سونيتات شكسبير/ د. أحمد عبد المجيد علم الدين

يضمُّ هذا الكتاب دراسةً نقديّةً لسونيتات شكسبير الشهيرة من حيث لغتها ومضمونها، ويحلُّ كثيراً من الألغاز المتعلقة بهذه السونيتات وعالمها، والمصدر الذي جاءت منه إلى بريطانيا، والقواعد التي تحكمها والأشخاص الذين توجّهت إليهم.

فبعد التعريف العام بشكسبير وحسم الخلاف في أنَّه ذات حقيقية أو وهم، قدم المؤلِّف شرحاً وافياً لكل سونيتة، من حيث فكرتها والظروف التي أوجدتها، شافِعاً ذلك بالنص الإنجليزي المترجم إلى العربية، مخصِّصاً مسرداً بالكلمات الصعبة والغامضة، وموجهاً نقده الفني والتاريخي للنقاط الجوهرية في هذه السونيتات، لكنَّه لم يلتزم في بعض الأحيان بالصيغة الزمنية في البيت الشعري، بهدف المحافظة على الوحدة الزمنية في هذه الرباعيات، مستخدماً الصور كوسيلة إيضاح فضلاً عن الأمثال وأبيات شعرية موازية تسهل على القارئ بلوغ المعنى.

ويتناول الكاتب الآفاق الأدبية في العصر الإليزابيثي وطبيعة اللغة التي تبدو أكثر سفوراً في الأعمال الفنية والأدبية، ويعقد جملةً من المقارنات بين سونيتات شكسبير وسونيتات كل من (بترارك، وهنري هوارد، وملتون، وسينسر...)، من حيث المتكلم في القصيدة والجو العام والصراع والمكان والزمان، وكيف عبَّر شكسبير عن مكنون نفسه وأدق خلجاته الشعورية. ويبدو عمق المعالجة النقدية حافزاً على إعادة نظر القارئ في طبيعة الأدب الشكسبيري واستقرائه في فضاءات تأخذ في اعتبارها الجانب التاريخي.

* كاتب وباحث أردني

الدوري (مأساة الدم والرحيل) / إبراهيم الخطيب

يتداخــل في هذه الرواية ما هو ســيري ذاتي وتاريخي وروائي، وتقدم الرواية صورةً بانورامية لمأساة الشعب الفلسطيني في النكبة الأولى عام 1948، فيكشــف المؤلف -عبر استرجاع الماضي تاريخياً- تقلُّبات الصراع على الجغرافية والأرض والقضيــة وعمــل الطامعين على الاســتئثار بها على قوانين "الطابو" وتســوية الأراضي. ووقفت الرواية عند نابليون وتحالفات زعماء الصهيونية العالميــة في أوروبــا على بســط نفوذهم على فلسطين التاريخيّة.

وتقف الرواية على بدايات الاستيطان وهجرة يهود الشــتات لتتســلّم الأطــراف الدولية دفَّة الصراع ليكون صراعاً عربيّاً – إسرائيليّاً، عبر بنية حكائيــة تضع القارئ في صلــب تاريخ الصراع، ولا تغفــل الرواية الوعي عــلى دور البرجوازية الفلســطينية وبعض العائــلات في التواطؤ مع المشروع الصهيوني في بيوعات الأراضي وإجهاض حركات المقاومــة، ويبدو هذا الملمح من خلال شخصيتي حســن علّام وأحمد النجار، وتماهي ابنيهما كمال وعلاء في ســبيل إنقاذ الوطن من الهيمنة الغريبة. وهاتان الشخصيتان الأخيرتان تمثلان الدوري الأصيل الذي لا يترك وطنه حتى يمــوت، وهو ما يتعانق دلاليّاً مع بؤرة العنوان، فهما رمز للجيل الذي يرفض التواطؤ والتضحية بالمكاســب العابرة على حساب الوطن بما تمتعا بــه في الرواية من وعي تمثّــل في التعليم، ومن

خلال عاطفة الحب الجياشــة التي جمعت كلاً منهما بسامية وبثينة.

وتتبنــي الرواية عــلى مســار تاريخي، وعبر هذا المسار تطوف بالأوضاع الاجتماعية بالمدن والقرى الفلسطينية، والأحوال السياسية في العالم وتأثير مجريات الصراع العالمي وانعكاساته على فلسطين، والطبقيّة الاجتماعيّة بين الفئات.

ولجعل الرواية أقــرب للواقعيّة لجأ الكاتبُ إلى استخدام اللغة العامية الدارجة للتعبير عن النبض الشعبي تجاه المواقف والأحداث، وهي اللغة المساندة بنائياً مع اللغة الوصفيّة في بناء أحداث الرواية.

نوافذ ثقافية

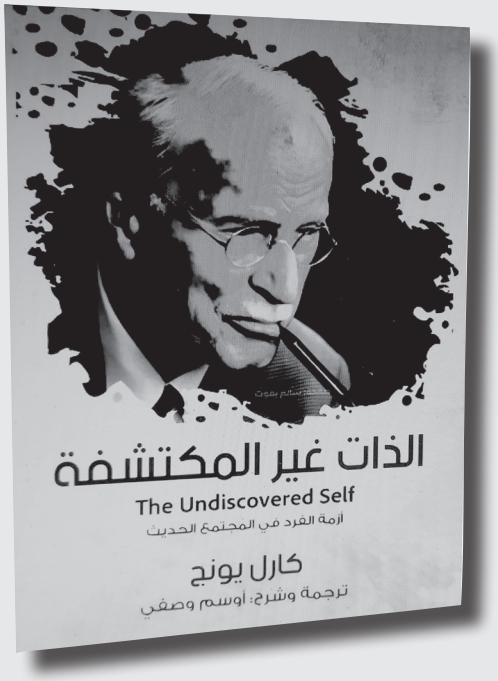

ثقافة عالمية

الذات غير المكتشفة/ كارل يونج، ترجمة: د. أوسم وصفي

"مـا لا نواجهـه في داخلنـا يظهـر لنا من الخارج كقدرٍ محتوم"، هذا ما يؤكّده (يونغ) وهو يقدّم في كتابه هذا رؤيةً تحليليّةً معمقة لطبيعـة النفس الإنسـانيّة، مركـزًا على تلك الأبعاد التي تبقى خفيَّة عن الوعي. فالإنسان، في نظـره، ليس مجـرد عقـل واعٍ يتحكم في أفعاله، بل هو كائن مكـوَّن من لاوعيٍ غنيّ بالرموز والصور والأحلام والموروثات الجماعية.

هذا اللاوعي – الشـخصي والجمعي – يحدّد مسار الفرد، ويكشـف عن جوهر ذاته التي لم يكتشـفها بعد. الكتاب إذن دعوة للغوص في أعماق النفس لفهـم التناقضات الداخلية والبحث عن التوازن بين عناصر الشخصية.

ويقف في تحليلاته عنـد الوعي واللاوعي، فـيرى أنَّ الوعي يمثّل مجـال الإدراك المباشر، لكنَّه محدودٌ وضيق، فيما يكون اللاوعي أوسع

وأعمــق، ويضــم محتويات مكبوتــة وتجارب منســية، إضافة إلى "اللاوعــي الجمعي" الذي يحمل خبرات الإنســانية عبر رموز وأسطورات متكــررة. ويرى أنَّ الصراع بين الوعي واللاوعي قــد يــؤدي إلى العصــاب إذا لم يُدمَج بطريقة صحية.

ويســتمر (يونغ) في سَــبْر الوعي الإنســاني فرديّــاً وجمعيّاً من خلال النظــر العميق فيما جرى التعــارف عليه في علم النفس بـ (الأنيما والأنيمــوس). فالأنِيــما هي الصــورة الأنثوية الموجــودة في لاوعي الرجل، وتمثــل العاطفة، الحدس، الخيــال، والارتباط بالبعــد الروحي. وتظهــر في الأحلام أو الخيال، وتســاعد الرجل على فهم عالمه الداخلي والجانب العاطفي فيه. أمَّا الأنِيموس، فهو الصــورة الذكَرية الموجودة في لاوعــي المرأة. ويمثل المنطــق، القوة، الرأي، الإرادة، والقدرة على اتخــاذ القرار. ويظهر في أحلام المــرأة أو رؤاها الداخليــة أو في طريقة إدراكهــا للرجــال، ويســاعدها عــلى تنميــة الاستقلالية والتفكير الواعي.

ويــرى (يونــغ) أنَّ كليهما جزء مــن عملية التفرد، أي تحقيق التوازن بين مكونات النفس للوصول إلى النضج والاكتمال.

ويقــف عند مفهــوم الظلّ، ويــرى أنَّه هو الجانب المظلم في الشخصية: الرغبات المكبوتة، وكل مــا لا يرضى عنه الوعــي. ومواجهة الظل وقبوله شرط أساسي لاكتشاف الذات الحقيقية، إذ لا اكتــمال دون الاعتراف بمــا نحاول إنكاره. لينعطــف فيــما بعــد للحديــث عــن الرموز والأحلام، فــيرى أنَّ الأحلام، ليســت عبثيّة بل رسائل من اللاوعي، تحمل إشارات إلى مشكلات داخليــة أو حلول غير واعية، فيما تظهر الرموز في الأحلام والأساطير وتمثل مفاتيح لفهم النفس العميقة.

ويتنــاول (يونــغ) مفهــوم التفــرد باعتباره العملية التي يســعى فيها الفــرد إلى التوفيق بــين وعيه ولا وعيه، والاعــتراف بكل مكونات شخصيته، بهدف الوصول إلى "الذات" كجوهر متكامــل، حيث ينســجم العقل مــع القلب، والوعي مع اللاوعي. والكتاب في مجمله دعوة فلســفية روحية للإنســان كي يواجه ما يخفيه داخلــه، وتحقيق التوازن أو أن نعرف حقيقتنا بانتباهنا إلى الظلّ، والإنصات للرموز والأحلام، وخوض رحلة التفرد نحو الذات الكاملة.

مـدارات البـوح

الشاعر والفنان التشكيليّ محمد خضير

بعضٌ من شاعر؛ يسكنه السؤال!

محمد خضير*

قابلتُ أمّي وجهًا لوجهٍ ظهيرة يوم الاثنين الثاني من أيلول في العام 1968؛ بكيتُ فابتسمَت، ولما غفوتُ على كفّيها؛ أسلمَتني للنّوم وقامت إلى غسيلها تكملُه... خرجتُ منها عاريًا إلّا من الأمنيات والاحتمالات التي تطوّق نزوحَنا، ولَدتني في المَنفى، فوق حصيرة حفرَت زخارفها على لحميَ الأزرق داخلَ خيمةٍ أوتادُها مأسورةٌ إلى التراب، وعلى ذمّة الرّحيل... يُولد الولدُ المُقيمُ، قادمًا مِن خيمةٍ خسرَت لونَها الرّماديّ في حربها مع شمس "القسْطل" التي ألهَبت نهارات مخيّم "الطالبية/ زيزياء"، هذا الأخيرُ الذي لم ينشغل بفكرة مولدي على ترابه بقدر ما أشغلَ سكّانَه بفكرة العودةِ التي بقيَت مفاتيحُها مجرّد زينةٍ صدئةٍ؛ انتقلت "بعد انتظار كاذب" من صدور الأمّهات إلى حيطان البيوت الحجرية الفخمة!.

* شاعر وفنان تشكيلي أردني

كان كلّما تقدّمَ المخيّمُ في العُمر؛ تخلّى عن شــكلهِ الذي بدأه حين كان مجموعةً من خيام أمسَت بيوتًا تعجّ بــصراخ الأطفــال والبُرود الســياسيّ، كما تخلّى عن وظيفته في رصد الجــوع والفقر وحُبيبات زيت السّــمك الذهبيّ، فتحوّل إلى غابة إســمنتية يغطيها "الزينكــو"، غابــة لها جــدران بيضاء نذَرَت نفســها لخربشــات العكاريت الصغــار... كنت واحدًا منهم؛ حين قبضــتُ على أوّل طبشــورة ملوّنة اســتطعتُ سرقتَها من روضةِ المخيّــم التي تخرّجتُ فيها حافيًا! مُديرة الروضة أدركت سريعًا بأنّني أســتعمل الألوان على غير ما يســتعملها بقيّة الأطفال هناك، فجلبَتْ من مطبخها علبةً كرتونيةً خاصةً بمســحوق الغسيل "ســيرف"، أفرغَتْها مِن محتواها، ثــم اقتطعَت جزءًا منهــا، قلبته أمامــي لأحظى بوجه الكرتــون الفارغ من اســم المنتج، قدّمَته لي مع علبة ألوان بلاستيكية ملوّنة، وأشــارت لي بأن أبدأ، رســمتُ مــا اعتاد كل مبتدئ على رســمه: كوخ جبليّ إلى جانب نهر يشقّ الورقة بلونــه الأزرق المتموّج، بينما قرص الشّــمس البرتقــالي يجلس في زاويتها العلويــة اليُسرى، إضافةً إلى شــجرة وحيدة تقف شــاهدةً على ربيع مفتَعل! ســارَعت المديرة بالقبض عليها وتعليقها أعلى جدار غرفــة الإدارة بواســطة خيط ومســمار، بدَت خلف طاولتها وكأنَّها لوحةٌ رديئةٌ هاربةٌ من إطار.

كبرتُ قليلًا... لم يطُل الوقت حتى حملتني وأهلي حافلــة "أبو العبــد" الكبــيرة إلى العاصمــة عمّان.. هناك اشــتعلت فكرة الحنــين إلى المخيّم، فدفعتني (نوســتالجيا) الوَراء للبحث عن طريقــة أُحيلُ فيها صراخ الانتظار إلى قصائدَ توثّق للحياة التي افتقدناها، وأن أعيد تشــكيل الخَراب إلى جمالٍ قادرٍ على مَحو أمّية العيون التي انشــغلَت في البحثِ عن تصاريفِ حياةٍ ما زالت عالقةً في المنفى!.

كبرتُ قليلًا... وأخذتنــي اللّغة العربيّة إلى عوالمها الفصيحة، وتأويلاتهــا الأنيقة، متأثرًا بمن أشرفوا على تعليمي خلال الإعداديــة وما قبلها، وفي أواخر هذه المرحلة شــكوتُ معلّم العربيّة...عند مدير المدرســة الذي نسيت اسمه بأنَّه يُحيل إليّ قراءة درس العربيّة كاملًا في كلّ مرّة، وكأنَّني الوحيد في صفّ يكاد ينفجر لكثرة ساكنيه! ضحك المدير قائلًا: "نعم، أنت الوحيد الذي يتقن القواعد قبل دراستها، كما أنّك تملك صوتًا عميقًا ومختلفًا، ومخارج حروف واضحة". ومن يومها بدأت أعيشُ في ثوب أديب فضفاض يرى نفسه على ســواه، إلى أن بلغتُ سنّ رشــد الكتابة فاستوى هذا الثوب على جسدي كما يليق بأحلامي.

كبرتُ قليلًا...وفي الثانوية العامة فزتُ بأول جائزة "في حياتي" على مستوى مكاتب وزارة التربية والتعليم قاطبــةً، عن قصتي "أوراقي خلف النّهر" التي أشرفَ عليها معلّم العربية "علي الرَّبَعي"، هذا الرّجل الذي أصابني بعدوى الشّعرِ والكتابة، فمرضتُ... ولم أشفَ إلى اليوم. كانت الجائزة طقم لقلمين، ســائل وجاف من نوع "شيفر".

كبرتُ قليلًا... فابتعتُ ديوانَ شــعر أصابَ ذائقتي بالغثيــان، وقلتُ بعد أن أودعتُه رفّ النّســيان: على صاحبه أن يقرأني يومًا، فأصدرتُ: "حالتان من العشق، نصــوص/2006"، "فــراغٌ مــليء، يوميّــات/2009"، "وجــهُ الغيــاب، يوميّــات/2011"، "أنا كــما أراني، يوميّات/2013"، "غِيضَ الكلامُ، شــعر/2016"، "رجْعُ

الكلامِ، سـياحة أدبيــة وتأمّلات/2020"، "النّاســك، شعر/ 2022"، "ماتت رجلًا، رواية/2022"، "ما تبقى منّا، شعر/2024".

كـبرتُ قليـلًا... وصار لقصيدتي أثـرٌ أصابَ بعض الجوائــز، منها: "عاطف الفرّاية للشّــعر" عن أفضل مخطوط شــعريّ للعام 2024 عــن ديواني "ما تبقى منا"، هذه الجائزة تصدرها رابطةُ الكتّاب الأردنييّن. ثم "جائزة ناجي نعمان الأدبيــة/ لبنان"، عن حقل الإبــداع 2024. ثم جائزة "حبيب الزيودي للشّــعر" الصــادرة عن الدائــرة الثقافيــة في أمانة عمّان الكبرى لأفضل ديوان شعريّ للعام 2025 عن مجموعتي الشّــعرية "النّاسك".

كـبرتُ قليـلًا... وعرفــتُ بأنَّ الشّعر يحتاج إنســانًا قادرًا على التخييــل في فضاء هذه الواقعيّة المريضة، فالتحليق خارج ســماء العقل يُســقط العاديّة، ويمنــح القصيدة أخلاقًا جديدة تليق بحداثوية الكتابة التي حجَزت لنفسها مكانًــا داخلَ كلّ جنس أدبيّ. ومنذ أول بيت؛ ما زال الشّــعرُ يبحث عن حاضنة لغوية تعلنُ سرَّه، وتشي بمعناه... الشّعر، كائنٌ جماليٌّ غامض، يقيم فينا، فإذا نزلَ بعتمة أضاءها! وهو المسافةُ بين الفراغ والامتلاء، وكلما غادرناه؛ جفّت مياه أخيلتنا، فأمســينا بورًا إلّا من العيش كشجرة تصطادُ حياتها مِن ريق الرّمل... ومن أجل أن يكتمل (أقصد الشّعر) عليه أن يستحمَّ بالشّــعرية؛ هناك تتجلّى مكانته، حين يُحرج المعنى بارتدائهِ ثوب الرمزية، وخلعهِ للكلام المُجرّد.

ونحــن إذ نَحيا خســاراتنا المتتالية؛ يصير الشّــعرُ ضرورةً للخروج من ضيق الفكرة إلى ســعة الخيال، ولعلّه القادر على محو الكآبة، والسّفر بنا إلى حدائق الفرح؛ خوف التورّط بالحزن الغزير.

والشّــاعرُ المجيدُ؛ هــو نائبُ الإنســان وســفيره، ولا يقتــصر دوره على إعادة تدوير الإنسانيّة بقدر ما تحتاجه هذه الإنسانية للنّبــش عميقًا في أروقة الحروب والفســاد والمجاعات لاســتخراج الحــبّ ونــثره في دروب العيون التي اعتادت الأخبــار العاجلة... الشّعر، وإن كان في عطلة؛ إلا أنَّه زهــرةُ الحياة التــي نمَت في أديم المقبرة.

كذلك النقد، فمنذ "الجرجاني" وحتى آخــر ورقة نقديّــة قدّمها أحدهم بين يديّ قصيدة أو رواية أو قصّــة؛ اختلــف معنى النقــد، وتلوّنــت أدواته، وصــارت له قيمةٌ مرتبطةٌ بصفــة العلاقة بين الناقد والمنقود له، فنشــأت علاقاتٌ حميميّةٌ بين الحقيقة والكــذب، بحيث التبس على النّــاس المعنى الأبيض الذي يوضّح (عند غيابه) أسبابَ الظلمة.

هــذا البوحُ قــد لا يرتقي للحقيقــة التي نبحث عنها، لكنَّه "على الأقل" يحكي بعضًا من شاعر يسكنه السؤال.

اللوحة للفنان العالمي بابلو بيكاسو

أفكار 442/2025

مطبعة الفنار